أحقٌ ما رأيتُ أم احتلامُ

أحق ما رايت أم احتلام ... أم الأهوال إذ صحبي نيام

الا ظعنت لنيتها إدام ... وكل وصال غانية رمام

جددت بحبها وهزلت حتى ... كبرت وقيل إنك مستهام

وقد نغنى بها حينا وتغنى ... بنا والدهر ليس له دوام

بشر بن أبى خازم الأسدى

شعر

بشر بن أبى خازم الأسدى

رؤية تاريخية وفنية

دكتور

فوزى محمد أمين

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



كتب الأدب والنقد

شعر
بشر بن أبي خازم الأسدي
رؤية تاريخية وفنية

دكتور
فوزي محمد أمين
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠٠٨

دار المعرفة الجامعية

مقـــدمة

بشر بن أبى خازم شاعر مشهور مجهول !! ، أما أنه مشهور فهذا ما ندركه من وضع ابن سلام له فى الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، ونحن نعلم أنه اختار لطبقاته فحول الشعراء الذين أجمع أهل البصر بالشعر على تقديمهم .

وأما أنه مجهول فلأن أمره وأمر شعره ظل مطويا ، ففقد ما كتبه ابن سلام عنه، واختفى ديوانه فلم يظهر إلا فى سنة ١٩٦٠ حين عنى بتحقيقه الدكتور عزة حسن.

وحتى كتب التراجم ضنت بأخباره ؛ إن هى إلا نتف قليلة ، وأخبار مبتسرة مكرورة ينقلها المتأخر عن المتقدم لا تروى نهما ، ولا تنقع غلة .

وفى الدرس الحديث أيضا لم ينل بشر حظه فلم نقع على دراسة له ، ولا نظن أن هناك من تصدى له بالدرس .

من هنا كان اهتمامنا ببشر إذ عز علينا ألا يلقى حقه من الدرس وهو الشاعر الفحل كما ينبىء بذلك شعره .

ولعل مما شحذ فينا العزم على النهوض بهذه الدراسة وجودنا فى منطقة القصيم بالمملكة العربية السعودية لسنوات عدة ، والقصيم هى ذات المكان الذى عاش فيه بشر ، وتنفس هواءه ، ووطىء أرضه ، وكان مسرحا لفعله وقوله .

وسيرى القارىء أن فى هذه الدراسة التى نضعها بين يديه أثر معايشة بيئة الشاعر ، ومحاولة تتبع خطاه ، والاهتداء إلى ما ورد فى شعره من أماكن ، وكل هذا لا ريب كان له أثره فى وضوح الرؤيه ، وإدراك مرامى الشاعر ، وتصورنا لما لابس شعره من أحداث .

ولا ندعى أن هذه الدراسة هى القول الفصل ، ولكنا نزعم أنها تنزع منزعا جديدا بما تحاوله من بناء سياق لشعر الشاعر يوثق صحيحه ، ويبهرج مازيف عليه أو اختلط به ، ويكشف ماران عليه من غموض ، وينفى عنه تهاويم القصاص وتلفيقاتهم ، ويقدم للقارىء صورة واضحة خالصة تعينه على التمثل والتذوق والإحساس الحىّ .

ونعلم سلفا وعورة ما نهجناه من مسلك ، ونعلم كثرة مخاطره ومزالقه ، ولكنه اجتهاد فإن أصبنا فبفضل الله وتوفيقه ، وإن كانت الأخرى فذلك جهد الطاقة وحسبنا صدق النوايا .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

دكتور فوزى محمد أمين

الفصل الأول

بنو أسد فى حومة الصراع

ينتهى نسب بشر بن أبى خازم إلى ثعلبة بن دودان بن أسد وثعلبة بطن من أكبر بطون بنى أسد ومنهم برز عدد من الزعماء والرؤساء والشعراء فكان منهم عبيد بن الأبرص ، وكان منهم خالد بن نضلة زعيم بنى أسد فى عدد من حروبها[١].

* * *

وأسد قبيلة بشر كانت تقطن فى المنطقة التى تسمى حاليا بالقصيم[٢] وكانت منازلها تتوزع فى شمال هذه المنطقة ووسطها وجنوبها وان كانت معظم هذه المنازل قد تركزت فى الشمال الغربى من منطقة القصيم موغلة فى الشمال فى بعض الأماكن لتصل إلى ما هو تابع الآن لمنطقة « حائل » . وقد حدد محمد بن ناصر العبودى فى معجمه الحديث عن بلاد القصيم منازل أسد فى هذه المنطقة باسمائها القديمة وما يقابلها من الأسماء الحديثة [٣] .

وجاورت أسد فى القصيم عديدا من القبائل المضرية فإلى الشرق من ديارها كان بنو تميم ، وتداخلت منازلها فى الشمال والوسط والجنوب مع قبائل غطفان وباهلة ، وبنى كلاب ، أما فى شمال القصيم فقد تداخلت ديار أسد وديار طيىء التى كانت تقطن جبلى أجأ وسلمى أو مايسمى الآن بحائل .

* * *

(١) أنظر النقائض جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٢) القصيم تبتدىء شرقا من الدهناء ، وتنتهى غربا بحدود المدينة المنورة على امتداد ٦٠٠ كيلومتر ، وتبتدىء جنوبا من حدود السر إلى حدود منطقة حائل فى الشمال على امتداد ٢٠٠ كيلومتر (انظر المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ــ بلاد القصيم جـ ١ ص ١٥) .

(٣) المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ــ بلاد القصيم جـ [illegible] مقدمة ، ومن هذه الأماكن أبان الأسود ، القنان (الوشم حاليا) ، أكبرة (أكيرا حاليا) ، الترس ، التين ، الجرير ، ثادق (ثادج حاليا) ، جرثم (الجرثمى حاليا) ، الربائع (الخدار حاليا) ، خصلة ، رقد (الرحا حاليا) ، الرس ، الرسيس الرمث (الرميثة حاليا) ، ساق ، السليل ، السليلة ، الشبكة .

وقد تباينت علاقة بنى أسد بالقبائل التى جاورتها فارتبطت مع بعضها بأحلاف جوار ، وناصبت بعضها العداوة والبغضاء ، على أننا نستطيع أن نقول: أن العلاقة اللافته فى علاقات بنى أسد كانت علاقتها بذبيان إذ قام بينهما حلف قوى متين فشلت كل القوى المناوئة فى أن تفصم عراه،أو تزعزع أسسه.

وقد حاول بنو عامر غير مرة الوقيعة بين ذبيان وأسد فلم يفلحوا ، وفى ذات مرة اشترطوا على بنى ذبيان نقض حلفهم مع أسد حتى يصالحوهم فكان رد ذبيان حاسما : أن صالحونا جميعا والا فلا صلح ، وإلى ذلك يشير النابغة الذبيانى فى قـــوله :

قالت بنــو عامـــر خالُـــوا بنـــى أسد
يابؤسَ للجهـــــل ضرَّاراً لأقـــــوامِ

يأبى البـــــلاء فلا نبغـــــى بهم بدلا
ولا نريـــــد خِلاءً بعـــــد إحكـــامِ

فصالحونـــا جميعـــا إن بدا لكـــم
ولا تقولـــوا لنـــا أمثـــالها عامِ[1]

ولا يفتأ النابغة يشير فى ديوانه المرة تلو المرة إلى هذه العلاقة الحميمة بين أسد وذبيان موصدا الباب فى وجه كل من يريد إفساد هذه العلاقة ، أو العبث بها فيقول محذرا بعض بنى عبس حيث أراد افساد هذا الحلف :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجـــــــورا
فإنى لستُ منك ولستَ منِّـــــــى

فهـــم درعـــى التـــى استـــلأمْتُ فيها
إلى يومِ الـــنسار وهـــم مِجَنِّـــى[2]

(١) ديوان النابغة ص ٨٢ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٢٧ .

وأنت ترى أن النابغة أشار إلى مساندة بنى أسد لذبيان فى يوم النسار ، وليس هذا باليوم الوحيد الذى وقفت فيه بنو أسد إلى جوار ذبيان فقبل النسار ساند بنو أسد بنى ذبيان فى حرب داحس والغبراء ضد عبس ومن التف بها أو ساندها من القبائل ، والنابغة يذكر ذلك لبنى أسد بكثير من الامتنان ، ويذكر لهم أنهم نفوا عبسا إلى أرض القعاقع ويقصد بها ديار بنى عامر :

فدع عنك قومـــــا لاعتـــــابَ عليهم
هم ألحقـــــوا عبساً بأرض القعَاقِـــــع[1]

والاشارات كثيرة فى ديوان النابغة ، وكلها تؤكد حرص بنى ذبيان على حلف بنى أسد ، وفى الجانب المقابل نجد حرص بنى أسد على حلف ذبيان ، ولعلنا سنقف فى شعر بشر على مايوضح ذلك .

* * *

هذا حلف أسد بوذبيان وقد رأينا ما كان عليه من القوة على أن هناك أحلافا أخرى ربطت بين أسد وبين غيرها من القبائل ، ولكنها لم تبلغ مبلغ حلفها مع ذبيان ، ومن هذه الأحلاف حلف أسد وطيىء .

وطيىء قبيلة يمانية تداخلت منازلها مع منازل أسد فى شمال القصيم — كما سلف القول — حيث كانت طيىء تقطن شمال وادى الرمة بين جبلى أجأ وسلمى .

وكان حلف أسد وطيىء حلفا ضعيفا متذبذبا ينعقد حينا ولكنه سرعان ماكان ينتقض لما كان بين القبيلتين من صراع حول مناطق الكلأ فى منطقة الحدود بينهما، أو حول تضارب المصالح الحيوية للقبيلتين فى المنطقة . وقد انعقد هذا الحلف بعد حروب طاحنة بين القبيلتين على يد حذيفة بن بدر زعيم بنى فزارة ، وانتقض ثم انعقد مرة ثانية على يد حصن بن حذيفة ، ولكنه عاد فانتقض بعد وقعة النسار وانتهى الأمر بالقبيلتين إلى الصدام فى موقعة ظهر الدهناء .

(١) ديوان النابغة ص ٨٧

والهمدانى يعرض صورة مزرية لبنى أسد فى حلفهم مع طيىء فيقول إن بنى أسد هم الذين سعوا إلى هذا الحلف ، وقبلوا ما فرضته طيىء من شروط مجحفة حيث اشترطت أن تزوج فيهم ولا تزوجهم ، وأن تجير عليهم ولا يجيرون عليها إلى غير ذلك من الشروط المذلة [1] .

ويمضى الهمدانى فيبين أن هذا الحلف كان أقل من الجوار حتى ضرب به المثل، وقال أحد الشعراء متندرا به :

دعانى ذو الرحيل فلم أجبه   إلى حلْفٍ أقلَّ من الجوار [2]

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الهمدانى يمنى متعصب لبنى جلدته من طيىء كان علينا أن ندرك ما فى كلامه من مبالغة ، ولكنا — على أى حال — لا نستطيع أن نقول : إن علاقة أسد وطيىء كانت علاقة ود خالص ، أو سلام دائم ، وانما هى علاقة ربما كانت تحكمها مصالح تقرب ما بين القبيلتين ، فإذا انتهت هذه المصالح عادت القبيلتان إلى ما كانتا عليه من تنافر وصراع .

أما ثالث أحلاف أسد فحلفها مع ضبة ، ودخلت معها فى هذا الحلف ذبيان وطيىء وسمى الجميع بالأحاليف ، وقد انعقد هذا الحلف فى أخريات القرن السادس الميلادى وفى عام ٥٨٣ م على وجه التقريب ، وكان سبب انعقاده أن بنى تميم — كما يقال — أرادت أن تأكل عمومتها من ضبة ، فاستصرخت ضبة ذبيان وأسدا وطيئا لنصرها على تميم ، بينما تحالفت تميم مع بنى عامر ، ودارت بين الفريقين معركتان من أكبر المعارك أولاهما فى النسار جنوب غربى القصيم حيث داهم الأحاليف عامرا وتميما ففرت تميم ، وانهزمت عامر هزيمة مروعة ، والثانية كانت فى الجفار — وأغلب الظن أنها كانت فى القصيم أيضا — حيث غضبت تميم لما أصاب بنى عامر ، وعز عليها تخليها عنهم ، فاستجمعت بأسها من جديد ولكن الأحاليف داهموها فهزموها هى الأخرى . ويقول أبو عبيدة : كان بين النسار

(١) الدامغة ص ٢١١ نقلا عن شعر طيىء وأخبارها فى الجاهلية والاسلام د. وفاء السنديونى حـ ١ ص ٦٧.

(٢) أنظر شعر طيىء وأخبارها فى الجاهلية والاسلام جـ ١ ص ٦٨ .

والجفار سنة ، وكانا قبل مبعث الرسول ــ ﷺ ــ بسبع وعشرين سنة[1] .

وواضح من استعراضنا لهذه الأحلاف أن هناك حلفا كان ثابتا بين أسد وذبيان وأن هذا الحلف كان يستقطب إليه أو يستقطب بعض القبائل فى ظروف متفاوتة كما شاهدنا من أمر ضبة وطيىء .

وكان قبالة هذا الحلف قبائل أخرى تجتمع على العداء لحلف ذبيان وأسد حينا، وتفترق لتنافر مصالحها أحيانا وخير شاهد على ذلك بنو عامر وبنو تميم .

ومحاولة تتبع الأحداث بين القبائل فى منطقة نجد فى القرن السادس الميلادى ، والربط بينها أمر مرهق ممض ، وربما لايخرج منه القارىء بحقيقة محددة واضحة لتشعب الأحداث ، وتضاربها ، وعدم عناية الإخباريين العرب بوضع هذه الأحداث فى سياق زمنى مرتب ، ولكننا ــ رغم كل ذلك ــ نستطيع أن نخرج بظن راجح يشير إلى قوى كانت تحرك خيوط الأحداث فى هذا القرن ، وتقرب أو تباعد بين هذه القبائل ، ولايخفى أن « نجدا » كانت منطقة صراع بين امارتى المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام .

ونستطيع أن نقول ــ دون تردد : إن امارة الحيرة كانت تدعم حلف أسد وذبيان وما التف حولهما من القبائل ، فلم نفكر أسد ــ مثلا ــ فى قتل حجر بن الحارث ملكها الكندى إلا بعد أن استعاد المنذر بن ماء السماء عرش الحيرة، وطرد الحارث بن عمرو أبا حجر ، وتتبع بنيه فقتل منهم ثمانية وأربعين فى ديار بنى مرينا [2] .

ثم أخذ ــ بعد ذلك ــ يوقع بين أبنائه لاضعافهم فأوقع بين شرحبيل وسلمة حيث اقتتلا فى يوم الكلاب الأول فقتل شرحبيل[3] ، ولم يبق من أبناء الحارث قويا إلا حجر ، وكان طبيعيا أن يتجه المنذر إلى بنى أسد يغريهم بملكهم حتى قتلوه .

(١) الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٥١٣ .
(٢) الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٥١٣ .
(٣) الكامل جـ ١ ص ٥١٣ .

واللافت فى روايات الاخباريين أن بنى أسد لم يكونوا وحدهم فى مقتل حجر بل كان معهم بعض القبائل القيسية ، تقول بعض هذه الروايات : إن بنى أسد بعد أن قتلوا حجرا قال قائلهم : « يامعشر كنانة وقيس أنتم اخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسبة منا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه »[١] .

كان مع بنى أسد — إذن — كنانة وقيس ، فمن من قبائل قيس ؟ لعلنا لانخطىء الظن إذا قلنا : إنها ذبيان .

وتشير روايات الإخباريين مرة ثانية إلى هذه الاتصالات التى كانت تتم بين زعماء حلف أسد وذبيان وما التف حوله من قبائل وبين أمراء الحيرة ، وتتحدث هذه الروايات عن وفود عبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم وهما من أسد ، والنابغة الذبيانى وهو من ذبيان على حاتم الطائى ثم وفود هذا الجمع كله على بلاط النعمان[٢].

وحركة هذه الوفد الأسدى الذبيانى إلى طيىء ثم إلى الحيرة فيها كثير من الدلالات ، وفيها برهان على ما أشرنا اليه آنفا ، ودعك من قول من يزعم أن عبيدا لم يعاصر بشر بن أبى خازم ولم يدرك النعمان ودعك من قصة مقتله الخرافية[٣] ، فعبيد عاش حتى أدرك النعمان أبا قابوس ، وعاصر معركتى النسار والجفار سنتى ٥٨٣م ، ٥٨٤م . وفى شعره اشارات إلى هذه المعارك ، وليس هنا موضع تفصيل القول فى كل ذلك ، وانما الذى يعنينا هنا أن نوضح أبعاد هذا الحلف ، وحقيقة القوى المحركة له .

ومما يؤكد ماذهبنا اليه من وقوف الحيرة وراء هذا الحلف أنه كان مستهدفا من غسان ، ومن نفل القول أن نشير إلى العداء بين المناذرة والغساسنة ، ومن نفل

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٦٦ وما بعدها .

(٢) الأغانى جـ ١٧ أخبار حاتم الطائى ص .

(٣) قصة مقتل عبيد فيها كثير من التناقض ، فقد قيل فيها أن المنذر بنى الغريين على رجلين من بنى أسد كانا نديميه أحدهما خالد بن نضلة الفقعسى. وخالد بن نضلة شهد النسار والجفار ، بل يقال أنه كان رئيس بنى أسد فى هذين الحربين فكيف يستقيم ذلك ؟ .

القول أيضا أن نشير إلى استنجاد امرىء القيس بالغساسة حين أراد أن يثأر لأبيه من أسد وممن وراءها ، وإلى ذلك يشير عبيد بن الأبرص بقوله الذى يخاطب به أمرأ القيس :

هلا سألتَ جموعَ كنـــــدة إذ تولَّوْا أيـــن أينـــا
أيـــام نضرب هامهـــم ببواتـــر حتـــى انحنينـــا
وجموعَ غسَّانَ الملـــوكَ أتـــينهم وقـــد انطوينـــا[1]

وفى شعر عبيد بن الأبرص اشارات متعددة لتلك الهجمات التى قام بها الحارث الغسانى الاعرج على بنى أسد [2] . وفيه أيضا وصف لما أحله الحارث الأعرج من تخريب فى ديار بنى أسد (القصيدة ٤ ص ٨ ، والقصيدة ٥ ص ١٠) وقد بين لتمان فى مجلة الدراسات الشرقية « Rivista Jegli Studi Orientali » أن هناك سجلا نقشيا لحملة قام بها الحارث الأعرج على هذه المنطقة سنة ٥٦٧م لعلها وقعة « ذرحرح » التى أشار اليها عبيد فى ديوانه .

ولم تكن أسد وحدها هى التى تصطلى بنار هجمات الغساسنة وإنما ابتليت بها معها حليفتها ذبيان ، وحين نرجع إلى ديوان النابغة نسمع أصداء هذه الهجمات على ذبيان (انظر ديوان النابغة : القصيدة الرابعة ص ٤٩ ، والقصيدة التاسعة ص ٥٩ ، القصيدة ١٤ ص ٩٨) .

وهذا العداء بين حلف أسد ـ ذبيان وبين الغساسنة لا تنحصر أسبابه فى قضية مقتل حجر الكندى فقط ، وإن كانت هى التى فجرت العداء ، ولكنها تتصل على نطاق أوسع بقضية الصراع بين امارتى الحيرة والغساسنة ومحاولة كل منهما أن تبسط نفوذها على القبائل العربية فى هذه المنطقة ، تأميناً لظروفها التجارية ومصالحها الحيوية .

ولعل هذا يفسر أيضا تذبذب قبيلة طيىء فى انضوائها تحت راية هذا الحلف

(١) ديوان عبيد ص ١٣٦ ، ١٣٧ تحقيق حسين نصار

(٢) أنظر الديوان ص ٩٩ ، ١١٧

فهي حينا معه — كما أسلفنا — وحينا عليه ، وهي تفتح أبوابها لامرئ القيس مجيرة له فى البداية ثم تتنكر له وتلفظه بطونها واحدةً تلوَ الأخرى حتى يخرج منها شبه طريد فى النهاية [1] ويبدو أن طيئا كانت تتحسب قوى الغساسنة ، ولا ننسى أن ديارها كان لا يحجبها عن هذه القوى حجاب ، ومن ثم فقد كانت مواقفها تتغير من آن لآخر حسبما تمليه ظروف الصراع وملابساته ، أو حسبما يتوفر لها من الحماية مايكفل لها الوقوف فى وجه غسان أو على الأقل اتقاء هجماتها .

ولعل هذا أيضاً يفسر ما نلمحه من محاولات امراء الحيرة لاسترضاء زعماء طيىء ، فأصهروا إليهم ، وخصوهم ببعض المنافع ، فقد أصهر النعمان بن المنذر إلى أوس بن حارثة وأقطعه ربع الطريق التجارى ، وخصه بحلة جعلها — كما يقال — لأكرم العرب [2] ، والنعمان بذلك — فى ظننا — كان يؤلف قلوب زعماء هذه القبيلة لطاعته فخص أوسا بحلته ، ولعله كان يعلم أن هناك من هو أكرم منه ، ولعله كان يعلم أيضاً أن هذا الصنيع ربما سيشعل نيران الأحقاد — وهو ماحدث — تجاه زعيم طيىء وبخاصة من زعماء ذبيان وأسد ، ولكن النعمان كان مطمئناً إلى أن ذبيان وأسد لن تخرجا عن طاعته ، ولذلك آثر أن يتجه بصنيعه إلى أوس بن حارثة زعيم هذه القبيلة التى تطيعه على حرف .

وفى الجانب المقابل كان حلف تميم وبنى عامر ، ولاندرى متى تم التقارب بين القبيلتين ، ولا كيف التأم ما بينهما من ترات واحن بعد المعارك الدامية التى قامت بينهما فى رحرحان وشعب جبلة . ولكن يبدو أن هدفاً مشتركاً ألف بينهما وجمعهما على عداء هذا الحلف الحيرى . أما تميم فيبدو أنها كانت تطمح إلى ميراث مملكة كندة فى السيطرة على القبائل العربية فى منطقة نجد ، ويبدو كذلك أن عداء تميم للمناذرة قديم ، ويقال إن عمرو بن المنذر (مضرط الحجارة) حرق

---

(١) انظر أخبار امرىء القيس فى الأغانى جـ ٩ ص ٩٤ وما بعدها ، وقد نزل امرؤ القيس فى البداية على بنى جديلة ثم خرج منهم فنزل على بنى نبهان إلى أن وقعت الحرب بين بطون طيىء من أجله . وبلغت إلى دلالة هذه الحرب على السباق بين الحيرة والغساسنة فى بسط النفوذ على طيىء .

(٢) انظر تفصيل قصة هذه الحلة فى الكامل للمبرد ١٩٩ ، والكامل لابن الاثير ١ / ٢٢٩ ، وخزانة الأدب للبغدادى جـ ٢/٢٦٣ ، ٤/١١١ .

منهم تسعة وتسعين رجلا فى يوم أوراه [1] ومن ناحية أخرى لاتغيب عنا هذه العلاقة الحميمة التى انعقدت أواصرها بين بنى تميم وبين ملوك كنده وهم من هَم فى عَدائهم للمناذرة ، فلما قتل شرحبيل بن الحارث فى يوم الكلاب الأول قامت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم دون عياله فمنعوهم ، وحالوا بين الناس وبينهم ، كذلك فقد استجار حجر بن الحارث بهم لما استراب من بنى أسد وأودع ابنته هندا عند واحد منهم هو عوير بن شجنه [2] . وفى ذلك يقول امرؤ القيس مثنيا على وفاء بنى سعد :

ألا أن قوما كنتـــمُ أمسِ دونَهـــم هـمو منعوا جاراتِكم آل غدرانِ
عويرٌ ومن مثلُ العُويرِ ورهطه أبـر بميثـاق وأوفى بأيْمـــانِ
هم أبلغُوا الحىَّ المضيَّعَ أهله وساروا بهم بين الفرات ونجران[3]

غير أن أمراء الحيرة كانوا يقدرون تميم خطرها ويرجون بأسها أن يشد بأس احلافهم ، فوقفوا منها موقف المروض يلقون اليها حينا ببعض المنافع ترغيبا ، ويلوحون لها حينا آخر بالقوة ترهيبا ، فجعلوا الردافة لبنى يربوع زمنا ، ولكنهم دخلوا بكل ثقلهم فى وقعتى النسار والجفار إلى حد القول بأن الأسود أخا النعمان كان قائد الأحاليف الذين حاربوا تميما وحلفها فى هاتين الوقعتين .

هذا عن تميم أما عامر فربما كانت تطمح إلى تكوين حلف قيس تكون هى زعيمة له وعلى هذا نستطيع تفسير دعوتها ذبيان أن تتخلى على أسد شرطا لمحالفتها وطبيعى أن هذا كان يتعارض مع مصالح المناذرة فى المنطقة ورغبتهم فى بسط نفوذهم على القبائل النجدية تأمينا لمصالحهم الحيوية .

وقد اشتد العداء بين وبين عامر وبين المناذرة ، وحين نرجع إلى ديوان النابغة نجده يشير إلى غدر يزيد بين الصعق أحد بنى عامر بالنعمان ويتوجه النابغة إلى

---

(١) انظر حديث يوم أوراه فى النقائض جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) الاغانى جـ ٩ ص ٨٥ .

(٣) الاغانى جـ ٩ ص ٨٩ .

يزيد محذرا ومقرعا بقوله :

فإنَ يقـــدر علـــيك أبـــو قيس تُعــــطَ بكَ المعـــيشَةُ فى هوان
وتُـخضَبُ لحيـــةٌ غدرت وخـــانت بأحمرَ من نجيــــــــع الجوفِ آن
وكـــــنتَ أمينَـــــة لو لم تخنـــــهُ ولكـــن لا أمانـــة لليمـــانى[1]

واليمانى هو يزيد بن الصعق، وقد كان بنو عامر يدعون باليمانية لقرب ديارهم من اليمن .

واللافت للنظر أن قبيلة ضبة هى التى انتقمت للنعمان من يزيد بن الصعق فى يوم دارة مأسل[2] وقد سلف القول أن ضبة كانت واحدة من الأحاليف .

ويذكر أبو عبيدة فى كتابه النقائض حادثة أخرى تثبت هذا العداء بين بنى عامر وبين المناذرة فيقول إن هبيرة بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر أغار على النعمان بن المنذر وهو على سفوان ماء من البصرة فأخذ امرأته المتجردة فى نسوة من نساء المنذر ، وأصاب أموالاً كثيرة ، واضطر النعمان إلى الهرب[3] ، وإلى هذه الحادثة يشير نابغة بنى جعدة بقوله :

وظـــل لِنِسوةِ النعمـــــان منـــــا على سَفَـــــوَان يومٌ أرْونـــــــانى
فأردفنـــــا حليلتَـــــه وجئنـــــا بما قد كان جَمَّـــعَ من هجـــان[4]

وبعد فلعلنا الآن استطعنا أن نتبين جوانب ربما كانت خافية فى صرع القبائل العربية بمنطقة نجد فى القرن السادس الميلادى ، ولعله أيضا قد تبين لنا دور كل من امارتى المناذرة والغساسنة فى هذا الصراع وإذا كنا قد كشفنا عن علاقة حلف أسد وذبيان بالمناذرة ، ولم نكشف ، أو لم نستطع الكشف عن علاقة حلف تميم وعامر بالغساسنة ، فليس ذلك يسقط دور الغساسنة فى تأييد هذا الحلف الأخير

(١) ديوان النابغة ص ١١٣ .

(٢) النقائض جـ ١ ص ٤٠٤ .

(٣) النقائض جـ ١ ص ٣٨٨

(٤) النقائض جـ ١ ص ٤٠٤ .

ودعمه ، والا فلم عداء المناذرة لهذا الحلف ؟! ولم بعثت هجمات الغساسنة على أسد وذبيان دون تميم وعامر ؟! .

المسألة فى نظرنا أساساً صراع على مناطق النفوذ بين الإمارتين ومن اليسير بعد ذلك اختلاق الأسباب والمبررات ليحتدم هذا الصراع ويؤتى بثماره .

وقد حاولنا أن نكشف عن أسس هذا الصراع وبواعثه بين يدى دراستنا لبشر بن أبى خازم لأننا لن نستطيع أن نقدر خطورة معركتى النسار والجفار اللتين شغلتا حيزاً كبيراً من شعر بشر إلا بعد تمثل هذا الصراع وتفهم أسبابه . فالنسار والجفار — فى الحقيقة — كانتا انتصاراً لنفوذ المناذرة فى منطقة نجد ، وبهذا فقط نستطيع أن نفهم لم انتصرت أسد وأحلافها فى هاتين الوقعتين على ما للحلف المعادى من ضراوة وشراسة ، بينما انهزمت انهزاماً مهيناً فى وقعة ظهر الدهناء وهى معركة محدودة ضد بطن من بطون طيىء هم بنو لأم .

وبهذا فقط نستطيع أن نفهم — أيضاً — سر هذا الحيز الضخم من شعر بشر الذى شغلته معركتا الجفار والنسار إشادة بقومه ، وافتخاراً ، وكأنه يدل بذلك على أمراء الحيرة مبيناً لهم ما أسدته قبيلته من صنيع ليكون الجزاء على قدر العناء .

على أننا — فى النهاية — لانريد أن يخرج القارىء من هذا العرض بانطباع عن أن القبائل العربية فى هذه المنطقة كانت دمى مشدودة بخيوط إلى أصابع محركيها فى إمارتى الغساسنة والمناذرة دون أن يكون لها ارادة فيما تقوم به ، فالذى لاشك فيه أن كل قبيلة من هذه القبائل كانت لها مصالحها ومطامحها ، وكانت تمالىء هذه القوة أو تلك على أساس هذه المصالح والمطامح .

الفصل الثانى

بشر وقضـــــايا قومه

— ١ —

خلاصة مانفهمه من الذين ترجموا لبشر أنه عاش فى القرن السادس الميلادى وكان له دور فى النصف الثانى منه على وجه التأكيد ، ومع ذلك يبقى هذا القول غير محدد فنحن لاندرى مثلا أأدرك بشر هذا النصف الثانى من القرن السادس صبيا أم شابا أو كهلا غير أننا نستنبط من مقدمة الدكتور عزة حسن للديوان أن بشرا كان شاعرا مكتمل الأداة قبل سنة ٥٣١م فقد رجح أن يكون عمرو بن إياس الذى مدحه بشر بقصيدته :

أطـلالُ ميَّـةَ بالتـلاعِ فمِثْـقَبِ أضحت خَلاءً كاطِّـرادِ المذهبِ

رجح أن يكون عمرو هذا هو عمرو بن الحارث اخا حجر بن الحارث الكندى والد امرئ القيس الشاعر[١] ، ومضى يقول : « ولعل بشرا قد مدح عمرو بن أم إياس قبل مقتل أخيه حجر بن الحارث ، وقبل نشوب الحرب بين آل آكل المرار ملوك كنده وبين بنى أسد قوم بشر »[٢] .

ونعلم من وقائع التاريخ أن تمرد بنى أسد على ملكهم حجر بدأ مع سنة ٥٣١م حين استرد المنذر عرش الحيرة من أبيه وبدأ يطارده ويؤلب على أبنائه ، وكان أن قتلت أسد ملكها حجرا فى غضون سنوات من هذا التاريخ .

فاذا قدرنا أن بشرا نظم مدحته هذه وهو ابن عشرين أو دونها بقليل فان مولده يكون فى عام ٥١١م أو بعده بسنوات . ويكون — على ذلك — قد شهد معركتى الجفار والنسار وعمره يجاور السبعين إذ المعروف أن هاتين المعركتين جرت وقائعهما — كما سلف القول — فى عامى ٥٨٣ ، ٥٨٤ م .

(١) مقدمة الديوان ص ٣٤

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٤

والقارىء لقصائد بشر فى النسار والجفار يشعر أنه كان صاحب دور رئيسى فعال فى أحداثهما ، ونستبعد أن يكون صاحب هذا الدور رجلا جاوز السبعين من عمره ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية نرى أن إشارات بشر إلى مقتل حجر بن الحارث جاءت سريعة قليلة مبتسرة ، ولو أن بشرا كان يوم حدث هذا فى سن العشرين لما اكتفى بهذه الاشارات ، ولكان لهذا اليوم شأن آخر فى شعره ، وبخاصة أنه يوم من أيام بنى أسد المجيدة ، وغالب الظن لدينا أن بشرا كان حديث السن يوم مقتل حجر ، فلم يشارك فيه ، ولم يع من أحداثه إلا مقدار مايعى الأطفال مما يدور حولهم من الحوادث العظام .

وثمة أخرى أن حجرا لم يكن له أخ يدعى عمرا وانما إخوبه ـــ فى حدود علمنا ـــ شرحبيل ، ومعديكرب الذى عرف بغلفاء ، وسلمة ، وأن الذى كان على بكر وائل هو شرحبيل الذى قتل فى يوم الكلاب الأول [1] .

والغالب على ظننا أن عمرا هذا واحد من نسل معاوية (الجون) أخى عمرو المقصور الذى ملك اليمامة ، ولعله هو الذى عرف بعمرو بن الجون وكان مقتله فى موقعة شعب جبلة عام ٥٥١م .

وحتى على افتراض أن عمرا هذا أخو حجر فلا ينبغى أن نفترض الوفاق بينه وبين أخيه ، ولم تذكر كتب التاريخ أن أمرأ القيس فى رحلة ثأره لأبيه استمد أعمامه، أو أمدوه ، وقد سلف القول أن الحيرة سعت للإيقاع بين أبناء كنده حتى أكل بعضهم بعضاً .

أما إذا صح ماذهبنا اليه من أن عمرا هو عمرو بن الجون ـــ وهو الصحيح فيما نعتقد ـــ فاننا يمكن أن نتأخر بتاريخ هذه القصيدة إلى قبيل سنة ٥٥١م، إذ انضوى عمرو بن الجون تحت راية الحلف الحيرى أسد ـــ ذبيان فى معركة شعب جبلة التى وقعت فى هذا التاريخ ، ويكون أدنى إلى المنطق حينئذ أن يمدح بشر عمرو بن الجون الذى انضم إلى حلف قبيلته .

---

(١) أنظر ابن الأثير جـ ١ ص ٥١٣ .

ولايتعارض ذلك مع ما نراه من أن مديح بشر لعمرو كان مديح مسترفد متكسب ، فبشر — إذ ذاك — كان فى مقتبل شبابه فتى راغبا فى الثراء ، وربما لم تكن قد أتيحت له الفرصة — بعد — لخوض غمار السياسة والانشغال بأمورها ثم هل هناك مايمنع أن يسترفد بشر هذا الحليف الجديد لقبيلته ؟ .

وإذا قدرنا أن عمر بشر كان إذ ذاك فى حدود العشرين أو دونها بقليل فانه يكون قد ولد فى الربع الثانى من القرن السادس الميلادى ، ويكون قد أدرك النسار والجفار عن عمر يناهز الخمسين عاما أو يجاوزها بقليل ، وهو عمر يسمح له ، بدور ذى بال فى هاتين المعركتين بعد أن أنضجته التجارب ، وعجمت عودة الأحداث ، ولما يزل بعد قادرا على تحمل أعباء الفروسية والقتال . وهذا لايتنافى مع مانراه فى مقدمات قصائد بشر عن الجفار والنسار من شكوى الشيب والصلع ، وصدود الحسان ، والتحسر على الشباب الضائع فرجل فى الخمسين من عمره لابد وأن يكون قد بدأ يحس دبيب الوهن فى جسده ، وفعل السنين فى هيئته وصورته.

* * *

ولم يرو لنا الإخباريون شيئا عن صبا بشر وشبابه ، ولكن شعره — على أية حال — يشى ببعض ملامح هذه المرحلة من حياته ، فهو كثيرا مايحدثنا عن عرامته وفحولته فى شبابه حيث كانت لاتطيش سهامه مع الغوانى الحسان ، يقول فى قصيدته « تغيرت المنازل بالكثيب » .

فإن يكُ قد نأتنى اليومَ سلمى ... وصدّت بعد إلف عن مشيبى
فقد ألهو إذا ماشئتُ يوماً ... إلى بيضاءَ آنسةٍ لَعُوبِ[1]

ويقول فى قصيدته (أجد من آل فاطمة اجتنابا) :

فان تك نَبلُها طاشت ونبلى ... فقد نرمى بها حِقَباً صِيَابَا
فتصطادُ الرجالَ إذا رمتهم ... واصطاد المُخَبَّأةَ الكَعَابَا[2]

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٣١ .

ويقـــول :

ليـــالى لا أطـــاوعُ من نهانى ... ويضفُـــو تحت كعبـــىَّ الإزارُ
فأعصى عاذلى وأصيبُ لهوا ... وأوذى فى الزيـــارة من يغـــارُ[1]

وإذا كان هناك من زعم أن بشرا تعلق بامرأة واحدة هى هند[2] فإن شعره يكذب هذا الزعم فقد ذكر فى شعره أسماء سبعة نساء هن هند أو هنيده وليلى وأم عمرو ، وأسماء ، وسلمى أو سليمى وادام ، وأميمه ، وفاطمة ، ومية هذا غير ماكنى عنهن مثل قوله « إن الفؤاد بآل كبشه مدنف » ومثل قوله « فإن تكن العقيليات شطت » . وإذا كان حديث بشر عن المرأة لايعنى فى نظرنا ــ بالضرورة ــ صورة واقعية لعلاقاته فإنه على الأقل يصور نظرته إليها ، ومنطلقة فى أى علاقة تقوم بينه وبينها فهو طالب متعه لايشغله الوفاء أو الغدر كما يصور ذلك بقوله :

ألا تنسى الكفـــورَ وكـــلُّ شىء ... من الأخـلاقِ تنتجـــعُ الرجـــالُ[3]

* * *

وشغف بشر أيضا بالخمر ومجالسها ، وبالقداح والرهان عليها ، يضيع ماله فى هذه السبيل ، ويفنى فيها طريفه وتالده كما يقول :

وعشت وقد أُفنِى طرِيفى وتالـدى ... فتيـــــلَ ثلاثٍ بينهن أُصرِّعُ
فإن سِقَاطَ الخمـــر كانت خَبَالَـــه ... قديما ، فلوموا شاربَ الخمر أو دعوا
وحبُّ القـــداح لايـــزال مناديـــا ... اليها ، وإن كانت بليل تُقعْقِع
نِغَـــاءُ الحسان المُرشِقَـــاتِ كأنها ... جآذرُ من بين الخدور تطلـــــع[4]

ويبدو أنه كان يطلق للهو عنانه ، فنراه يصف لنا مجلس خمر فى نانقياء من

(١) نظر مقدمة الديوان للدكتور عزة حسن ص ١١ .
(٢) الديوان ص ١٦٨ .
(٣) الديوان ص ١١٩ .
(٤) الديوان ص ٦٦ .

نواحى الكوفة ، وقد أحاط به ندماؤه ، وسعى بينهم الولدان بالخمر المعتقة والرغف والحيتان :

فقـــد أُرانى بنانقيـــاء متُكئـــاً   يسعـى وليـدان بالحيتان والرُّغُـــفِ
وقهـــوةٍ تُنشِقُ المستـــامَ نكهتَهـــا   صهبـاء صافيـةٍ من خمر ذى نطـفِ
يقـول قاطبها للشرب : قد كَلِـفَتْ   ومابها ثمَّ بعد القَطْبِ من كلف
ترى الظروف وإن عزَّ الذى ضمنت   مصفوفةً بين مبقُورٍ ومخْتَلَفِ[1]

ولا نشك ـــ بعد دلك ـــ فى أن بشرا كان من ذوى اليسار فى قومه ، فمثل هذه الحياة اللاهية تتطلب السعة والغنى ، ويبدو أن بشرا كان يعمل بالتجارة ، ولا ننسى بهذا الصدد أن ديار بنى أسد كانت تقع على الطريق التجارى الذى كان يأتى من الخليج متجها إلى الشام ، ونفهم من بعض شعر بشر ما يشى بنشاطه فى هذا المجال فهو يذكر أنه يثرى ماله بكل كسيبة لاعيب فيها :

بكـــــل كَسِيبـــــةٍ لا عيب فيها   أردت ثراء مالى أو صَلَاحِـــــى[2]

فهل تكون هذه الكسيبة غير التجارة ؟ .

ثم إننا نراه يحدثنا عن أسفاره المتواصلة ، ويلفتنا من بين هذه الأسفار رحلة بحرية ركب فيها سفينة تتقاذفها الرياح وهى موقرة بالقسط والرند والمسك والسلاح :

أجالـــدُ صفَّهـــم ولقـــد أُرانى   على قَرْوَاءَ تسجـــدُ للريـــاحِ
معبَّـــدة السقائـــف ذات دُسْرٍ   مُضَبَّـــرةٍ جوانبُهـــا رَدَاحِ
يمر الموج تحت مُشَجَّـــراتٍ   يلين الماء بالـخُشُب الصحـاحِ
ونحن على جوانبها قعـــــود   نغض الطـرف كالإبـل القِمـاحِ
فقـــد أو قِرْنَ من قُسْطٍ ورَنْـــدٍ   ومـــن مسك أَحَمَّ ومن سلاحِ
فطـــابت ريحهـــن وهـــن جُونٌ   جآجئُهُـــنَّ فى لُجَـــجٍ مِلَاحِ[3]

(١) الديوان ص ١٥٩ .
(٢) الديوان ص ٤٦ .
(٣) الديوان ص ٤٨ والمصدر ، المجمعة أبوابها . مدمج . الوسعة . الجآجئ : جمع جؤجؤ وهو الصدر

ولعل هذه الرحلة كانت فى الخليج ، ولعل بشرا كان له دور فى استيراد هذه السلع لقومه أو غيرهم من سكان الشام ، على أن جانبا من يسارِ بشر وغناه كان يرجع إلى تكسبه بشعره ، وقد أشار إلى تكرمة الملوك له على أنها من أسرار ثرائه :

بإرقاصِ المطيَّةِ فى المطايا — وتكرمةَ الملوك وبالقداح (١)

وقد سلف القول أن مدحه لعمرو بن أم اياس كان مدح مسترفد ، ونسوق هنا بعضا من هذا المديح ، يقول فى قصيدته البائية :

بحرٌ يفيضُ لمن أناخَ ببابه — من سائلٍ وثمالُ كل مُعصَّبِ

ويقول :

الحافظُ الحىَّ الجميع إذا شَتَوا — والواهبُ القيْناتِ شبه الربرب
والمانحُ المائةِ الهجانِ بأسرها — تُزجى مطافِلَها كجنة يثرب (٢)

ويقول فى قصيدته الفائية :

ملك إذا نزل الوفودُ ببابه — غرفوا غواربَ مزبدٍ لاينزف
متحلِّبُ الكفين غير غُضُبَّةٍ — جزلُ المواهب مُخلِفٌ ما يُتلِفُ
يكفيك ما اجترحت يداك ويعتلى — ما كان من نَطَفٍ وما لاينْطَفُ
الواهب البيضَ الكواعبَ كالدُّمى — حورا بأيديها المزاهر تَعْزِفُ
يعطى النجائبَ بالرحال كأنَّها — بقرُ الصُّوَارِمِ والجيادَ تَوَذَّفُ (٣)

ولعل عمرو بن أم اياس لم يكن الممدوح الوحيد للشاعر فى صدر شبابه ، ففى الديوان مقدمات قصائد نظن أنها كانت مدائح لآخرين ، وضاع — فيما ضاع من شعر بشر — أبيات المديح منها .

* * *

(١) الديوان ص ٤٦ .
(٢) الديوان ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) الديوان ص ١٥٥ والغضبة : العبوس الذى يغضب سريعا ، والنطف : العيب والريبة . وتوذف : تتبختر فى مشيتها من النشاط .

ثوى فى مُلْحَدٍ لابدَّ منه — كفى بالموت نأياً واغترابا

رهينَ بلى وكلُّ فتى سيبلى — فأذرى الدمع وانتحبى انتحابا[1]

* * *

هذه ملامح من حياة بشر بن أبى خازم استطعنا أن نستخلصها من شعره على شيء من المشقة والعسر ، وبالقراءة المتأنية لشعره المرة تلو المرة لأن شعر بشر فى الحقيقة لم يعبر عن ذاته بقدر ما عبر عن قبيلته بحيث لانكاد نستخلص منه نغمة ذاتية منفردة إلا ربما من بضع قصائد لاتشفى نهما ولا تنقع غليلا .

---

(١) الديوان ص ٢٦ .

— ٢ —

قلنا ، إن بشر بن أبى خازم لم يعبر فى شعره من ذاته بقدر ما عبر عن قبيلته ، ويحس القارىء أن صوت الجماعة يطغى فى شعر بشر على صوت الفرد حتى يكاد يطمسه ، ولا تعطينا بعض الخطوط الشخصية الا بعض المقدمات الغزلية لقصائده والا بضع أبيات وقصائد يفخر فيها بنفسه أو يرثى أخاه ، وحتى فى هذه لانستطيع أن نتبين بوضوح الخط الفاصل بين صوت الفرد وصوت الجماعة ، فهو مثلا حين يرثى أخاه فيعدد محامده وفعاله لايرى هذه المحامد والفعال إلا من حيث جدواها ونفعها لأبناء القبيلة ، فهو الفارس الذى ينهض إلى الحرب حين تضيق بشدتها صدور الرجال . وهو الذى ينجد الضعاف من فرسان قومه فيستنقذهم ، أو يدفع عنهم ، وهو الذى يغيث الناس فى السنة الجدباء ، ويعطى ماله لكل سائل محتاج . يقول :

يا سُمَيْـــرَ الفعــــــال من حروب مسْعَـــرٍ يجْلــن بالأبطـــــال

. . . .

[illegible] تصلى نيرانهن إذ ضاقت أربعَتُهم [illegible] صدور الرجــــال

وصريـــــع مُستَسْلـــم بين بيض يتعاوره [illegible] العـوالى

قد تلافيــت شلـــوه فوق نهد أعوجــى ذى ميْعــةٍ ونقـــال

فصرفت السمــر الرماح عنـــه بغَشُوس من مرهفات [illegible]

[illegible] [illegible] فحط القصرُ أمهات العيال

كنت غيثاً لهم فى السنة الشهباء ذات الغبــار والإمحـــال

[illegible] [illegible]

ومفيـد [illegible] يعفـو وهوب الحسان الغوالى (١)

(١) [illegible]

وصحيح أن أبيات بشر فى أخيه تشى بحزن عظيم وألم جسيم ، ولكنه حزن بحجم ماضاع من نفع سمير للقبيلة ، وألم على قدر ماخسر الناس بفقده ، أما العلاقة التى ربطت بين الأخوين ، أو لون الصلة التى جمعتهما فلم يحدثنا عنها بشر ، كأنه لم تربطه بأخيه ذكريات ، ولم تجمع بينهما أمسيات ، وشتان قول بشر فى رثاء « سمير » وقول متمم بن نويره فى رثاء أخيه مالك : .

وعشنا بخيرٍ فى الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهْطَ كسرى وتُبَّعا
فلما تفرقُنا كأنى ومالكا ... لطُول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا
وكنا كنَدْمَانَىْ جذيمة حقبةً ... من الدهر حتى قِيلَ لن يتصدَّعا
فان تَكن الأيام فرقن بيننا ... فقد بانَ محمودا أخى حين ودَّعا
أقولُ وقد طار السَّنَا فى رَبَابِه ... وجونٌ يَسُحُّ الماء حتى تَريَّع
سقى الله أرضاً حلها قبرُ مالك ... ذِهابَ الغوادى المُدجِنَاتِ فَأَمْرعا
وآثر سيلَ الواديين بِدِيمَةٍ ... تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا من النبت خِرْوَعا
فوالله ما أُسقى البلادَ لحبها ... ولكننى أُسقى الحبيبَ المُوَدَّعا[1]

فهنا نحس الألم لفقد أخ صديق ، ومؤنس حبيب ، وهنا نرى العلاقة الشخصية الحميمة التى كانت تربط بين الأخوين ، أو قل : إن النظرة للمصاب هنا تبدو من خلال فجيعة الشاعر الذاتية لا من خلال فجيعة الجماعة .

* * *

وحتى فى موقف النسيب وهو موقف له من الخصوصية ما له لاينسى بشر أن يذكر قومه مدلا بهم على محبوبته :

سلى انْ كنت جاهلةً بقومى ... إذا ما الخيلُ فِرّن من الجِراح
نحلّ مخُوفَ كلِّ حمى وثَغْر ... وما بلدٌ نَلِيه بمُستباح[2]

---

(١) المفضليات ص ٢٦٨ والسنا : ضوء البرق وتريّع : كثر وتردد .

(٢) الديوان ص ٤٤ .

وفى موقف آخر يبين لنا أنه ما كان يدمن فى هواه بالعقيليات من بنى عامر لشيء الا لتلك الحرب التى شبت بين قومه وبين بنى عامر ففصلت بينه وبين من يهوى :

فان تكن العُقَيليَّات شطت بهن وبالرَّهينات الدِّيارُ
فقد كانت لنا ولهن حتى زوتها الحربُ أيامٌ قصار
ليالى لا أطاوع من نهانى ويضفو تحت كعبىَّ الإزارُ[1]

وقد بلغ انشغال بشر بقضايا قومه أن كان آخر عهده بالحياة — بعد أن رماه ذلك الفتى الوائلى بسهمه القاتل — الاشادة بصلابة قومه وانتصاراتهم :

فيا للناس إن قَناةَ قومى أبت بِثقافِها إلا انقلابا
هم جَدَعُوا الأنوف فأوعبُوها وهم تركوا بنى سعدٍ يبابا[2]

* * *

نستطيع القول — إذن — إن بشر بن أبى خازم كان لسان قبيلته ، وإن شعره يعد — على نحو من الأنحاء — صورة لتاريخ بنى أسد فى المدة التى عاشها ، والتى رجحنا أنها بدأت مع الربع الثانى من القرن السادس الميلادى واستمرت حتى أخرياته .

---

(١) الديوان ص ٦٦ .

(٢) الديوان ص ٢٩ ، ٣٠ .

— ٣ —

وإذا كان عبيد بن الابرص يعد لسان بنى أسد فى ثورتهم على حجر بن الحارث الكندى ، ويعد شعره صورة لهذه الثورة ، فإن بشر بن أبى خازم يعد شاعر بنى أسد فى معركتى النسار والجفار ، فقد عاش بشر هاتين المعركتين بملءوجدانه، وتغنى بانتصار قومه فيهما ، وتكاد تكون هاتان المعركتان محور شعره ، ومن هنا تأتى أهمية دراسة شعر بشر فى نظرنا ، فالإخباريون والمؤرخون لم يعطونا إلا صورة موجزة مقتضبة لهاتين الوقعتين ، وكما ما فهمناه عنهم أن « تميما » أرادت أن تأكل عمومتها من « ضبة » فاستجارت ضبة بأسد وانضم إلى أسد ذبيان وطيىء ، وتسمى الجميع بالأحاليف ، أما « تميم » فقد استنصرت بنى عامر ، ودارت بين الفريقين معركة النسار وفيها انهزمت بنو عامر أمام الأحاليف هزيمة مروعة وانسحبت « تميم » ، وبعد عام دارت معركة « الجفار » إذ تألمت « تميم » لخذلانها بنى عامر فتصدت للأحاليف فى الجفار ولكنها انهزمت أيضا . هذا إلى جانب ما ذكروه من أن النسار حدثت قبل بعثة الرسول بسبعة وعشرين عاما أى فى عام ٥٨٣ م[١] .

وهذه صورة عامة مجملة فيها غموض يثير أكثر من تساؤل ، فلا ندرى مثلا كيف يدخل بنو عامر مناصرين لتميم ثم تنسحب تميم ويصمد بنو عامر فى المعركة، ولعل الأدنى إلى العقل أن يصمد بنو تميم ولو انسحب بنو عامر لأنهم هم أصحاب المعركة ، والداعون إليها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نتساءل لم دارت المعركة فى النسار ؟ والنسار يقع فى ديار بنى عامر وهو كما نعلم جبال متجاورة تقع إلى جنوب غرب القصيم لا تفصله عن حمى ضرية سوى مسافة يسيرة [٢] أما تميم فلم يكن هم

(١) انظر النقائض جـ ١ ص ٢٠٩ . الكامل جـ ١ ص ٦١٧ ، ٦١٩ ، العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٤٨ . المفصل فى تاريخ العرب حـ ٥ ص ٣٦٥ .

(٢) أنظر المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية (بلاد القصيم) جـ ٤ ص ١٤٦١

منازل فى هذه المنطقة أو قريبا منها ، وكانت منازلهم تقف عند حد معين فى ارتفاعها مع القصيم غربا إذ كانت لا ترتفع بعد رامة التى كان موقعها جنوب مدينة « البدائع » الحالية بمسافة ١٩ كيلا [١] . وإذا كان مما يذكر أن ضبة لها بعض منازل ومياه فى «ضرية» [٢] فالأدنى إلى المنطق أن يكون الخلاف أساساً بين ضبة وبين بنى عامر لتداخل منازلهما فى هذه المنطقة ، وأن تكون تميم هى التى دخلت المعركة مناصرة لبنى عامر ، وهذا أيضا يتواءم مع حدوث المعركة فى النسار .

هذه كلها أمور لانجدها تستقيم على وجه عند الرواة والإخباريين فهل نحن واجدون فى شعر « بشر » ما يصحح الصورة بحيث تستقيم على نهج يرتاح له العقل ؟ .

* * *

هلم — إذن — إلى شعر بشر ، ولتكن نقطة البدء قصيدته البائية :

عفت من سُلَيْمى رامــةٌ فكثـيبها　　　وشطَّت بها عنك النَّوى وشُعُوبها [٣]

وموضوع القصيدة خالص لمعركة النسار ، ولذلك نرجح أنها نظمت قبل وقعة الجفار ، وأول ما يستوقفنا فى هذه القصيدة قول بشر :

اجبنا بنى سعد بن ضبَّةَ إذ دعوا　　　ولله مولى دعوةٍ لايجيبُهـا
وكنا إذا قلنا هَوَازِنُ أقبلى　　　إلى الرشد لم يأت السَّدادَ خطيبها
عطفنا لهم عطف الضَّروسِ من الملا　　　بشهباءَ لايمشى الضراء رقيبها

والأبيات تشير إلى بواعث مناصرة بنى أسد لضبة ، وإلى أن بنى أسد لم يقدموا على المعركة إلا حين فشلت كل محاولات التوفيق بين ضبة وهوزان ، وإلا حين لم يفد نصح بنى أسد لهوزان أن تجنح إلى العقل فى علاقاتها مع ضبة :

(١) انظر معجم البلاد العربية السعودية (بلاد القصيم) جـ ٣ ص ٩٨١ ، ٩٨٢ .
(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ٤٦ .
(٣) الديوان ص ١٣ وما بعدها . ويمشى الضراء : يتخفى فى مشيه .

وكنا إذا قلنا هوازن أقبلي إلى الرشد لم يأت خطيبها

بشر ــ اذن ــ يتجه بحديثه إلى هوازن لا إلى تميم ، ولو كانت تميم هى التى أرادتْ أكل ضبة ــ كما زعم الرواة ــ لكان للقول مجرى آخر .

ويمضى بشر فى قصيدته فيقول مصورا ملاحقة قومه لبنى عامر :

إذا ما لحقنا منهم بكتيبةٍ تُذُكِّرِ منها ذَحْلُها وذُنُوبُها

بنو عامرَ هم العدو المقصود ، والنزاع قديم ، والذحول بين الطرفين كثيرة .

ونصل إلى ختام قصيدة بشر فنراه يخاطب بنى عامر مشيرا إلى أساس الصراع وباعثه الحقيقى :

دعوا مَنْبِتَ السِّيفَيْنِ إنهما لنا إذا مضرُ الحمراء شُبَّت حُروبُها

وليس المقصود بالسيفين هنا سيفى البحر ــ كما شرح الدكتور عزة حسن ولكنهما سيفا واديى الرشا والجريب اللذين يقع بينهما حمى ضرية منطقة الصراع بين ضبة وبين عامرٍ وهوازن ، وإلا فأى بحر فى هذه المنطقة ؟ وكانت هذه المنطقة من عالية نجد أخصب المناطق ، وكانت تسمى بالشرف [1] .

اتضحت القضية ــ إذن ــ بنو عامر وهوازن لا تميم هم الذين أرادوا أكل ضبة ، وأرادوا طردها من هذه المنطقة الخصبة ولم تفلح محاولات التوفيق فكانت وقعة النسار .

وهذا التصور الذى خرجنا به من شعر بشر يؤكده قول ربيعة بن مقروم الضبى مفتخرا بقومه :

وقومى فإن أنتَ كذَّبْتَنى بما قلتُ فاسأل بقومى عليما
فدى ببزاخة أهلى لهم وإذ ملئوا بالجموع الحريما

---

(١) المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ــ بلاد نجد [illegible]

وإذْ لقيت عامرُ بالنسار   منهم وطِخْفةَ يوماً غشوما [1]
به شاطروا الحىَّ أموالهم   هوازنَ دا وَفْرِها والعديما [2]

إذن فأين تميم ؟ إن الشاعر لم يذكرها مجرد ذكر وإنما ذكر عامرا وهوازن ولو كان الأمر — كما زعم الرواة — لصب ربيعة بن مقروم غضبه على تميم .

ونعود إلى بشر فنراه يشير إلى أن بنى تميم لم يكونوا إلا تابعاً فى الحرب وذيلا لبنى عامر :

سمونا بالنِّسار بذى دُرُوءٍ   على أركانه شَذَبٌ مَنِيعُ
فطارت عامرٌ شتىٌ شِلاَلاً   فما صبرت وماحَمِىَ التَّبِيعُ [3]

ولعلك لحظت قوله « وما حمى التبيع » وما يصوره فضلا عن التبعية من تخاذل بنى تميم ، وتهاونهم فى النسار .

بنو عامر — كما رأينا — هم دعاة الحرب ، وهم الذين جرُّوا تميما اليها ، وربما وعدوهم ببعض مناطق فى « ضرية » أو غيرها إذا تم النصر . ولكن يبقى السؤال بعد ذلك لماذا تخاذلت تميم ؟ أو قل : تهاونت فى وقعة « النسار » ؟ ولماذا لم تحارب عامر مع تميم فى « الجفار » ؟ هل انفصمت عرى الحلف الذى ربط بينهما ؟ هل كان ذلك لإحساس بنى عامر أن تميما تهاونت عمدا فى النسار ؟ أو أنه راجع إلى أن « الجفار » كانت معركة خاصة بتميم ولم يكن لبنى عامر مصلحة فى خوضها ؟ .

وليس أمامنا إلا الرجوع إلى شعر بشر لعله يعطينا إجابة عن هذه الأسئلة المحيرة أو لعله — على الأقل — يعطينا إشارات تهدينا إلى تصور معقول .

وأول ما نلحظه أن بشرا لايذكر بنى عامر إلا ونرى شعره يطفح بالنقمة والغضب والقسوة بخلاف ما نرى من موقفه من تميم إذ يشى خطابه لها بكثير من

(1) طخفة بجوار النسار وكثيرا ما تقرن بها ، والشاعر يقصد هنا يوم النسار .

(2) المفضليات ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(3) الديوان ص ١٣٥ الشذب : يقصد الرماح .

معانى اللين والإشفاق . على الرغم مما يبدو ظاهرا على السطح من عبارات التهديد والوعيد ، فنراه يأسى لعز تميم الذى يضيع على أيدى سفهائها الذين يجرونها لهذه الحرب :

وَصيوَّبَ قومَــه عمــرو بن عمــرو   كهــادِمِ عِزِّه وبــه انــــتصار [1]

وعمرو بن عمرو هو أحد زعماء بنى تميم ينتهى نسبه إلى عبدالله بن دارم .

ونفهم من شعر بشر أن هناك مفاوضات ومساومات جرت مع بنى تميم ونفهم أيضا أن بنى سعد كانوا هم الطرف المتشدد فى تميم ، ففى قصيدته البائية (تعناك نصب من أميمة منصب) يشير إلى هذا الرجل الصلت الذى فوض لمصالحة تميم وإلى زيارته لهم ، ثم إلى موقف بنى سعد المتشدد فيقول :

وقد زاركم صلتٌ من القوم حاشِدٌ   وأنتم له بادى الضغينة مذنب [2]

ويمضى بشر فيذكّر بنى تميم وسعدا منهم بالذات بصلات القرابة التى لايعرفونها إلا وقت الشدة :

إذا ما عُلُوا قالوا : أبونا وأمُّنا   وليس لهم عالين أمٌّ ولا أبُ

ويختم قصيدته بأبيات ثلاثة تمتزج فيها السخرية بالألم ، والدهشة بالإشفاق . وفيها مع ذلك تحريض خفى بنقض هذا الحلف المشبوه بين تميم وعامر :

أراكم أُنـــاساً لايُلِيــنُ صدورَكم   لأعدائِكم صَوْبُ الغمامِ المُجَنَّبُ
غضبتُم علينــا أن تقتَّــلَ عامــرٌ   وفى الحق إذْ قال المعاتبُ مَغْضَبُ
وحالفتُــمْ قَوْمــاً هَرَاقُــوا دمــاءَكم   لَوَ شْكَــانَ هذا والدمــاء تصبَّبُ

يا بنى تميم إننى أعرف انكم قوم أشداء على أعدائكم ، ألِدّاء فى خصومتكم لاتلين صدوركم ولو صب عليها الغمام مطره ، فكيف لنتم لبنى عامر ؟ أتغضبون

---

(1) الديوان ص ٦٨ .

(2) فى الديوان (بادى الظعينة) والصواب ما أثبتناه ، والرجل الصلت هو [illegible] لايأل[illegible] [illegible] جهده فى سبيل ما هو مقدم عليه . انظر ص ١٠

لما حل بهم فى النسار وأنتم تعلمون أنه الحق ؟ ثم كيف يقوم بينكم وبينهم حلف وهم الذين أراقوا دماءكم وهى لم تجف بعد ، وكأن بشرا يشير إلى ما فعلته عامر بتميم فى يومى الرُّحرُحَان وشِعب جَبَلة . والحديث كما نرى أنه أشبه بالعتاب ، وغير خاف ما فيه من تحريض .

ونأتى إلى قصيدة ثانية من قصائد بشر هى (أحق ما رأيت أم احتلام)[1] وهو يتوجه فيها إلى بنى سعد أيضا ، وقد علمنا أنهم كانوا الطرف المتشدد فى تميم وبعد المقدمة نراه يسوق قصة ماحدث بين بنى أسد وجذام فى الزمن القديم :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ طولَ الدَّهرِ يُسْلِى	ويُنْسِى مثلما نُسِيَت جُذَامُ
وكانـــوا قومَنَــا فبَغَـــوْا علينـــا	فسُقْناهم إلى البَلَـد الشآمـــى[2]
وكنـــا دونَهـــم حصْنـــاً حصينـــا	لنـــا الـــرأس المُقـــدَّم والسَّنَـــامُ
وقالوا : لن تقيموا إن ظَعَنَّا	فكان لنا وقد ظعنوا مُقَامُ

وبشر فى هذه الأبيات يشير إلى عاقبة بنى جذام حين تمادت فى غيها ، وركبت رأسها ، وظنت أنها الأقوى وأنه ينبغى أن يكون لها الرأس والسنام لا لأسد ، فتمردت على حماتها ، وكان ما كان من خروجها مدحورة إلى ناحية الشام .

والكلام موجه إلى بنى سعد ، وكأن بشرا يحذرهم من مثل هذه العاقبة .

ثم يمضى بشر وفى كلامه من الإغراء أكثر مما فيه من التحذير والوعيد فيقول :

ألا أبلـــغ بنـــى سعـــدٍ رسولا	ومولاهـــم ، فقـــد حُلِبَت صرام
نسومكـــم الـــرشادَ ونحن قومٌ	لتـــاركِ ودنـــا فى الحرب ذَامُ
فإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الـود منكـــم	ولم يك بيننـــا فيها ذِمـــام
فإن الجزْعَ جزع عُرَيْتِنَـــاتٍ	وبُرْقَـــةَ عيْهَـــمٍ منكـــم حرام .
ستمنعهـــا وإن كانت بلادا	بها تُرْبـــو الخواصرُ والسنـــام
بها قرت لَبُـــون النـــاس عينـــا	وحـــل بها عَزَ الِيَـــهُ الغمـــام

---

(١) الديوان ص ٢٠١ .

(٢) فى هذا البيت إقواء ، والإقواء أمر عرف به بشر بن أبى خازم .

ففى الوقت الذ نرى الأمر بين بشر وقومه وبين بنى سعد قد وصل إلى طريق مسدود ، وفى الوقت الذى يحذر فيه بشر بنى سعد عاقبة الخروج وعدم الانضواء فى حلف قومه (لتارك ودنا فى الحرب ذام) وفى الوقت الذى يحذر فيه بشر من تحريم « جزع عريتنات » و « برقة عيهم »[1] على بنى سعد ، نراه يغرى بنى سعد بجزع عريتنات وبرقة عيهم وبما فيهما من الخصب الذى تقر بها الإبل عينا فتربو خواصرها ، وترتفع أسنمتها .

* * *

ونستطيع الآن فى ضوء ما قرأنا من شعر بشر أن نفهم أنّ هناك مساومات جرت مع تميم ، وأن وعودا قد بذلت لهما بمناطق فى شمال غربى القصيم هى جزع عريتنات وبرقة عيهم مقابل أن تترك حلف عامر وتنضوى تحت راية ذبيان وأسد ، ونستطيع أن نقول أيضا : إن تميما ربما قبلت بهذا ولكن بعض بطونها كان يرفض التبعية ويرى أن يكون له نصيب فى زعامة هذا الحلف ، وهذا ما نلمحه فى موقف بنى سعد المتشدد ، وما يوحى به سياق ما عرضه بشر من قصة أسد وجذام :

وكنـــا دونهم حصنـــا حصينـــا — لنـــا الـــرأس المقـــدم والسنـــام
وقالـــوا : لن تقيمـــوا إن ظعنـــا — فكـان لنـــا وقـــد ظعنـــوا مقـــام

وربما أيضا كان أمل بنى سعد أن يكون لهم مناطق فى ضرية ذاتها لا فى جزع عريتنات أو برقة عيهم وهذا ما نبرر به إغراء بشر لهم بهذه المناطق .

وعلى أى وجه فقد جرت مساومات مع تميم كان الهدف منها أن تنفض يديها من حلف بنى عامر ، وربما جرت هذه المفاوضات قبل النسار أو فى أثنائها ، وهذا يكشف لنا عن سر تهاون تميم فى النسار فربما كانت هى الأخرى تريد أن تترك الباب مفتوحا حتى ينجلى الأمر فإن أجيبت إلى مطالبها فهى لم تحارب وإلا فهى فى حلفها مع بنى عامر .

---

(1) عريتنات تقع شمال وادى الرمة وبرقة عيهم تقع إلى الجنوب الغربى منها . أنظر المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية (بلاد القصيم) جـ ٤ ص ١٧٦٩ ، وانظر كتاب بحث فى شمال المملكة لحمد الجاسر فى تحديد موقع عريتنات ص ٩٠١ ، وانظر صحيح الأخبار لابن بليهد جـ ٣ ص ١١٠ .

لقد كانت منطقة « ضرية » ساحة الصراع وكان الاستيلاء عليها غاية المتصارعين لا من أجل خصوبتها فحسب ولكن لأنها كانت فم كل الطرق التجارية المؤدية إلى مكة . وإذ قد عرفنا ذلك أدركنا لم دخل الأحاليف والحيرة من ورائهم بكل ثقلهم معركة النسار ، وأدركنا أيضا سر هذه المفاوضات التى تعثرت وانتهت إلى طريق مسدود ، فالحلف الحيرى يرجو باس تميم وبخشاه وبخاصة بنو سعد جناحهم المتشدد الذى ربما كان يطمح ببصره إلى أن يكون له نصيب فى ضرية وما تمثله من ريع قوافل التجارة فضلا عن الخصوبة والنماء . وحين تعثرت المفاوضات لم يكن هناك بد من استخدام القوة فكانت موقعة « الجفار » .

وفى ظننا أن وقعة « الجفار » كانت وقعة تأديبية محدودة ويرجح هذا الظن أن حديث بشر عنها ينحصر فى أبيات معدودة ـــ بخلاف حديثه عن النسار ـــ ولعل أطول وصف لها ما أورده بشر فى هذين البيتين :

وملنـــــا بالجفـــــار على تميم غداة أتيْنهـــم رَهْـــواً بكـــورا
شجرناهـــم بأرمـــاح طوال مثقّفـــةٍ بها نفـرى النحـــورا [1]

وعلى كثرة ما أورده بشر من تفصيلات فى وصف معركة النسار نراه يكاد يصمت تماما عن الخوض فى مشاهد هزيمة تميم فى الجفار مكتفيا بعبارات عامة مميعة مثل « شجرناهم بأرماح طوال » ، « اسأل تميما بنا يوم الجفار » ، « ألفاهم القوم روبى نياما » .

ولايقال إن العصبية لهذا الفرع الخندفى من مضر هى التى كانت تمنع بشرا من الخوض فى بنى تميم وتجعله يلين فى حديثه إليهم ، فالغالب على ظننا أن المصالح كانت أقوى من العصبيات وإلا فما الذى جر طيئا إلى حلف أسد ؟ وما الذى جر تميما إلى عامر ، ولعل بشرا نفسه كان يعلم من أمر ذلك ما نجهله نحن حين اتجه إلى بنى سعد بقوله :

إذا ماعُلّــوا قالــوا أبونــا وأمُّنــا ولـــيسَ لهم عاليـــنَ أمٌ ولا أبُ

(١) الديوان ص ٩٣ .

والصحيح لدينا أن العصبية لم تكن توجه بشرا ولكن موقفه وموقف قومه تجاه تميم كانا متسقين مع موقف الحيرة منها : إغراء وترغيب وتلويح بالقوة ، وتأديب لايصيب مقتلا أملا أن تصبح تميم ـــ فى النهاية ـــ إحدى دعائم الحلف الحيرى.

* * *

— ٤ —

الجفار — كما انتهينا — كانت وقعة تأديبية محدودة ، ولم يسرف بشر فى تصويرها لأن الأمل على تميم كان لايزال معقودا ، وما هكذا كانت النسار إذ هى الوقعة الأساسية فى الصراع ، وما هكذا أيضا كان الأمر مع بنى عامر فهم قوم لاأمل فيهم ، وعداؤهم ما فيه رجعه وقد أريد بالنسار أن تصيب مقتلا من بنى عامر ، ومن هنا كان عنف الضربة كما صوره بشر ، ومن هنا أيضا كان الحيز الضخم الذى شغلته وقعة النسار فى شعر بشر ، ومن الجدير بنا أن نعود لهذه الوقعة فنتتبع حطرطها فى شعر بشر ، ولاشك أن هذا سيجلو أمام أعيننا عديدا من التفصيلات الدقيقة التى أغفلها الإخباريون والرواة أو تناقلوها على صورة مضطربة مشوشة .

وأول ما نقع عليه من أمر هذه الوقعة فى شعر بشر هو صورة الهجوم المباغت الذى أفقد بنى عامر توازنهم ، وأربك صفوفهم فلم يدروا ماذا يصنعون ، يقول بشـــر :

فلمـا رأونـا بالـنسار كأننـا . نشَاصُ الثريـا هيـجتها جَنوبُهـا
فكانوا كذاتِ القِدْرِ لم تدر إذ غَلَتْ أتُنزِلُهـا مذمومـةً أم تُذِيبُهـا [1]

ويمضى بشر فيصور أن هذا الهجوم المباغت شق صفوف بنى عامر فأصبحوا قطعة فى الشرق باليمامة وأخرى فى الغرب بأوطاس .

قطعناهـم فباليمامـةِ قطعـةٌ وأخرى بأوطاس تهر كَليبُهـا [2]

---

(١) الديوان ص ١٦ .

(٢) الديوان ص ١٨ ، وأوطاس : تسمى الآن أم خرمان ويلتقى عندها صريفا النعرة والكوفة إلى مكة . أنظر بلاد العرب للاصفهانى هامش ص ٣٧٣ .

ويشير بشر إلى القوى المساندة لبنى أسد وإلى تحركاتها من الشمال إلى الجنوب، فهذه طيىء تدخل بثقلها ، وتحارب بضراوة :

وشبت طيــىء الجبــلين حربــا تُهِــرُّ لشَجْوِهــا منها صُحــارُ [1]

أما « الرباب » فقد أخلت مواقعها فى شمال منطقة القصيم مصعدة إلى الجنوب حيث ساحة المعركة ، متخذة موقعا ملاصقا لبنى أسد :

وأصعــدت الرِّبــابُ فلــيس منها بصارات ولا بالحُــبْسِ نَارُ
فحاطونــا الــقَصَا ولقــد رَأَوْنــا قريبــا حيث يُستَمَــعُ السِّرَارُ [2]

أما حى بنى سبيع وهم بطن من ذبيان فقد حلوا فى قراضبة وحولهم سياجٌ منَ فرسان بنى أسد :

وحــل الحيُّ حيُّ بنــى سُبَيْــعٍ قُراضِبَــةٍ ونحن لهم إطــارُ [3]

وكان بنو بدر يحمون مؤخرة فرسان أسد حين داهموا بنى نمير :

إذ يُتَّقَــى ببنــى بدر وأَرْدَفَهــم خلف المناطق منا عَائِـذٌ يَكِـفُ [4]

والضمير فى « أردفهم » يعود على بنى نمير .

وأما سعد بن ضبة فقد عزت بأحلافها بعد ضعف ، وأصبحت فى موقع من يجير لا من يطلب الجوار :

وأنــزل خوفُنــا سعــداً بأرض هنا لك إذْ تُجِيرُ ولا تُجَارُ [5]

---

(1) الديوان ص ٦٧ .

(2) الديوان ص ٦٨ ، صارات : موقعها فى شمال القصيم إلى الشمال من سمار بقيعا بلاد القصيم جـ ٣ ص ١١٦٦ .

(3) الديوان ص ٧١ .

(4) الديوان ص ١٣٩ .

(5) الديوان ص ٦٩ .

ومن ناحية أخرى فقد أشار بشر إلى تخاذل بعض بطون ذبيان ، فهذه « أشجع » تفر من ساحة المعركة :

وأمــا أشجــع الخنثــى فولــوا ... تُيُــوساً بالشَّظِــىِّ لهم يُعُــارُ [1]

وفر بنو مرة ، ولم يكن فرارهم ليفت فى عضد بنى أسد :

ولم نَهْــلِك لمُرَّةَ إذ تولــوا ... فساروا سيــرَ هاربــةٍ فغــاروا [2]

وفى الجهة المقابلة يبين بشر مواقع بطون بنى عامر ، فأدنى هذه البطون إليهم « بنو عقيل » و « الوبار » أبناء وبر بن الأضبط بن كلاب :

وأدنى عامــر حيًّــا إلينــا ... عُقَيْــلٌ بالمَراســةِ فالوبــارُ [3]

أما « بنو قشير » فكانوا أقصى هذه البطون ولذلك جعلتهم الخيل غايتها :

جَعَلْـن قُشيْراً غايــةً يُهتَــدَى بها ... كما مد أشْطـانَ الـدلاء قَلِيبُهـا [4]

ويمضى بشر فيصور وقع المعركة على بطون بنى عامر بطناً بطناً فقد اكتسحت الخيل قشيرا ، بينما فر بنو الكلاب ، وتدثر بنو سليم بالسكون فزعا وخوفا :

وبُــدِّلت الأباطــح من قُشَيْــر ... سنــابكَ يُستَثــارُ بها الغبــار
وقــد ضَمَــرَتْ بجِرَّتهــا سُلَيْــم ... مخافتنــا كما ضَمَــزَ الحِمــارُ
وليــس الحى حى بنــى كلابٍ ... بمنجيهم ، ولو هربوا ، الفرار [5]

أما « نمير » فقد كانت تمنى نفسها بالنصر فحشدت خيلها ، وفرسانها ولكنها دوهمت بخيول الأحاليف :

(١) الديوان ص ٧١
(٢) الديوان ص ٣ .
(٣) لديوان ص ٧٠
(٤) الديوان ص ١٧
(٥) الديوان ٧٠ ، ٧١ ويقال ضمز البعير بجرته إذا أمسكها فى فيه ولم يجتر من الفزع

وبنـــــى نمير قد لقينَـــــا منهمُ خيــلا تضبُّ لثاتُهــا للمَغْنَـــمِ
فدَهِمْنَهم دَهْمــاً بكــلِّ طِمِــرَّة ومُقطِّع حَلَقَ الرِّحالــةِ مِرْجَــم [1]

ومرة أخرى يسخر بشر من أطماع بنى نمير ومن خيولهم التى حشدوها على جبل « ثهلان » ومما باءوا به من خذلان وخيبة أمل :

وسل نميرا غداة النَّعف من شَطِبٍ إذْ فُضَّت الخيلُ من ثهلان، ما ازدهفُوا؟
لما رأيتم رماح القوم حط بكم إلى مرابطها المُقْوَرَّة الخُنُفُ [2]

وثهلان جبل لبنى نمير فى ديار بنى عامر ويقع شطب إلى شماله [3] ونظن أن نعف شطب هو الصحراء الفاصلة بينه وبين ثهلان .

وليست غداة النعف من شطب إلا جانبا من معركة النسار فقد اكتسح الأحاليف ديار بنى عامر اكتساحا ، وداهموا بخيلهم الدانى منها والقصى .

وينتهى بشر إلى تصوير آثار المعركة فيركز بصفة خاصة على ما حل بنساء بنى عامر من هول وفزع وهن يستغثن ولا مغيث ، يقول :

تبيت النساء المرضعــات بِرَهْــوةٍ تفرأ من هول الجَنَانِ قُلوبُها [4]

ويقـــــول :

وكم من مرضع قد غادروهــــــــا خفيــفَ القــلب كاشفــةَ القنــاع
ومـــن أخـــرى مثابـــرةٍ تنـــادى ألاَ خلَّيتُمُونــا للضيــــاع [5]

ويصور السبايا وقد انهكهن الشل والايجاف خلف عبيد القبيلة :

(١) الديوان ص ١٨٣

(٢) الديوان ص ١٣٩ والمقورة : الخيل المضمرة ، والخنف : الخيل التى تثنى أيديها وأرؤسها نشاطا .

(٣) انظر صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الاثار لمحمد بن عبد الله بلهيد ط السنة المحمدية ١٩٥١ جـ ١، ص ١٠٢ ، ٧٢ .

(٤) الديوان ص ١٨ .

(٥) الديوان ص ١١٢ .

بنى عامر إذ ركبت نساءكم من الشلّ والإيجاف تُدمى عُجوبها
عضا ربطْنا مستحقبو البيضِ كالدمى مُضرَّجَةٌ بالزعفران جُيوبُها [1]

ولم يفت بشر أن يشير إلى زعيمى عامر وتميم وكيف فرا من هول هذا اليوم فالطفيل أبو الفارس العامرى المعروف عامر بن الطفيل لم يكن لينجو لولا جواده لأصيل المضمر :

ما طفيل فنجاه أخو ثقة من آل أعوجَ يعدو وهو مُشْتَرِفُ
مُزَنَّمُ كصليف القِدُّ اخلصه إلى نحيزته المضمارُ والعلف [2]

وكذلك أفلت حاجب بن زرارة أحد رؤوس بنى تميم على فرسه السريع محتميا بغبار المعركة :

وأفلت حاجبٌ تحت العوالى على مثل المُولَّعةِ الطلوب [3]
ففضضن جمعهم وأفلت حاجبٌ تحت العَجاجة في الغبار الأقتمِ [4]

هذه صورة النسار فى شعر بشر ولعل قارىء شعره يحس ــ بعد ذلك ــ أنه يرى المعركة رأى العيان بكل ما لابسها من هول وفزع وبكل ما جرى على ساحتها من كر وفر .

ولعلنا لحظنا من خلال هذه العرض أن بشرا ينسب فضل النصر كله لقومه وإذا أشار إلى دور القبائل الحليفة أشار إليه إشارة خاطفة ، أو بين أن بنى أسد كانت تقوم من هذه القبائل مقام السياج .

بل إن بشرا يعلنها صراحة ، إن النصر فى النسار تحقق بفضل بنى أسد بن خزيمة ويزف هذا النصر تياها إلى كنانة :

أبى لبنى خُزَيْمةَ أنَّ فيهم قَدِيمَ المَجد والحسبُ النضارُ

(١) الديوان ص ١٩ والعضاريط : الأجراء .
(٢) الديوان ص ١٤٠ .
(٣) الديوان ص ٢٣
(٤) الديوان ص ١٢ .

هم فضلُوا بخَلاَّتٍ كرام		معدا حيثُ حلُّوا وساروا
فمنهن الوفاءُ إذا عقدنا		وايسارٌ إذا حُبَّ القُتارُ
فأبلغ إن عرضتَ بهم رسولا		كنانةَ قومنا فى حيث صاروا
كفينا من تغيَّبَ واستبحنا		سنام الأرض إذ قَحِط القِطارُ [٤]

وهذا أمر طبيعى فهو من جهة حديث عصبية يفخر فيه شاعر بقومه ومن جهة أخرى هو إدلال بدور بنى أسد على أمراء الحيرة ليرعوا لأسد حقها ، ويوفوها قدرها .

(٤) الديوان ص ٧٢ .

— ٥ —

لقد أشاد بشر ببلاء طيىء فى النسار ، وأوضح أن حربها أثارت من الفزع والهول ما تهر له « صحار » فى أقصى الجنوب :

وشبّتْ طيىءُ الجبلين حرباً   تهر لشجوهـا منها صُحارُ

ولكن يبدو أن أمر طيىء اختلف فى « الجفار » فنرى بشرا يشير إلى تخاذلها وفرارها يوم الجفار . وهذا ما لم تشر اليه المصادر التاريخية . ففى قصيدته الفائية (أتى المنازل بعد الحى تعترف) [١] ، يقول :

واسأل تميما بنا يوم الجفار ، وسل   عنا بنى لأمٍ إذ ولّوْا ولم يقفوا
لما رأو قَسْطَلاً بالقاع أفزعهم   وأبصروا الخيل شُعْثاً كُلُّها يَجِفُ

وربما تبادر إلى الظن أن ذلك عصبية من بشر لقومه ، وأنه كدأبه يجعل النصر خالصا لهم ، ولكن يدفع ذلك أمران :

الأول : أن العصبية لم تمنع بشرا من الإشادة بموقف طيىء فى النسار ، بل إنه قد صور بلاءهم على نحو مبالغ فيه .

الثانى : أننا نرى بشرا لم يرق له الافتخار بانتصار قومه فى الجفار إلا فى معرض هجائه لأوس بن لأم زعيم بنى طيىء . ولا تكاد قصيدة من قصائد هذا الهجاء تخلو من ذلك ، يقول فى إحدى هذه القصائد :

وحولى من بنى أسدٍ حُلولُ   كمثل الليل ضاق بها الفضاء
هم وردوا المياه على تميم   كورد قطاً نأت عنه السِجاءُ [٢]

---

(١) الديوان ص ١٣٧ .

(٢) الديوان ص ٤ .

ويقول فى قصيدة ثانية :

وهـم وردوا الجفـار على تميم   بكـل سَمَيْدَعٍ بطلٍ نجيبِ [1]

ويقول فى ثالثة :

وملنـا بالجفـار على تميم   غداة أتينهم رهـواً بُكـورا
شجرناهـم بأرمـاح طوالٍ   مثقفـة بها نفـرى النحـورا [2]

ويقول فى رابعة :

وملنـا بالجفـار على تميم   على شعث مسوَّمـةٍ عتـاقِ [3]

وهذا يؤكد أن بنى طيىء خذلوا أحلافهم فى الجفار فلو كان لاوس وقومه من طيىء دور فى تحقيق النصر بالجفار لما افتخر بشر به فى معرض هجائه ، إذ كيف يتعالى على قوم بنصر كانوا هم من صنّاعه ؟ .

وربما يفسر لنا ذلك لم كان بشر فى هجائه لاوس وقومه من بنى لام يصمهم دائما بالغدر واللؤم والجبن :

فيـا عجبـا عجبـتُ لآل لأم   أما لَهُـمُ إذا عقـدوا وفـاء ؟
مجاهيـلٌ إذا نُدِبُـوا لجهـل   ولـيس لهم سوى ذاكا غَنَـاءُ
وأنكـاسٌ إذا استعـرت ضَرُوسٌ   تخلى من مخافتها النسـاء [4]
إذا عقـدُوا لجار أَخْفَـرُوه   كما غُرَّ الـرِّشاءُ من الذَّنُـوبِ [5]
غدرت بجاريـتكِ يا ابـنَ لأم   وكنت بمثـل فعلتِهـا جديـرا [6]
وانكـاسٌ غداة الـرَّوْعِ كُشْفٌ   إذا ما البـيضُ خلَّين الخدورا [7]

(١) الديوان ص ٢٢ .
(٢) الديوان ص ٩٢ .
(٣) الديوان ص ١٦٦ .
(٤) الديوان ص ٢ ، ٣ .
(٥) الديوان ص ٢١ .
(٦) الديوان ص ٩١ .
(٧) الديوان ص ٩٠ .

وربما نتساءل عن سر هذا الشقاق الذى حدث بين طيىء وحلفائها والذى أدّى إلى انسحاب طيىء من وقعة الجفار ، ثم إلى هجاء بشر المُقذع لأوس وبنى لأم الذى انتهى أخيرا إلى الصدام فى وقعة ظهر الدهناء بين أسد وطيىء .

ونعود إلى ما تناقله الرواة من أمر هذا الخلاف فنراهم يحكون أن النعمان بن المنذر ـــ ملك الحيرة كان دعا بحلة وعنده وفود العرب من كل حى فقال احضروا فى غد فإنى ملبس هذه الحله أكرمكم . فحضر القوم جميعا فى غدهم إلا أوس بن حارثة فإنه تخلف . فقيل له لم تخلفت ؟ فقال : إن كان المراد غيرى فأجمل الأشياء ألا أكون حاضرا ، وإن كنت أنا المراد فسأطلب ويعرف مكانى فلما جلس النعمان فى مجلسه لم ير أوسا بين القوم فقال اذهبوا إلى أوس فقولوا له : أحضر آمنا مما خفت ، فحضر أوس إلى المجلس ، وأُلبس الحلة فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئه الشاعر : اهجه ولك ثلاثمائة ناقة ، فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثا ولا مالا إلا من عنده .. فقال لهم بشر بن أبى خازم أنا اهجوه لكم [1] . وهذه الحكاية تشير إلى أن الذى حسد أوسا كان بعض قومه ، ونظن أن المعنىّ هم بنو ثعل قوم حاتم الطائى الذى كان ـــ كما يقال ـــ فى صراع على سيادة قومه مع أوس .

كما تشير إلى أن بشرا تطوع هجاء أوس ربما رغبة فى المال أو لعلاقه طيبة تربطه مع بنى ثعل .

ونحن لا ننكر أن هناك صراعا على سيادة طيىء كان قائما بين بنى لأم وبنى ثعل ، كما لا ننكر أن علاقة طيبة كانت تربط بين بنى أسد وحليفتها ذبيان وبين حاتم الطائى وقومه [2] ولكن هذه القصة شىء وما تشير إليه قصائد بشر فى هجاء أوس شىء آخر .

فشعر بشر يشير إلى أن الخلاف كان بين بنى بدر وهم من فزارة من ذبيان

---

(1) الكامل لابن الأثير جـ [illegible] ٢٢٩ . الكامل للمبرد ص ١٩٥ . خزانة الأدب جـ ٢ ص ٢٦٣ ، ٤ ص ١١١

(2) الأغانى جـ ١١ ص [illegible] ، معاهد ، ص ٣٩٣

وبين بنى لأم قوم أوس ، ويشير إلى أن طيئا أسرت جماعة من بنى بدر وجزت نواصيهم ، ونفهم ذلك من التهديد الذى يتوجه به بشر لأوس وقومه إذ يقول :

فإذ جُزّت نواصى آل بـــدر فأدُّوهـــا وأسرى فى الوثـــاق
وإلا فاعلمـــوا أنـــا وأنتم بُغَـاةٌ ما حيينـا فى شقـاق (١)

وفى ظننا أن هؤلاء الأسرى هم هؤلاء الوفد الذين نزلوا جيرانا على أوس فغدر بهم ، وإلى ذلك يشير بشر بقوله :

ألا أبلـــغ بنـــى لأم رسولا فبئس محلُّ راحلـــةِ الغـــريب
لضيـــف قد ألـــمَّ بها عشاء على الخسف المُبيَّن والجُدوب (٢)

ومرة أخرى يشير بشر إلى غدر أوس بهذا الوفد الضيف :

غدرت بجار بيـــتك يا ابـــن لأم وكـنت بمثـل فعـلتها جديـــرا (٣)

الخلاف إذن كان بين بنى بدر وهم عظم فزاره ورأس الحلف الذبيانى الأسدى وبين بنى طيىء وعلى الأخص بنى لأم قوم أوس وعلى هذا نفهم سر إلقاء بشر بثقله فى هذا الصراع الذى أصبح قومه طرفا فيه بواقع ما بينهم وبين ذبيان من حلف ، أو ربما لأن هذا الصراع يمس مصالح قومه فى ناحية من نواحيه . أما أن بشرا يدخل هذا الصراع طمعا فى المال كما تصور الحكاية التى رواها الرواة فهذا مانستبعده استنادا إلى ما لمسناه من فناء بشر فى قومه ، وتنصيب نفسه لسانا معبرا عن قضاياهم ، وما نظن إنسانا هذا شأنه يقحم نفسه فى هجاء أوس لو أن حلف أوس بقومه كان قائما مهما كان المقابل المادى الذى يناله من ذلك .

وننفهم من شعر بشر أن الأمر كان صراعا على السيادة ، فغير مرة نرى بشرا يسخر من تسويد طيىء لأوس إذ هو فى نظره لايستحق السيادة ، يقول :

---

(١) الديوان ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ص ٢١ .

(٣) الديوان ص ٢١ .

وَمَا أوس ولو سَوَّدْتُموه بمَخْشِيِّ العُرَامِ ولا أرِيبِ[1]

ويسخر من تعظيم طيىء لقبر حارثة بن لأم أبى أوس :

جعلتم قبرَ حارثةَ بن لأمٍ إلاهاً تحلفون به فجورا [2]

ويصل السخط عند بشر مداه فيعسبه على بنى لأم جميعا :

لئام الناس ما عاشوا حياة وأنْتَنُهم إذا دُفِنُوا قبورا [3]

وليست هذه السيادة فيما نحسب حلة ألبسها النعمان لأوس فما كانت هذه الحلة بالغة ما بلغت لتوقع بين فزارة وطيىء وتفصم عرى الحلف المعقود بينهما . ولكن الأمر فى نظرنا أبعد من ذلك ، وهو ـ فيما نعتقد ـ لابد وأنه أمر يمس المصالح الحيوية لهذه الأطراف المتصارعة .

وقد وردت فى شعر بشر إشارة ربما تكشف لنا أبعاد هذا الصراع وذلك إذ يقول فى إحدى قصائد هجائه لأوس :

ألا بَلَحَت خَفَارَةُ آلِ لأمٍ فلا شاةً تُرُدُّ ولا بَعِيرَا [4]

وقد تعاقب الشراح على هذا البيت بشروح مجملة مؤداها أن بشرا يصف قوم أوس بعدم الوفاء ، ولكن البيت فى نظرنا يتعلق بالخفارة ويسخر من بنى لأم لعجزهم عن القيام بأعبائها والشطر الثانى يؤكد هذا حين يوضح أن هذه الخفارة العاجزة لاترد شاة ولا بعيرا .

الأمر إذن يتعلق بالخفارة أو بحراسة الطرق التجارية وهو مايمثل أكثر المصالح حيوية للقبائل فى هذه المنطقة ويؤكد صحة ما ذهبنا اليه فى تفسير هذا البيت خبر ورد فى الأغانى مؤداه أن النعمان بن المنذر قد جعل لبنى لأم بن عمرو بن

(١) الديوان ص ٢١ .

(٢) الديوان ص ٩١ .

(٣) الديوان ص ٩٠ .

(٤) الديوان ص ٩٠

طريف ربع الطريق طعمة لهم وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عند النعمان وكانوا أصهاره .

وربما نفهم بعد ذلك لماذا كان بشر يصب نقمته على بنى لأم بالذات دون بطون طيىء الأخرى ، وربما نفهم بعد ذلك سر ما صنع أوس بهذا الوفد الفزارى فلعل أوسا استراب من هذا الوفد أو أحس أنه يحاول إشعال النار بين بطون طيىء، ولعله هو نفسه ذلك الوفد الذى أورد خبره صاحب الأغانى ونورد هذا الخبر بنصه :

« أقبل ركب من بنى أسد ومن قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا له أنا تركنا قومنا يثنون عليك خيرا وقد أرسلوا إليك رسولا برسالة . قال : وما هى ؟ فانشده الأسديون شعرا لعبيد ولبشر يمدحانه ، وأنشد القيسيون شعرا للنابغة »[1].

وما نظن أن فحوى الرسالة هى تلك المدائح التى نظمها عبيد وبشر فى حاتم، ولو أننا نتساءل أيضا عن سر هذه المدائح التى تكال لحاتم وحاتم بالذات .

ونعتقد أن فحوى هذه الرسالة لم يكن إلا تأليبا لحاتم على أوس فلم يكن ليغيب عن أسد وذبيان ذلك الصراع بين ثعل قوم حاتم وبين بنى لأم قوم أوس وفضلا عن ذلك فإن حاتما كانت تربطه علائق قوية ببنى فزارة وبنى بدر منهم بالذات فقد نزل فى جوارهم زمن حرب الفساد وقال فى ذلك :

جاورتُهم زمن الفساد فنعـ ـم الحىُّ فى العوْصَاء والـيُسر
فسُقِيتُ بالماء النمير ولم يُنْظَرْ الىَّ بأعين خُزْرِ

وطبيعى بعد ذلك أن يصنع أوس بهذا الوفد ما صنع ، وطبيعى أيضا أن يبلغ الصراع مداه بين أوس وبين بنى أسد ومن مالأهم حتى يلتقى الفريقان فى وقعة ظهر الدهناء التى انتصرت فيها طيىء .

(١) حـ ١٧ ص ٣٥١ .

ومهما يكن من أمر فهذا جانب من الصراع كان بشر فيه أيضا لسان قومه ولم يبرح أوسيا كما صورته الرواة والأخباريون ضعفا في مال وإنما هو يميل حيث مال قومه ويتجه بشعره حيثما اتجهت مصالحهم . وقد رأينا جليا أن شعر بشر وحده هو الذى هدانا إلى تصور بواعث هذا الصراع وأبعاده .

الفصل الثالث

السياق التاريخى لشعر بشر

تمهيد

أشرنا فى كتابنا « عنترة بن شداد العبسى » إلى أهمية بناء سياق تاريخى لشعر من نتناوله بالدراسة من شعراء ، وأوضحنا أن معنى هذا السياق هو أن نضع شعر الشاعر فى تسلسله الزمنى حسبما تراءى لنا أنه نظمه بما تهدينا إليه ملابسات حياة الشاعر وفنه الشعرى .

ولاشك أننا ببناء مثل هذا السياق إنما نحاول إعادة بناء الموقف الذى أوحى إلى الشاعر بكل قصيدة من قصائده ، هذا الموقف الذى كان يمثل أرضا مشتركة يقف عليها الشاعر وسامعوه ، فيفهمون عنه ، ويردون كلامه إلى مقاصده الحقيقية دون أن تلتبس عليهم عبارة ، أو يتخفى عليهم معنى .

واعتمادا على هذه المشاركة كان الشاعر كثيرا مايكتفى بالتلميح وكثيرا مايجرى قوله على غير تتابع تاركاً لسامعه أن يقرن اللفق بلفقه ، والنظير بنظيره ، وكان كثيرا مايأتى بالضمائر لاتعود على ظواهر ، لأن السامع كان يعيش الموقف ، ويعلم وجهة القول .

فاذا كنا ـــ فيما نروم ـــ نحاول إعادة هذا الموقف ، أو استعادته فما ذاك إلا لأننا نحاول أن نقف مع الشاعر القديم على الأرض التى كان يقف عليها معاصروه وفى غيبة هذا الموقف أو هذا السياق الذى نحاوله ستظل أعمال الشاعر عرضة للخلط ، والفهم الخاطىء .

وعلى تقديرى لمّا بذله الدكتور عزة حسن من جهد فى تحقيق ديوان بشر فإن غياب السياق عنه أوقعه فى بعض التفسيرات الخاطئة ففى القصيدة الرائية « ألا بان الخليط ولم يزاروا » يقول بشر :

وأصعدت الرباب فليس منها | بصاراتٍ ولا بالحُبْسِ نارُ
فحاطونا القصا ولقد رأونا | قريبا حيث يُستَمَعُ السرار
يسومون الصلاح بذاتِ كَهْفٍ | ومافيها لهم سَلَع وقَارُ
وأنزل خوفنا سعدًا بأرض | هنالك إذ تُجيرُ ولاتُجَارُ

فقد فسر الدكتور عزة حسن البيت الأول بقوله « أى ارتفعوا هاربين إلى نجد » يقصد الرباب ، وفسر البيت الثانى بقوله « هربوا منا ، وتباعدوا عنا ، وهم حولنا ، وماكنا بالبعد منهم لو أرادوا أن يدنوا منا »[1] .

وقارىء هذا التفسير يفهم منه أن الرباب كانت على عداء مع أسد وأنها فرت إلى نجد ، وهذا مايخالف الحقيقة تماما بل يأتى معاكسا لها ، لأن الرباب لجأت إلى أسد مستغيثة كما سبق أن أوضحنا ، وعلى ذلك يكون معنى البيت الأول أن الرباب أصعدت من صارات والحبس وهما فى شمال نجد أصعدت إلى الجنوب الغربى حيث ميدان المعركة ، ولم يكن ذلك فرارا ، أما البيت الثانى فيأتى متمما لذلك حيث يبين أن الرباب وقفت غير بعيد من أسد بحيث يسمع السرار .

ويمضى الدكتور عزة حسن بعد ذلك فيأتى إلى البيت الرابع فيعرف « سعدا » بانها سعد بن زيد مناة بن تميم » والحقيقة ان الشاعر لايقصد سعد تميم ولكنه يقصد سعد ضبة التى عناها بقوله :

أجبنا بنى سعدِ بن ضَبَّةَ إذ دَعَوْا | ولله مولى دعوة لايجيبها

وكان طبيعيا بعد ذلك أن يضطرب فهم الدكتور عزة للشطر الثانى فقد فسره بقوله « انزلهم خوفنا بأرض لايخرجون منها وقد كانت تجير ولا تجار ، فصارت إلى هذا الحال » وهذا كلام لايستقيم على وجه ، وإنما قصد الشاعر أن سعد بن ضبه قد بلغت بفضل حماية الأحاليف لها المبلغ الذى تجير فيه ، ولاتحتاج لطلب الجوار .

ونترك هذه القصيدة إلى قصيدة بشر الفائية « أى المنازل بعد الحى تعترف » وفيها يقول بشر :

لما رأيتم رمـاح القـوم حط بكـم   إلى مرابطهـا المُقْـوَرةُ الخُنُـفُ
إذ يُتَّقَـى ببنـى بَدْأمـر ، وأرْدَفهـم   خلـف المناطـق منـا عائِـد يكـف

وقد ظن الدكتور عزة أن الضمير فى أردفهم يعود على بنى بدر فقال فى شرح البيت « إنكم تتقون ببنى بدر ، وتجمعونهم جيشا ، فأردفهم منا طعن فوق المناطق »أى أن الطعن كان فى بنى بدر ، وهذا لايتصور بحال لأن بنى بدر كانوا أحلاف بنى أسد .

والصحيح أن الضمير يعود على بنى نمير الذين يخاطبهم الشاعر بالبيت السابق على هذا البيت ، ويكون المعنى « إننا نتقى ببنى بدر ، ونردف بنى نمير طعنا فوق مناطقهم » وهذا مايقول به السياق .

وفى القصيدة الميمية « غشيت لليلى بشرق مقاما » أثبت المحقق قول بشر على أنه :

وكعبـا فسائلهـم والرِّبـابَ   وسائـل هَوازِنَ عنـا إذا ما
لقينَاهُـمُ كيـف نُعْلِيهُـمُ   بواتِـرَ يفريـن بَيْضًا وهامـا

والصواب كما نعتقد « وكعبا فسائهلم والضباب » لأن الرِّباب كانت مع أسد لا عليها ، فكيف تفريها بسيوفها ؟ أما الضباب فهم الضباب بن كلاب بن ربيعه ، وهم بطن من بطون بنى عامر .

ونجتزىء بهذه الأمثلة ولانستطرد إلى عديد من الأبيات توقف عندها الدكتور عزة ، ولم يهتد إلى تفسير ، وإلى أخرى فسرها تفسيرا مبتسرا لايصل القارىء منه إلى شىء ، لأن كل هذا وأكثر منه متوقع حين لايوضع العمل فى سياقه .

على أن الفهم الصحيح ليس هو كل مايحققه بناء سياق لشعر الشاعر فمن خلال هذا السياق سنقف على تطور شعر الشاعر ، ونتابع عن كثب ماتتسم به

من خصائص فنية فى معالجته لموضوعه بحيث يتيسر لنا فى النهاية ان نبلور هذه الخصائص على اساس موضوعى دون ان نصدر الحكم جزافا .

كما أن هذا السياق سينفى تلك الأطر الزائفة التى وضعها الإخباريون لكثير من القصائد قصدا للتسلية والسمر . وسينفى هذا السياق أيضا ماداخل شعر الشاعر ، أو اختلط به ، أو نسب إليه مما يبدو غير متلائم مع أسلوب الشاعر ، أو غير متوافق مع مايصوره من أحداث .

وشعر بشر بن أبى خازم يدور معظمه حول موضوعات واضحة منها معركة النسار ومعركة الجفار وموقفه من أوس بن حارثة إن هجاء وإن مدحا . وكان يسيرا أن نميز مايخص كل موضوع من هذه الموضوعات من شعر بشر ، ولكن المشقة كانت فى ترتيب القصائد التى تعبر عن كل من هذه الموضوعات ولذلك كان جل اعتمادنا على ماتصورناه من منطق استجابة بشر للأحداث ، وعلى ماينبغى لمثله أن يقوله أولا أو تاليا فيما يعترضه من أحداث . كذلك استطعنا أن نميز جملة قصائد ومقطعات تمثل مرحلة ما قبل النسار ، دلتنا على بعضها روح الشباب والمغامرة ، وعلى بعضها الآخر أحداث تاريخية ملابسة ، أو قرائن من شخصية بشر وفنائه فى قومه . وقد عرضنا كل هذه القصائد عرضا تحليليا ليتابع القارىء معنا عن كثب فن بشر الشعرى .

وقد ينكر علينا القارىء اختيارنا لموضع قصيدة أو اخرى من هذا السياق ، ولكن لاأظنه ينكر — فى النهاية — ماحققه هذا السياق لشعر بشر من وضوح ، وما أعاده إليه من نبض وحياة .

قبل النسار

.. نستطيع أن نضع فى مقدمة هذه المرحلة قصيدتى بشر فى مدح عمرو بن أم اياس ، وقد رجحنا أن يكون هو عمرو بن الجون الذى قتل فى شعب جبلة ، وقد اشرنا إلى أن هذه الوقعة جرت فى عام ٥٥١ م ، ومعنى ذلك ان نظم بشر لهاتين القصيدتين يقع قبل هذا التاريخ .

والقصيدتان هما : قصيدته البائية ورقمها فى الديوان « ٧ » .

أطلال مية بالتِّلاع فمِثْقَبِ   أضحت خَلاءً كاطِّرَادِ المَذْهَبِ

وقصيدته الفائية :

إن الفؤادَ بآلِ كبشةَ مُذْنَفُ   قطع القرينةَ غُدْوَةً من تألُفُ

أما القصيدة الأولى « البائية » فعدتها ثلاثة وعشرون بيتا ، يبدؤها بمقدمة يقف فيها على أطلال مية بالتلاع ومثقب واصفا دموعه إثر رحيل المحبوبة بين الظعن التى مضت تتمايل فى سيرها كأنها سفن تكفأ فى الخليج ، ينتقل بعد ذلك إلى ناقته التى تنتشله من همومه فيصفها مستطردا إلى وصف الحمار وأتانه ، ثم يستطرد مرة أخرى فيشبه ناقته بالنعامة بين رئالها ، وقد استغرقت هذه المقدمة أربعة عشر بيتا انتقل بعدها إلى بيان مقصد رحلته :

فإلى ابنِ أمِّ إياس عِمرٍو أرْقَلَت   رَتَكَ النعامة فى الجَدِيب السبسب
أرْمِي بها الفلوات ضامزةً إذا   سمع المجد بها صَرِيرَ الجُنْدُبِ
حتى حللت تُسوِّغَ رَحْلِ مطيتى   بفِنَاءِ لابَرِمٍ ولا مُتَغَضِّبِ

ويأخذ بعد ذلك فى مدح عمرو فيركز على الكرم والسخاء فهو بحر يفيض ، وهو ثمال كل جائع أضر به الجوع ، وهو حافظ الناس إذا اشتد بهم جدب الشتاء ، وهو الذى يمنح من إبله المائة دفعة واحدة معها أولادها .

وطبيعى ان يركز بشر على وصف ممدوحه بالكرم والسخاء فهو مادح مسترفد ، ولو أنه ألم إلى جانب ذلك ببعض الصفات الأخر ، فوصف ممدوحه بالحياء والشجاعة .

.. أما القصيدة الثانية « الفائية » وهى فى الديوان تحت رقم (٣١) فعدتها ستة عشر بيتا ، يبدؤها بمقدمة تستغرق عشرة أبيات يقف فيها على أطلال آل كبشه ثم يخرج نفسه من همومه بناقته السريعة ، الهوجاء مستطردا فى تصوير ناقته بالنعامة التى يعرض لها ذكر النعام كأنه حبشى عليه كساء من قطيفة .

هوجاءُ ناجيةٌ كأن جَدِيلَهـا ... فى جيد خاضِبةٍ إذا ماأَوْجَفوا
يرى لها خَرِبُ المُشَاشِ مُصَلَّمٌ ... صعلٌ هِبَلٌّ مُنَاسِف أسْقَفُ
أكَّالُ تَنُّومِ النَّقَاعِ كأنه ... حَبَشِيٌّ حازِقَةٍ عليه القَرْطَفُ

وينتقل ـــ بعد ذلك ـــ بشر فجأة إلى مدح عمرو بن أم اياس :

فإلى ابن أم إياسٍ أرحل ناقتى ... عمرو ستنجح حاجتى أو تُزْجِفُ

ويركز فى المدح أيضا على صفة الكرم فالوفود تغرف من بابه من بحر لاينفد ، وهو متحلب الكفين ، جزل المواهب ، يهب البيض الكواعب الحور ، ويعطى الإبل الكرام برحالها .

والملحوظ فى القصيدتين ـــ على تفاوتهما فى الطول ـــ تشابه ابناء وتقارب معانى المديح ففى القصيدة الأولى يقول :

بحرٌ ، يفيض لمن أناخ ببابه ... من سائلٍ وثِمادُ كل مُعَصَّبِ

ويقول فى الثانية :

ملك إذا نزل الوفودُ ببابه ... غَرَفُوا غَوَارِبَ مُزْبِدٍ لايُنْزَفُ

فالصورة واحدة ...

ويقول فى القصيدة الأولى :

الحافظ الحىَّ الجميعَ إذا شَتَوْا ... والواهب القيناتِ شبه الربرب

والمائح الثانية اسحـــا بأ...ســا   تُزحى مطافلهـا كحـســة يترب

ويقول في الثانية :

... البيض كواعب كالدمى   حورًا بأيديها المزهـــر تعـــزفُ
يمشى النجائب بالرحال كأنها   بقر الصرائم ، والجيـــاد توذَفُ

ولكن ما هنالك أنه توسع فى صورة القينات فى قصيدته الثانية وأضاف إلى النجائب الجياد .

وهذا التقارب فى المعانى والصور يشير من جهة إلى تقارب المدى الزمنى بين القصيدتين بما لم يتح لبشر أن يبتكر فى معانيه ، أو يجدد فى صوره ، ومن جهة ثانية يشير إلى أن بشرا يدور حول معان مهدهـا له غيره ، وهذا دأب الشعراء فى بداياتهم .

وثمة ملحوظة أخرى فى القصيدتين هى أن المقدمة فى كل منهما ـــ على طولها بالنسبة للموضوع للأصلى ـــ ناقصة الخطوط . ففى القصيدة الأولى يستطرد بشر إلى وصف الحمار وأتانه ، فيبين كيف أرهق الحمار هذه الأتان الململع ، وكيف أنه راغب فى لقاحها وهى عازفة عنه تصك محجره بحوافرها وتعدو أمامه وخلفهما جحشهما الصغير ، ويتطاير الغبار من أثر حوافرهما كأنه دخان التنضب ، ويستمران على ذلك شأوا واسعا ، ثم تقف الصورة عند هذا الحد مبتورة ، وكان المفروض ـــ ان تنتهى هذه الرحلة إلى المياه ثم يظهر الصياد الذى يترصد ، ويرمى فتطيش سهامه .

وفى القصيدة الثانية يستطرد بشر إلى وصف النعامة التى يعرض لها ذكرها وعلى ماوصف به الذكر من صفات من أنه مصلم صعل ، هبل ، ذو مناسف أكال تنوم النقاع ... فإنه لم يشر إلى العلاقة التى جمعته بأنثاه ، وإلى سر معارضته لها ، فالمفروض ان الذكر يرعى أنثاه فى هذه الرحلة التى تنتهى إلى الأدحى حيث البيض الذى يحتاج إلى الحماية والدفء .

ونسأل — بعد ذلك — هل هذا النقص فى خطوط الصورتين راجع إلى ضياع أبيات من كلتا القصيدتين ؟ وهذا احتمال وارد ، أو أنه رجع إلى أسلوب بشر فى معالجة موضوعه ، ففى القصيدة البائية بتر النهاية واستعاض عن بلوغ الحمار وأتانه الماء ببلوغ ممدوحه . وفى القصيدة الثانية عرض للنعامة وذكرها ووقف عند هذا الحد لم يبن علاقة بينهما ، ولا هدفا لهما ، ربما لأنه كان متشككا من نجاح رحلته هو أصلا وهذا هو مايشير إليه البيت الذى قطع به هذه الصورة .

فإلى ابن أم اياس أرحل ناقتى   عمرو ستنجح حاجتى أو تُزْحِفُ

فهو راحل بناقته ليبلغ عمرا فتنجح رحلته ، أو تعيا ناقته فتهلك دون هذا الهدف ، وهو تعبير يوحى بالتشكك فى بلوغ الرحلة مقصدها . وإذا صح ذلك فان القصيدة الفائية تكون سابقة على البائية إذ هو حينما توجه لعمرو أول مره كان لايدرى أينجح أو تزحف به ناقته ، وهل يستقبله عمرو بما ينجح مسعاه أو أن مقتل حجر الكندى سيقف عائقا دون ذلك .

***

•• تأتى بعد ذلك قصيدة بشر الرائية .

أليلى على شَحْطِ المزار تَذَكُّرُ   ومن دون ليلى ذو بحارٍ ومَنْوَرُ

وهى القصيدة رقم ١٦ فى الديوان .

ويهجو بشر فى هذه القصيدة عتبة بن مالك بن جعفر بن كلاب وقومه وهم من بنى عامر ، ذلك لأنهم أجاروا سعداً أو زيداً أو مخزوم بن ضباء على خلاف فى اسمه[1] فقتل فى جوارهم فلم يدركوا بثأره ، ولم يدوا أهله .

والثابت لدينا أن هذا الحادث كان قبل يوم ذى نجب وهو يوم ثأر فيه بنو تميم لأنفسهم من بنى عامر الذين هزموهم فى شعب جبلة ، وكان يوم ذى نجب فى العام التالى لشعب جبلة* . والذى يؤكا هذا ان أوس بن غلفاء الهجيمى فى قصيدته الميمية .

---

(١) فى النقائض سعد بن ضباء ص ٣٢د ، وفى الصحاح واللسان زيد بن ضباء مدة (ضمعج) ، وفى اللآلى مخزوم بن ضباء . ص ٨٥٢ .

* شعب جبلة موقعة دارت سنة ٥٥١ م تقريبا بين عامر وعبس من ناحية وبين ذبيان وأسد وتميم من ناحية =

جلبنا الخيلَ من جنْبَىْ أريكٍ ... إلى أجَلَى إلى ضِلْعِ الرِّجَامِ[1]

(وهي قصيدة يتيه فيها على بنى عامر بانتصار قومه عليهم فى ذى نجب — فى هذه القصيدة يرمى أوس بنى عامر بالغدر بجيرانهم ، ذاكرا غدرهم بابن ضباء فيقول :

فإنا لم يكن ضباء فينا ... ولاثَقَفٌ ولاابنُ أبى عِصَامِ

« إذن » فقصيدة بشر تأتى فى هذا التاريخ أو قبله بقليل ، ويبدأ بشر قصيدته بالنسيب فيلوم نفسه على تذكر « ليلى » التى فصلت بينه وبينها جبال صعبة منيعة ، ثم يبين أن هذه المحبوبة المنعمة فعلت مافعلت به غير عابئه ، ويعود فيبين أنها هى الحياة ولكن كيف السبيل إلينا ، فأحرى به أنْ يدعها فهى تعد ولاتفى .

ينتقل بعد ذلك بشر إلى وصف ناقته ، مبينا انها منجاته من الهم حينما تعز النجاة فيصفها بأنها أدماء من خالص الإبل المهريه ثم يشبهها بالثور الوحشى ، ويستطرد فى صفة الثور الذى قضى ليلة رجبية بحرية ، تضربه بريحها الباردة ، وبمطرها وهو يحاول الاحتماء من هول هذه الليلة ، فيحفر بقرونه فى حقف أرطاة لعله يهيىء لنفسه مأمنا ، ويظل على هذه الحال حتى إذا كان الصباح كانت حبات الصقيع تنحدر من متنه كاللؤلؤ ، ولكنه — وهو على هذه الحال — سمع نبأة فارتاب وتوجس وصحت ريبته عندما باكره الصياد الأغبر الذى يطلب الطعام لأطفاله وحوله كلابه الضامرة الكالحه .

وينتقل بعد ذلك بشر فجأة إلى السخرية من عتبة الذى لم يستطع حماية جاره ، ولم يسيره إلى أهله حين أحس العجز ، ولم يعلن حتى أنه اسير لديه قبل أن يقتله القوم فى ريعان شبابه :

= أخرى ، وانتصرت فيها عامر وعبس انظر تفاصيل هذه الوقعة فى الأغانى ج ١١ ص ١٣٠ ومابعدها ، وفى النقائض ج ٢ ص ٦٥٤ ومابعدها وفى الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٥٨٣ ومابعدها ، وفى المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٣٧٢ .

(١) القصيدة فى المفضليات رقم ١١٨ ص ٣٨٧ . دار المعارف (المطبعة السادسة) .

فمن يك من جارِ ابن ضَبَّاء ساخرا   فقد كان فى جارِ ابن ضباء مَسْخَرُ
أجارَ فلم يمنع من الضَّيْمِ جَارَهُ   ولاهو إذ خاف الضُّيَاع مُسَيَّرُ
فلو كنت إذ خفت الضياع أسرته   بقادِمِ عصرٍ قبلما هو مُبْسَرُ[1]
لأصبح كالشقراء لم يعدُ شرُّها   سنابك رجليها وعِرضُكَ أوْفَرُ

ويمضى بشر فيبين أنه كان قادرا على حماية ابن ضباء ، وكانت هناك تسعة آلاف من الخيل على أهبة الاستعداد لنجدته ويتحسر بشر على ابن ضباء الذى قتل ببلدة ينكر أهلها المعروف ، إذ يستغيث ولا مغيث ، ويدعو عتبة لنجدته وغاب عنه أن عتبة لايتقدم لنجدة فهو ككبش الضأن المخصى المسمن :

وقد كان عندى لابن ضبَّاء مَقْعَدٌ   نِهاءٌ وروْضٌ بالصحارى مُنَوَّرُ
وتسعةُ آلاف بحُسْرٍ بلاده   تَسَفُّ الندى مَلْبَونَةً وتضمَّرُ
دعا دعوةً دودانَ وهو ببلدة   قليلٌ بها المعروف ، بل هو منكرُ
وفى صدره أظْمىٰ كأن كُعوبَه   نوى القَسْبِ عرَّاض المَهَزَّةِ أسمر
دعا مُعْتِبًا جار الثبور، وغره   أجَمٌّ خدور يتبع الضأن جَيْدَرُ
جزيزُ القفا شبعانُ يربِضُ حَجْرَةً   حديثُ الخِصَاءِ وارِمُ العَفْلِ مُعْبَرُ

ويختم بشر قصيدته مبينا أن هذا العار سيبقى وصمة بجباة بنى عامر ، وعليهم أن يغسلوها بالوفاء ، ولكن ليس هناك وفاء يغسلها فهى باقية أبد الدهر .

فأوفوا وفاءً يغسلُ الذمَّ عنكم   ولابِرَّ من ضَبَّاء والزيتُ يُعْصَرُ

وواضح فى هذه القصيدة حرارة النبض ، وصدق اللهجة ، ولاشك أنها تعلو سابقتيها من الناحية الفنية ، ومن الملحوظ فيها أيضا أن بشرا وظف المقدمة لخدمة مضمون القصيدة أو للإيحاء به ، فصور لنا المحبوبة لاتفى ، ولاتعبأ بمن أوقعت به الأذى ، ولامجال للوصال وكل محاولة له عبث بعد أن قامت دونها الجبال المنيعة . وهذا الموقف يتوازى مع موقف بشر وقومه من بنى عامر بعد قتل ابن ضباء .

---

(١) من بسر البلح وهو قطفه بسرا . والمقصود قتله فى ريعانه .

ثم إن بشرا فى تصويره للثور وقف عند ظهور الصياد وكلابه ، ولم يمض إلى النهاية فيبين لنا خاتمة الصراع بين الثور والصياد كما هو متوقع .

ولعل وقوف الصورة عند هذا الحد وهو بداية الصراع بين الثور والكلاب يتوازى أيضا مع واقع قومه وبنى عامر ، فالصراع بينهما قد بدأ بمقتل ابن ضباء . ولايستطيع أحد أن يتنبأ بنهايته .

***

• • ونضم إلى هذه المرحلة قصيدة بشر الحائية :

تغيرت المنـــازل من سليمـــى　　برامـــةَ فالكثـــيبِ إلى بُطَـــاحِ

وهى القصيدة رقم ١٠ فى الديوان .

ويبدؤها بشر بالوقوف على منازل سليمى ثم يلم بوصف محاسنها إلماما سريعا متنقلا إلى الفخر بقومه ثم الفخر بنفسه فيفخر بكثرة أسفاره مستطردا استطرادا محدودا إلى وصف الناقة ، ثم يفخر بمرؤته واحتياله للكسب الذى لاعيب فيه ، ثم يعود فيفخر بفروسيته مستطردا إلى وصف الفرس فى بيت واحد ، ثم يعود مرة أخرى إلى حديث الأسفار فيصف السفينة التى تحمله فى الخليج ، وحال من عليها ، والاحمال التى تحملها .

والقصيدة فيها كثير من روح الشباب والمغامرة فهى بهذه المرحلة من حياة بشر ألصق ، نراه فيها جوابا للآفاق ، طالبا للمال ، متصل الأسفار ، ووصفه للسفينة يدل على أنه كان ذا صلة بالتجارة ، فالسفينة التى يصفها كانت محملة بالقسط والرند والسلاح .

فقـــد أُوقِـــرْنَ من قُسْطٍ ورنـــــد　　ومـن مسك أَحَمَّ ومـــن ســـــلاح

وأكبر ظننا أن التجارة كانت شغل بشر فى هذه المرحلة من حياته . وثمة شىء آخر يرجح عندنا ان هذه القصيدة تنتمى إلى هذه المرحلة من حياة بشر ، وتقع قبل معركتى النسار والجفار وذاك أن بشرا حين فخر بقومه لم يشر إلى انتصارهم فى هاتين المعركتين ، ولو أن هذه القصيدة نظمت بعدهما لأشار إلى النسار

والجفار اللذين أصبحتا شغله الشاغل بعد ذلك ، ولكن فخره بقومه هنا فخر عام يتناول صفات القوة والجرأة والهيبة ، يقول موجها الحديث إلى صاحبته :

سلى إن كنتا جاهلةً بقومى ... إذا ما الخيل فُضْنَ إلى الجراح
نُحُلُّ مخوف كل حِمى وثغر ... وما بلدٌ نليه بمستباح
بكل طِمِرَّةٍ وأقبَّ طِرْفٍ ... شديدِ الأسْرِ ذى نَهَدٍ مراحِ
وما حى لحل بعقوتهم ... من الحرب العوان بمستراحِ*

وربما يقف قارىء عند بعض أبيات هذه القصيدة متشككا فيقول كيف لشاعر جاهلى أن يصور الخوف من الإثم وكأنه يؤمن بأنه محاسب على مااقترف بعد موته ؟ وذلك حينما ينظر إلى قول بشر فى وصف سفينته التى تتقاذفها الأمواج :

إذا ركبت بصاحبها خليجا ... تذكر ماعليه من جناح

ونقول إنه لامجال للتشكك فى هذا فالعربى فى جاهليته ، ومع عبادته للأوثان ، كان على بقية من دين إبراهيم فى معتقده فكان كما يقول الدكتور محمد حسين يعرف أن للكون خالقا يدبر أمره ، وأنه يرضى عن بعض أعمال الناس فيثيب عليها ، ويسخط على بعضها الآخر فيعاقب عليه[1] .

ومن اللافت للنظر أن بشرا ليس أول أسدى يصف السفينة فقبله وصفها عبيد بن الأبرص ، وهو أسدى أيضا ومن بنى ثعلبة الذين ينتمى إليهم بشر ، وهذا يدلنا من جهة على أن بنى أسد كان لهم نشاطهم التجارى البحرى ، ويشير من جهة أخرى إلى بعض أسرار اتصال بنى أسد بالمناذرة .

***

.. نضم إلى هذه المرحلة من شعر بشر أيضا شعره فى رثاء أخيه سمير وهو قصيدتان ومقطوعة

أما المقطوعة فهى من أربعة أبيات ، وتقع فى الديوان تحت رقم ٣٢ يقول فيها :

---

(١) ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق د . محمد محمد حسين المقدمة ص ٢٦ .

* الطمرة : الفرس العالية المشرفة ، الأقب : ضامر البطن دقيق الخصر . العقوة : الجانب .

ألا ياعيـــنُ ما فابكـــى سميرا إذا ظلَّ المَطِــىُّ لها صَرِيــفُ
ألا ياعين ما فابكـــــى سميرا إذا صَعِرَت من الغضب الأنوفُ
فكـــم خلى سمير من أمـــــور علىّ لو اننـــى جَلْــدٌ عَزُوفُ
وكنت إذا دعوت أجـاب صوتى كمـى لاألـفٌ ولا ضعيــفُ

وواضح أن هذه المقطوعة كانت الصدى المباشر السريع للفاجعة ، ففيها التكرار الذى يلجأ إليه المفجوع حينما تعقد الفجيعة لسانه ، أو لايدرى مايجابهها به وهو متمثل فى « ألا ياعين ما فابكى سميراً » ، ثم هناك البناء المتشابه وهو نوع من التكرار الصوتى أيضا فى عجزى البيتين الأول والثانى .

إذا ظلَّ المَطِــىُّ لها صريــفُ
إذا صَعِرَت من الغضبِ الأنوفُ

. . وتأتى بعد هذه المقطوعة القصيدة العينية

أمس سميــرٌ قد بان فانقطعــا يالهفَ نفسى لِبَيْنِـه جَزَعَــــا

وهى برقم ٢٦ فى الديوان وعدتها ثلاثة وعشرون بيتا .

وقد قلنا : إنها تأتى بعد المقطوعة مباشرة لأنها ماتزال فيها حرارة الانفعال ، وشدة الإحساس بالصدمة فالبيت الأول فيه اللهفة والجزع ويمضى الشاعر بعد ذلك نائحا وداعيا إلى النواح فى مأتم أخيه الذى بحث فيه أصوات المعولين .

قُومـا فَنُوحـا فى مأتـمٍ صَخِــلِ على سميْـرِ النَّــدَى ولا تَدعَـــا

وتمضى القصيدة بعد ذلك فتتوالى صفات سمير التى جاء بها الشاعر متتالية فى إيقاع أشبه بالندب :

الخلـف المتلـف المفيـد ، إذا قال فلا عائبٌ لما صنعـــــــا
القائــــل الفاعـــــل المرزَّا لم يُدْرَك بضعـف ولم يَمُت طَبَعَـا
والقائـدَ الخيـلَ فى المفـــازةِ والجَـــذْبِ يُساقُــون خِلْفَــةً سَرَعَـــا
اللابسَ الخيـلَ فى العجاجــة بالخيــلِ تُساقَــى سِمامُهـــا نُقَعـــا

كل ذلك دليل على أن بشرا لما يفق من وقع الصدمة ، ولما تهدأ نفسه ، ويسكن جزعه .

وقد خلط الرواة بهذه القصيدة أبياتا مشهورة لأوس بن حجر فى رثاء أخيه ، وقد ادخلت بين البيتين الخامس عشر والثانى والعشرين . وهى :

أودى فلاتنفع الإشاحةُ من أمرٍ لمن قد يحاول البدعا
ليبكك الضيف والمجالسُ والحى المُخوَّى وطامِعٌ طمعا
وذاتُ هِدْمٍ بادٍ نواشرُها تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعَا
إذْ شُبَّةَ الهَيْدَبُ العَيَام من الأقوام سَقْباً مُجَلَّلاً فرعا
والحى إذا حاذروا الصباح ، وخافوا ذا غواش ، وسوموا فَزَعا
والتحمت حلقتا البطانِ على القوم ، وجاشت نفوسُهم جَزَعَا

وواضح فى قصيدة بشر أن هذه الابيات فصلت بين البيت السابق عليها واللاحق وهذا دليل على أن الأبيات مقحمة ، ولو أخرجناها لاتصل المعنى بين البيتين فيكونان :

اللابس الخيل فى العجاجة بالخيل تساق سمامها نقعا
ومسلم قد دعا فانقذه حتى انجلى الكرب عنه فانقشعا

ثم إن إخراج هذه الأبيات من قصيدة بشر يجنبها الإيطاء فى القافية الذى يتكرر مرتين بوجودها فى « البدعا » و « جزعا » والشاعر الجاهلى كان حريصا على أن يتجنب الإيطاء فى قوافيه . من ناحية اخرى فهذه الأبيات المقحمة على قصيدة بشر ، وان اتفقت معها وزنا وقافية — مختلفة فى نسجها عن سائر القصيدة ففيها تجنب للتعبير المباشر الذى طبع قصيدة بشر .

فبشر يقول :

الحافظ الناسَ فى القحوط إذا لم يُرْسِلُوا تحت عائذٍ رُبَعَا

ويقول :

المخلفَ المتلفَ المفيدَ إذا قال ثلا سائب لما صنعا

فهو يصف فاعل الفعل والقائم به ، وكذلك هو فى سائر أبياته أما الأبيات المقحمة فهى تعبر عن تأثر من وقع عليهم الفعل الضيف ، والمجالس ، والحى الخوى ، ومطامع طمعا ، وذات هدم ، وهذا نهج مختلف فى المعالجة .

ثم ان الأبيات المقحمة فيها التعقل والرزانة :

أردى فلا تنفع الإشاحة من أمــر لمن قد يحاول البدعــا

وشتان هذا وتفجع بشر ولهفته :

للـــه در القبـــور ماحشيت أروع شبها للبـــأر إذ سطعـــا

وهى بعد ذلك فيها التأنى فى التصوير ولك أن تقارن صورة هذه المرأة ذات الهدم مع ماورد فى قصيدة بشر من صور ، إنها صورة تنقل إلينا الضعف والفقر بأسلوب غير مباشر فلم يقل لنا شاعر الأبيات المقحمة انها امرأة فقيرة ولكنه قال « ذات هدم » ولما يقل لنا إنها هزيلة وإنما قال « باد نواشرها » ونقل الينا العوز والحاجة من خلال الصورة « تعصمت بالماء تولبا جدعا » . وشتان هذا أيضا وقول بشر ومانيه من وصف مباشر « ترى الكاعب المعدة الحسناء فى دار أهلها سبعا » .

اظن اننا لسنا بعد بحاجة إلى دليل على أن هذه الابيات مقحمة على قصيدة بشر ، وعلى ذلك فقصيدة بشر الأصيلة سبعة عشر بيتا فقط .

• • تأتى بعد ذلك قصيدة بشر اللامية فى رثاء سمير :

هل لعـــــيش إذا مضى لزوال من رجوع ، أم هل فتى غير بال

وهى القصيدة رقم ٣٦ فى الديوان وعدتها ستة عشر بيتا .

ومن الراجح لدينا أن هذه القصيدة تأتى بعد سابقتيها فى الترتيب الزمنى ، ولعل مقدمتها تشى بذلك ، فهى تشعرنا أن الشاعر أفاق من هول الصدمة ، وأدرك أن مامضى ليس إليه من سبيل ، وأن كل حى مصيره الفناء ، ويمضى الشاعر متأملا لحقيقة الموت الخالدة فيرى أنه لو كان ينجى الإنسان مال ، أو

عشيرة لنجا سمير ، ولكن الموت يأتى على الجميع فلا يترك غنيا لغناه ، ولا قويا لقوته أو قوة قومه :

لاأرى النائبات عَرَّيــنَ حيًّــا لعَديــدٍ ، ولا لكثرةِ مــال

ومثل هذه المعانى الهادئة المتأملة لاتتأتى للإنسان إلا إذا هدأت مشاعره ، وثاب إلى نفسه وعقله ، وهذا وحده كاف لوضع هذه القصيدة فى الترتيب الزمنى بعد سابقتيها . ولكن شيئا آخر نلحظه فيها يؤكد ماذهبنا إليه من ترتيبها هو أن صورها تتميز بالاتساع نوعا ما فالصورة تمتد لتشمل غير بيت ومثال لذلك قول بشر :

ياسمير الفَعــال من لحروبٍ مسعـرات يجلـن بالأبطــال
ذات جرْس ، يسمو الكماةُ إلى الأبطال فى نَقْعِها سُمُوَّ الجمالِ
يتساقــون سَمَّهــا فى دروع سابغاتٍ من الحديـد ثقـالِ
كنت تصلى نيرانهن إذا ضاقت لرْيعانِهـا صدورُ الرجــال

فصورة الحرب والصراع بين أبطالها ، وإقدام سمير فى ساحتها تمتد على مساحة الأبيات الأربعة .

ومثال آخر أيضا لاتساع الصورة نجده فى قول بشر :

وصريــع مُستَبِلــم بين بيضٍ يتعاورنـه ، وسمُــرِ العوالــى
قد تلافيت شِلْــوهَ فـوق نهد أعوجــىٌّ ذى ميْعَـةٍ ونقــال
فصرفت السمر النواهل عنــه بغُمُوسٍ من مرهفات النِّصالِ

فالصورة امتدت فى مساحة الأبيات الثلاثة .

ومثال ثالث :

ياسمير من للنساء إذا مــا قَحَط القطرُ ، أمّهَاتِ العيال
كنت غيثــاً لهن فى السنــة الشهبــاء ذاتِ الغُبــارِ والإمْحَــال

فالصورة ممتدة فى البيتين .

وهذه الصور الممتدة تحتاج من الشاعر إلى روية وهدوء وهما لايتاحان فى اذهلته

المقدمة ، ولكي نتحقق من ذلك فلنقارن الصور في هذه القصيدة بالصور في القصيدة العينية . فمعظم صور القصيدة العينية تتوالى قصارا دون عاطف أشبه بصرخة طعين فاجأته الطعنة .

ويصل بنا السؤال : لم وضعنا هذه القصائد من شعر بشر في هذه المرحلة ؟ ولماذا لم نتأخر بها ؟ ألأننا تحققنا من مقتل سمير كيف كان ومتى أم ان هناك أمورا اخرى جعلتنا نؤثر وضع هذه القصائد في مكانها من السياق .

والحقيقة أن جملة مانعلمه عن مقتل سمير أنه كان على يد شراحيل بن الأصهب الجعفي وهو من بني جعفي بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد ، ويقال عن شراحيل هذا : إنه كان كثير الغارات ، ويقال أيضا : إنه قتل بأيدى بنى سعد بن كعب من بنى عامر بن صعصعة ، ويقال : أن ابنه اياس بن شراحيل هاجر على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعقد له على مذحج وهمدان[1] .

هذا كل مانعلمه عن مقتل سمير وعن قاتله ولاندرى متى تم هذا ولاندرى علاقة سمير بنى سعد العشيرة ، وهل كان هذا حادثا فرديا أو حادثا قبليا .

ولانعلم أيضا متى قتل شراحيل وكيف كان مقتله ، ولو علمنا لاستطعنا ان نحدد متى كان قتل سمير على وجه التقريب .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن هناك مايرجح لدينا وضع هذه القصائد في مكانها الذى اخترناه لها من السياق . ذلك اننا علمنا من خلال شعر بشر ان اخاه سميرا كان فارسا ، بل كان قائدا :

والقائد الخيل في المفازة والجدب يساقون بِحَلْقَةٍ سرعا

وأنه كان سعورا للوغى

أصبح الدهر قد مضى بسُمَير بسَعُورِ الوغى وبالمفضال

فهل مثل هذا الفارس القائد مسعر الحرب لم يكن له دور في اعظم معركتين

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٩

فى تاريخ بنى أسد ، أغلب الظن أنه لو ادرك الحربين لكان له دور ، وبالتالى لعبر بشر فى شعره عن هذا الدور وأفاض واستغنى به عما عداه من صفات يوصف بها كل ميت ،

الراجح لدينا ــ إذن ــ أن سميرا قتل قبل هاتين المعركتين ومن ثم لانتأخر بهذه القصائد ولانخرج بها عن هذه المرحلة من حياة بشر .

***

. . نضم إلى هذه المرحلة القصيدة .

هل للحليمِ على مافات من أسَفِ ... أم هل لعَيْشٍ مضى فى الدهر من خَلَفِ

وهى القصيدة رقم (٣٢) فى الديوان ، وعدتها أربعة عشر بيتا . ولعل هذه القصيدة أنسب ختام لهذه المرحلة من حياة بشر ، فبداية القصيدة فيها حلم ووقار ، وبصر بأحوال الدهر وتقلبه ، ونمضى مع الشاعر فنراه يشير إلى أنه قد تجاوز مرحلة الشباب ، وودع الصبا :

هذا وإن كنت قد عَرَّيْتُ راحلتى .. من الصبا ، وعَدَلْتُ اللهو الصبا

وقد يقال إذا كان بشر يصرح فى هذه القصيدة إنه ودع الصبا وترك جهل الفتوة والشباب فلماذا لم نتأخر بها إلى مرحلة لاحقة من حياته ؟

ونقول : إن الذى حدا بنا إلى وضع هذه القصيدة فى مكانها الذى اخترناه من السياق إحساسنا بأن بشرا يقف فيها فى مرحلة فاصلة من حياته ، فهو وإن كان يبدو فى ثوب الحليم الوقور ، ويلوم نفسه على التعلق بما لاسبيل اليه :

وماتَذَكُّرُ من سلمى وقد شحطت ... فى رسمِ دار ونُـؤْيٍ غير معتـرف ؟

فهو مازال مَشْدُوداً إلى الماضى وإلى ذكرياته :

وقـد غَشِيتَ لها أطـلال مَنْزِلـةٍ ... قصرا برامَـةَ والـوادى ولم تَقِـفِ
كأن سلمى غداة البين إذْ رحلت ... لم تشت جاذِلَـةٌ فيها ولم تصـف

ومازالت هذه الذكريات تؤرقه ، وتجلب عليه الهم الأمر الذى يدفعه إلى ركوب لذاته شبابه من هذا الهم .

فسل همك عن سلمى بناجية   خطارة تغتلي في السبسب القذف

ومن ... كان يسرح بأن تجاوز الشباب ونحوه فإنه يبدو ــ فى الوقت ذاته ــ متشبثا بهذه الذكريات ، يحياها بكل تفصيلاتها ، فيذكر هذا المجلس الذى كان يجمعه بالأصدقاء ، مع ندامى الشراب ويصف ماكان فيه من متع الشراب .

ومثل هذه المشاعر المتصارعه يحس بها الإنسان إذا شارف سنى الكهوله ، فهو لايتحدث عن الصبا والشباب إلا حينما يحس أن متعهما تتباعد عنه بما تفرضه عليه السن التى بلغها ، والأعباء الجديدة التى تفرض عليه بحكم هذا السن .

في أعقاب النسار

.. ربما نستطيع أن نقول إن أولى قصائد بشر بعد النسار هي قصيدته :

عفت من سُلَيْمى رامَــةٌ فكثيبُهـــا   وشطت بها عنك النّوى وشُعوبُهـــا

وهي القصيدة رقم (٣) في الديوان ، وعدتها اثنان وعشرون بيتا .

وتبدأ القصيدة بمقدمة تستغرق سبعة أبيات يذكر فيها الشاعر رحيل سليمى التي غيرها مايغير الناس ورحلت معالية في اتجاه الغرب تاركة الشاعر في حزنه ودموعه .. ربما انصرفت عنه لما رأته عليه من أعراض الكبر إذ صلعت رأسه وأصبحت ملساء كأفحوص القطاة ولكن الشاعر يستدرك وكأنه ثاب إلى نفسه فيوضح أن هذا الصلع لم يكن نتيجة أسر وقع به ، أو إنعام من منعم جز ناصيته ليطلق سراحه .

رأتني كأفحوص القطاةِ ذؤابتـــي   ومامسَّهـــا من منْعـــمٍ يستثـــيبها

وبهذا البيت يعبر الشاعر إلى موضوع قصيدته ، ويكون الشطر الثاني بمثابة المفصل الذي حرر حركة الشاعر في عبوره .

ويأخذ الشاعر بعد ذلك في الحديث عن النسار فيوضح أن اللجوء إلى القوة لم يأت إلا بعد ان استنفذت كل محاولات التوفيق وبعد أن دعيت هوازن إلى الرشد مرات فلم تستجب ، حينئذ كانت الحرب ، وكان الهجوم المباغت الذي أذهل بني عامر ، وشتت صفوفهم ويعرض الشاعر لقطات سريعة مما حل ببني عامر وبنسائهم ثم يختم القصيدة بالبيت .

دعوا منبت السيفين إنهما لنا   إذا مضر الحمراء شُبَّت حُروبُها

وقد سبق أن اشرنا إلى أن منبت السيفين هو حمى ضرية ، ومن ثم فان هذا البيت يعد تحديدا لبواعث الحرب وأسبابها .

والقارىء هذه القصيدة يحس أن بشرا متحسب فى قوله ، حريص على بيان أن الحرب كانت هى الحل الأخير بعد أن فشلت كل محاولات السلام وفضلا عن ذلك فهو لايخص بنى اسد بدور خاص فى الحرب وإنما يتحدث بضمير الجمع « نا » « لحقنامنهم بكتيبة» « قطعناهم » . ولايعود الضمير هنا على بنى أسد وحدهم وإنما يعود على كل الأحاليف الذين حققوا النصر ومثل هذا الحديث المتحسب هو حديث من لم يدرك أبعاد النصر الذى حققه بعد، ولم تنجل له آثاره ولم يعرف موقع قومه ونصيبهم بين الفرقاء المنتصرين ، إنه حديث الذى فرغ لتوه من معركة منتصرة لم يدر من أمرها إلا أنه أوقع ضربة شديدة بمن يحاربه ، ولم يدر أيضا هل يرضخ هذا الطرف المنهزم للهزيمة او أن المعركة لم تزل لها ذيول ، وربما كان هذا سر ذكر بشر لمساعي الصلح وفشلها وكأنه يقدم المبرر بين يدى مستقبل لايدرى ماذا يحمل ، وربما كان هذا أيضا سر تحسبه فى عدم ذكر قومه خشية أن يغضب حديثه الفرقاء ، أو يفرق كلمتهم والسيوف لما تدخل أعمادها . بل إن قول بشر : « دعوا منبت السيفين انهما لنا » ربما أوحى أن هناك من جيش العدو من لايزال متشبثا بهذه المنطقة يحارب دونها .

من أجل هذا نرى أن هذه القصيدة هي أولى قصائد بشر فى تصوير وقعة النسار ، ربما نظمها فى أعقابها مباشرة ، وربما نظمها ايضا قبيل نهايتها فالحديث فيها على أية حال حديث من لايعرف حجم النصر الذى حققه ، ولايعرف أبعاده .

***

•• تأتى بعد ذلك القصيدة الرائية :

ألا بان الخليـــــــط ولم يزاروا وقلبك فى الظعائن مستعـــار

وهى القصيدة رقم (١٥) فى الديوان ، وعدتها ثمانية وخمسون بيتا وهى أطول قصائد بشر على الإطلاق .

ويبدأ بشر بوصف ركب الظعائن وفيهن تلك العقيلية التى سلبت قلبه متتبعا هذا الركب حتى يصل إلى أروم وشابة وتعار وهى هضبتان وجبل على الطريق

الموصل إلى مكة من المدينة[1] ولاينسى بشر أن يشير إلى جمال هؤلاء الظعائن فكأنهن وقد نظرن من خلال الهوادج ظباء قلصت عنها مكانسها ، وكأن أسنانهن الأقحوان غب المطر ، ثم يمضى بشر فيتحدث عن صاحبته اللعوب المنعمة ذات الكشح الضامر والساقين الممتلئتين ، الثقال التى تنبهر أنفاسها حين تقوم ، ويصف لنا أرقه وسهده بعد رحيل المحبوبة متذكرا ليالى اللهو وأيامه القصار التى قطعتها الحرب ، وقد استغرقت هذه المقدمة اثنين وعشرين بيتا .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف تفصيلي للحرب ، وإلى بيان حركة كل قبيله وكل بطن من الأنصار والأعداء على السواء جاعلا بنى أسد مركز الدائرة وعماد المحاربين ، حتى إذا كان البيت التاسع والثلاثون نسب النصر كله إليهم ، والمجد كله اليهم ، فهم أفضل معد ، وهم الأولى والأكرم وهم الذين رفعوا مجد كنانة ، وكفوا من تغيب ، واستباحوا سنام الارض :

الى لبنـــى خُزَيْمـــــةَ أنّ فيهم	قديم المجدِ ، والحسبُ النضارُ
هم فضلـــوا بخـــــلاّت كِرَامٍ	معــــدا حيثما حلـــــوا وساروا
فمنهن الوفــــاء إذا عقدنــــــا	وأيسار إذا حُبُّ القُتَــــــارُ
كفينـا من تغـيب واستبحنـــا	سنـامَ الأرض إذ قَحِط القِطَارُ

وسنام الأرض طبعا هى ضرية ، وبنو أسد هم وحدهم الذين استباحوها وكفوا من تغيب ! إنه نصر كنانى اذن ! وفى غمرة هذا الزهو الاسدى الكنانى يلتفت بشر تياها إلى الخيل التى حققت هذا النصر فيخصها بمقطع يصف فيها منها فرسا عنودا وحصانا ،مضمرا مختتما بذلك قصيدته .

وأول مانلمحه فى هذه القصيدة هو تلك النشوة الغامرة التى يعيشها بشر ، وهى نشوة تأخذنا من بداية القصيدة ، وبون بعيد بين مقدمة هذه القصيدة ومقدمة سابقتها البائية .. ففى مقدمة القصيدة البائية قتامة ...

وغيرهـــا ماغير النّـــاس قبلهـــا	فبانت وحاجاتُ النفوس تُصيبُهـا

(١) صحيح الاخبار عما فى بلاد العرب من الآثار ـــ محمد بن عبد الله بن بلهيد ـــ ج ٢ ص ٢٣٣ ٣ ص ١٤٧ .

وفيها دموع غزار [illegible] بتحدر [illegible] سانية :

أم ما لها [illegible] نِطَاسيةٌ   لعين يوافى [illegible] حبيبها
تحدّر [illegible] عن جُرَشيّة   على جِرْبَة [illegible] الدبار غروبها[1]

أما هذه المقدمة فتخلو من ذكر الدموع بل يسيطر عليها الفرح متمثلا في الظباء التي قلص عنها المغار ، وفي الشفاه المفلجة عن الأقحوان ، وفي تلك الآنسة اللعوب التي يخصها الشاعر بصفات النعمة والجمال ، وفي أيام الشاعر ولياليه القصار التي عصى فيها عاذليه ، وأصاب هوا ، وآذى بزيارته من يغار .

ودعك من العناء والأرق والسهد والقلب المستعار الذى ليس له حوار على حد ماوصف الشاعر نفسه في هذه المقدمة ، فما تلك الا أطر للصورة كانت تحكم الشاعر الجاهلي في مثل هذا الموقف ، أما الصورة نفسها فتمتلىء بالحيوية والمرح ، وحتى السهد والأرق اللذين يدخيهما بشر يتبه فعلهما بدبيب الخمر :

فبت مسهدا أرقـا كأنى   تمشت فى مَفَاصِلـىَ العُقَـارُ

ولايخفى ما لدبيب الخمر من لذة ونشوة .

ولاتعليل لهذه النشوة إلا إحساس بشر بحجم النصر الذى حققته قبيلته وحلفاؤها ، وإلا إدراكه لأبعاده ، وتوقعه للمغنم الذى يتناسب مع ما لقبيلته من دور فى المعركة . وطبيعى أن المنطلق هنا مخالف لمنطلق القصيدة البائية ، وطبيعى ان هذه مرحلة لاحقة على المرحلة التى صورتها القصيدة البائية من هنا كان حرص بشر فى هذه القصيدة على بيان دور كل من اشترك فى الحرب مشيدا حينا ، ولائما حينا ، وبنو أسد بين هذا وذاك هم القلب والمركز .

فحاطونا القصا ولقد رأونا   قريباً حيث يُستَمَعُ السِّرار[2]
وحل الحى حى بنى سبيع   قراضبة ، ونحن لهم إطار

---

(١) الجرشية : ناقة منسوبة إلى جرش وهى ارض تنسب اليها النياق وبخاصة تلك التى تستخدم فى السانية . الجربة : المزرعة . الدبار : جمع دبرة وهى المشارة من المزرعة . غروبها : جمع غرب وهى الدلو العظيمة .

(٢) حاطونا القصا : احاطوا بنا من بعد .

الأمر اذن بيان الأدوار ليكون المغنم على قدر المنشط للذلك لانعجب ان نرى بشرا يشير إلى من قصر من الاحاليف .

وأما اشجعُ الخُنثى فولّوا — تُيوسا بالشظَىّ لهم يُعارْ
ولم نهلك لمرة إذ تَولّوا — فساُروا سير هاربةٍ فغاروا

ولانعجب إذن ان نرى بشرا فى النهاية ينسب النصر كله لبنى أسد ، ويجعله نصرا أسديا كنانيا — كما سبق ان ألمحنا — طالما أن الأمر متعلق بتقسيم الغنائم وبيان الأدوار ، لكل هذا نضع هذه القصيدة فى ترتيبها بعد القصيدة البائية .

***

.. وثالثة قصائد هذه المرحلة — فى ظننا — هى القصيدة العينية :

ألا ظعن الخليط غداة ريعوا — بشبوة فالمطى بنا خضوع

وهى القصيدة رقم (٣٧) فى الديوان ، وعدة أبياتها تسعة وعشرون بيتا .

وليس الفخر موضوع القصيدة الأساسى ، ولكنها قصيدة فى المدح ، نفهم ذلك من آخر بيتين فيها :

إليك الوجه إذ كانت ملوكى — ثِمادَ الحَزْنِ اخطأها الربيعُ
وضيفى ماتزال لهم كهاةٌ — من السَّنِمَات بِكْرٌ أو ضَرُوعُ

ويبدأ بشر قصيدته بمقدمة طويلة تستغرق ثمانية عشر بيتا يصف فيها الديار بعد رحيل أهلها وكيف أصبحت خالية مقفرة ترعى فيها الغزلان والأبقار ، وكيف بدت أثافيها كحمامات وقوع فى ساحات المنازل الساكنه ، وبين هذا وذاك يلتفت إلى حدوج الظغائن فيصف الوانها الزاهية ويتابع الركب بخياله فى رحلته الطويلة الشاقة ، ثم يخرج من همومة تلك بناقته القوية الشديدة التى تشبه الحمار الوحشى .

ويفاجئنا بشر بعد ذلك بقوله

فسائل عامرا وبنى نمير — إذا مالبيضُ ضيعها المضيع
إذا مالحرب ابدت ناجذيها — غداةَ الروع والتقت الجموع

سائل الحفيدة كيف تحمي   إذا ماشفّها الأمرُ الفظيع
[illegible] ونمنع من بنيها   بكل مهند ساف صنيع

[illegible] يتجه إلى الممدوح إذ يدعوه بشر أن يسأل بني عامر وبني نمير منهم [illegible] عن بأسهم وحمايتهم لنسائهم ، وذودهم عمن يلوذ بهم حين تدنو الحرب ناجذيها وتلتقى الجموع المتحاربة . والتعريض فى هذا لايخفى ببنى عامر وبنى نمير .

ويمضى بشر بعد ذلك فيصور هدايته فى ظلام الصحراء الحالك لهؤلاء الرجال الأشداء الشعث الذين تجمد الدسم على لحاهم فأصبح لونها كلون شجر الراء حين يلبده الصقيع :

وشعث قد هديت بمُدْلَهِـــمٍّ   من المَوْمَاةِ يكرهــه الجَميـــعُ
ترى وَدَكَ السَّدِيف على لِحاهُـم   كَلَـوْنِ الرَّاء لَبَّـده الصقيـــعُ

وطبيعى أن نفهم أن هؤلاء الرجال ذوى الهيئة المفزعة هم قوم بشر الذين تمرسوا بالشدائد والمشاق ، وغير خاف فى الصورة مايضفيه بشر على نفسه من سمات الزعامة . وبعد ذلك يعود بشر إلى بنى عامر فيذكر ماحل بهم فى وقعة النسار وكيف تفرقوا شلالا ، وتخلى عنهم التبيع أمام هذا الجيش الضخم الكثيف الذى يصوره بشر بقوله :

سمونــا بالنســـار بذى دروء   على أركانــه شَذَبٌ منيـــع
إذ ماقـــلت اقصَرَ أو تناهـــى   به الأضواء لَجَّ به الطلـــوع

يخلص بعد ذلك بشر إلى المدح فلا يمدح وإنما يطلب من ممدوحه مايستعين به على إطعام ضيفه الذى لاينى يطعمهم الكهاة بعد الكهاة .

ولعل أول مانقف عنده فى هذه القصيدة بيتا المدح إذ هما طلب للرفد ولا مدح . ألعل هناك بقية للقول ؟ ربما ولكن الأمر فى نظرنا لايتغير ، فمن ياترى هذا الممدوح الذى يتدلل عليه بشر كل هذا الدلال ويطالبه بحمل أعباء ضيفه .

ولو كان الطلب عن خصاصة لما استوقفنا فقد تعودنا عليه من شعراء المدح ، ولكنه طلب من يريد من الممدوح أن يقوم عنه بعبء الزعامة .

ونسأل بعد ذلك ايضا : من هذا الممدوح الذى تطربه أخبار وقعة النسار ؟ ويطربه ماحل ببنى عامر من بلاء ؟ ومن هذا الممدوح الذي يتجرأ مادحه أمامه على الفخر بقومه وبلائهم وشدتهم وبأسهم فى الحروب وذودهم عمن يليهم ؟

وربما بدأ الأمر ملغزا محيرا ، ولكن ربما نقف على أعتاب الحل وينكشف لنا المعمى لو عرفنا من ذلك الذى كانت له مصلحة فى نصر الأحاليف فى النسار .

أنكون جاوزنا الحقيقة ان أشرنا إلى أمير الحيرة ؟ انه كما ألمحنا سابقا كان صاحب المصلحة الحقيقية فى هذا النصر ، وهو أولى حقا بأن يقوم باعباء بشر وغيره من المحاربين الذين حققوا النصر .

وقد يقال : ولم لايكون المدح هنا لواحد من قوم بشر ؟ أو لواحد من ذبيان ؟ .

ونقول إن بشرا لم يكن فى حاجة إلى أن يمدح واحدا من قومه ليقوم عنه بعبء ضيفانه ، فالقيام بعبء الضيفان واجب القبيلة كلها فى نظر العربى يقوم به الأقوى عن الاضعف ، وتأدية الواجب لاتستأهل مدحا .

ولم يكن بشر ليتجه إلى واحد من ذبيان وهو ربما يحتاج إلى مايحتاج إليه بشر للقيام بأعباء الوفود المهنئة . النعمان — فى ظننا — ممدوح بشر ولاسواه .

وطبيعى أن يكون ذلك فى اعقاب النصر ، ووفود المهنئين تترى ، وسنمات الإبل تقدم لهم . ومثل هذا عبء يتحمله أعيان القبيلة ووجهاؤها ولعلنا الآن قد فهمنا سر ماأضفاه بشر على نفسه من سمات الزعامة :

وشعث قد هديت بمدلهم من الموماة يكرهه الجميع

وإذ تكشف لنا ذلك ألا يكون اختيارنا لمكان هذه القصيدة من السياق مناسبا ، فلم يزل النصر جديدا ، ومازالت الذبائح تنحر للمهنئين .

٠٠ أما القصيدة الرابعة فى هذه المرحلة فهى — فى ظننا — القصيدة العينية :

عفا رسمٌ برامةَ فالتلاعِ ... فكثبانُ الحَفيرِ إلى لَقَاعِ

وهى القصيدة رقم (٢٣) فى الديوان ، وعدتها واحد وعشرون بيتا . ويبدؤها بشر بمقدمة تستغرق عشرة أبيات يقف فيها على ديار سلمى متسائلا متذكرا منتهيا إلى أن الحياة فراق بعد لقاء وهجر بعد وصل ، أو على حد قوله « فكل قوى قرين لانقطاع » . وإذ ينتهى إلى ذلك يثوب إلى نفسه مخرجا إياها من دائرة الهموم باستطلاع ناقته ، ويقف بشر عند الناقة وقفة قصيرة فيصفها فى بيت وبعض بيت منتقلا بعد ذلك فجأة إلى موضوع قصيدته :

فسائل عامرا وبنى تميم ... إذا العقبان طارت للوقاع

ويستمر فى الحديث عن فرسان قبيلته وعن بأسهم فى وقعة النسار فى تسعة أبيات ، ثم يختم قصيدته ببيتين فيهما مفاجأة للقارىء إذ يقول :

وكل غَضَارَةٍ لك من حبيب ... لها بك أو لهوتَ به متاعُ
قليلا ، والشبابُ سحابُ ريح ... إذا ولى فليس له ارتجاع

والحديث عن النسار فى هذه القصيدة لقطات سريعة منتزعة من المعركة يعبر عنها دون أن تنتظم فى سياق مرتب : فلقطة تمثل هجوم الأحاليف وفرار أعدائهم :

غدون عليهم بالطعن شَزْراً ... إلى أن مابدت ذاتُ الشعاع
فلما أيقنوا بالموت ولوا ... شلالا مُرمِلينَ بكل قَاعِ

وثانية تصور نساء العدو بين مفزعة ومستغيثه :

وكم من مُرْضِعٍ قد غادروها ... لهيفَ القلب كاشفةَ القناع
ومن أخرى مثابرةٍ تنادى ... ألا خليتمونا للضياع

ومثل هذه اللقطات تعبر عن مشاهد ظلت متوهجة فى ذاكرة الشاعر بعد انقضاء الحرب .

إذن هو حديث الذاكرة ، واولى بنا ان نؤخره عن حديث المشاهدة والعيان .

وثَمة اخرى ترجح لدينا ان أنسب مكان لهذه القصيدة هو مااخترناه لها من السياق ، وتتمثل فى النهايةِ الحزينة المفعمة بالحسرة .

وكل غَضارةٍ لك من حبـــيب ... لها بك أو لهوت به متـــــاع
قليـلا ، والشبـاب سحـابُ ريح ... إذا ولى فلـــــيس له ارتجاع

ترى أيتحدث بشر عن بنات حواء أم يتحدث عن حبيب معنوى ؟ وهَل يقصد بالشباب شبابه هو او شباب الاحاليف ؟ وهل نستطيع أن نستشف من هذه النهاية بداية التصدع فى القوى التى تآزرت فى النسار ؟ والافما الذى قذف بهذه النهاية اليائسة بقعة داكنة على ثياب النصر ؟ .

قد يقال إن هذين البيتين ليس مكانهما هنا ، وإنما مكانهما بعد البيت التاسع فى مقدمة القصيدة وهو :

فإن تك قد نأتك اليومَ سلمى ... فكـــلٌ قوى قريـــن لانقطـــاع

وإن ماحدث خلط من الرواة .

وهذا احتمال وارد ، وتخريج وجيه ، ولكن هب هذين البيتين نقلا ليلحقا بالبيت التاسع ، افلا نخرج بالدلالة نفسها ؟ وبخاصة وقد ائتلف معهما الشطر « فكل قوى قرين لانقطاع » .

ترى من هذا القرين ؟ أيكون طيئا ربما لأننا نعرف مما سبق أن « طيئا » انشقت على الأحاليف أو انشقوا عليها ، فلم تشهد معهم وقعة الجفار .

وإذا صح منا الظن وصدق الحس تكون هذه القصيدة تاريخا لانشقاق طيىء ، وتكون بذلك أنسب النهايات لهذه المرحلة .

***

.. ومما يلحق بحديث الذكريات قول بشر :

سائـل هوازن عنـا كيـــفَ شدَّتُنــا   بالحِنـو يوم اتقونـا بابـــن مَثْقُـــوبِ

وهى مقطعة من خمسة ابيات ورقمها فى الديوان (٨) .

استفرغ بشر كل ماأثارته النسار من شحنة شعرية ، ولم تبق إلا بعض تلك التفصيلات الفرعية التى تثيرها مجالس السمر ، وهذه المقطعة ـــ فى نظرنا ـــ صدى لتلك المجالس ، وحديثها ، بحديث المجالس أشبه (يوم اتقونا بابن مثقوب) ، (يوم اتقتنا قشير بالحريش ..) ، (أما عقيل فنجاها) .

والمقطعة تصور ماحدث لابن مثقوب الذى اتخذت منه هوازن حاميا ودرعا ، وكيف استقر رمح صلب فى صدره ، كما تصور بنى عقيل الذين نجتهم خيولهم الضامرة السريعة ، أما قشير فقد احتمت بالحريش وهوى كلا الفريقين .. تفصيلات فرعيه يذكر بها بشر حتى لاتضيع من ذاكرة القبيلة ورجالها .. أما الخطوط العامة فلقد وعاها الرجال وحفظوها وتحدث بشر فيها فأفاض .

ولو عدنا إلى السياق الذى ارتأيناه لشعر بشر لوجدنا ان شعره بدأ مركزا على الخطوط العامة وانتهى إلى لقطات متفرقة ، وتفصيلات فرعية متناثرة وهذا تطور طبيعى كما نعتقد .

قبل الجفار

سبق أن اوضحنا موقف الحلف الحيرى أسد وذبيان وضبة من تميم ، وسبق ايضا أن أشرنا إلى موقف تميم من هذا الحلف الحيرى ، وقلنا : إنها تخاذلت فى النسار عن عمد لتنظر ماذا ستنتهى إليه المساومات الدائرة ، ولكن يبدو أنها ــ وبخاصة الجناح المتشدد فيها بنو سعد ــ كانت تغالى فى أطماعها إلى الحد الذى أوصل الى طريق مسدود ، فلم يكن إذ ذاك بد من سل السيوف .

ولبشر قصيدتان قبل الجفار فى التحذير من الحرب ، وقد وجه الحديث فيهما إلى بنى سعد .

• • وأولى هاتين القصيدتين ــ كما يبدو لنا ــ قصيدته البائية :

تعنَّاك نصب من أُمَيْمةَ مُنْصِبُ   كذى الشوق لمايَسْلُه وسَيَذْهَبُ

وهى القصيدة رقم (٢) فى الديوان ؛ وعدتها ثمانية وعشرون بيتا .

وتبدأ القصيدة بمقدمة فى النسيب تستغرق خمسة أبيات ، يصور فيها مايكابده من تجنب « أميمة » ، ويلم بشىء من أوصافها فيشبهها بالدرة البيضاء يزيد من بياضها شعرها الفاحم الكث الذى يشبه الناضج من ثمر الأراك ، ويبين أنها تتفوق فى جمالها على تلك الظبية الخذول التى انفردت مع ولدها ترعى الأراك والحلب .

وفى البيت السادس يثوب بشر إلى نفسه بعد أن بدا له أى أمريه أصوب :

نزعتُ بأسباب الأمور وقد بدا   لذى اللُّبِّ منها أىُّ أمريه أصْوَبُ

ثم يتوجه إلى بنى سعد بالحديث ، وهو يعلم سلفا انهم لن يستجيبوا له ، ولكنه يحاول أن يبرىء ذمته ، ومن يدرى لعلهم يفيئون .

ويبدأ بشر محذرا من الحرب مقسما أن الحرب التي يراها ، والتي طال الوعيد بها والتهديد ، هذه إذا نشبت فلن تقصر غيرهم ، وستفر نساؤهم بليل على إبل مجردة سيرا موثوقا هربا من عار السبي ، وماذا ستفعل تميم حين تجد أنه ليس بينها وبين [illegible] إلا السيف ؟ ويمضي بشر فيبين ان قومه ومن معهم لم يتركوا سبيلا لإقرار السلام إلا سلكوها ، وآية ذلك هذا الرسول الذى كان مفوضا لفعل أى شيء للمصالحة ولكنه لم يلق إلا الإعراض والضغينة :

وقد زاركم منّا من القـــوم حاشدٌ ونمّ له بادي الضغينــة مُذنبِ[1]

ويأخذ بشر بعد ذلك فى وصف الجيش الضخم الكثيف الذى اعده الأحاليف مشيرا إلى الأنصار المتأهبين ، الذين ينتظرون الاشارة ، ويعيد بشر أمام أعين تميم مشاهد من النسار مذكرا بها ان كانوا قد نسوها ، فهل نسوا فرار حاجب بن زرارة ؟ وماذا لو صادفه المحاربون ؟ .

فلو صادفوا الرأسَ الملفَّقَ حاجباً للاقى كما لاقى الحِمــارُ وجُنــدُبُ

وهل نسوا تلك الأسلاب التي اخذت ؟

سليب به وقـــع السلاح وراِئك اخو ضَرَّةٍ يعلو المكـاره متـــعب

وهل نسوا ماحدث لسيحان بن أرطاه ؟

اباتوا بسيحانَ بن أرطاةٍليلةً شديداً أذاها لم تَكَــدْ تتجـــوَّبُ

وبين هذا وذاك يذكر بشر تميما بالقرابة التى لايرعون لها حقا ، ولايذكرونها إلا إذا غشيهم الخطر .

إذا ماعُلوا قالوا :أبونا وأمنـــا ولـــيس لهم عالين أمٌ ولا أب

ويهيب بهم ان ينقضوا هذا الحلف المريب بينهم وبين بنى عامر .

وحالفتم قومـــاً هراقـــوا دماءكـــم لو شكانَ هذا والدمــاء تُصبُّـــب

والقصيدة على مافيها من ترهيب بالحرب فيها بالقدر نفسه حرص على الصلح ، وفيها أمل مازال فى تميم ، وماهذا التحذير المؤكد بالقسم من تبعات

(١) فى الديوان (الظغينة) ونرى ان الصواب مااثبتنا .

الحرب وأهوالها إلا محاولة لاثناء تميم عن موقفها ، وكأن بشرا لايريد بهم ذلك ، ولايريد أن ينزل بهم مانزل ببنى عامر فى النسار ، ولايخفى علينا مافى قول بشر من التذكير بالقرابة ، ولايخفى علينا أيضا مايحاوله من بيان أن الأحاليف اقرب إلى تميم ، واخلص لها من بنى عامر لو تبصروا أمر حلفهم ، ورجعوا بابصارهم إلى الماضى .

نستطيع أن نقول ان بشرا فى هذه القصيدة لم يكن قد يئس بعد من أوبة تميم إلى التعقل ، ومن الرضوخ لدواعى السلام .

من أجل هذا رأينا ان تكون هذه القصيدة أولى قصيدتى بشر فى تحذير بنى سعد .

على أننا لانترك هذه القصيدة دون أن نشير إلى نبو البيت الثانى عشر فيها وهو :

ستحدركم عبس علينا وعامر وترفعنا بكر إليكم وتغلب

ولعله تخليط من الرواة لأن البيت روى فى « الصناعتين » منسوبا إلى اوس بن حجر . والواضح أن البيت لايستقيم على وجه مع ابيات القصيدة فما شأن عبس بتميم ؟ وماشأن بكر وتغلب بأسد ؟ وماشأن ذلك كله بالحرب الدائرة ؟ .

***

• • تأتى بعد ذلك القصيدة الميمية :

أحق مارأيتُ أم احتلامُ أم الأهوالُ إذ صحبى نيامُ

وهى القصيدة رقم (٤١) فى الديوان وعدتها ثمانية وثلاثون بيتا .

ويبدأ بشر القصيدة بمقدمة فى النسيب تستغرق ثمانية أبيات ينتقل بعدها إلى الفخر بأسفاره فى الفيافى المقفرة المخيفة على ناقة أهزلها السير ، وأكل سنامها ، ويمضى فيشبه ناقته بثور وحشى ادركته بحربة ليلة ممطرة فبات يتعجل الصباح حتى إذا كان الضحى خرج ناصلا نصول العقد من نظامه .

وينتقل بشر انتقالا مفاجئا فيذكر بقصة جذام ، وكيف أنها كانت تعيش فى وئام مع أسد ، حتى بدا لها أن يكون لها الامر ، وظنت أن أسدا لن تستطيع البقاء بدونها ، فلقيت عاقبة ذلك طردا إلى الشام وبقيت خزيمة لها حل المناقب والحرام .

ويلمح بشر إلى ان من يعادى خزيمه سيبوء بالاثم ، وتحل عليه اللعنة فمن خزيمة سدنة البيت ولاشك أن دعواتهم مستجابة :

وإن مُقَامَنَا ندعُو عليكم بأبطَح ذى المجاز له أثَامُ

ومعروف ان خزيمة لاتعنى أسدا وحدها وإنما تعنى معها قريشا وكنانة .

ويتجه بشر بعد ذلك إلى بنى سعد بعد أن بلغ الشر منهم مداه ، وخلت قلوبهم من الود ، وتنكروا للعهود ، يتجه اليهم محذرا عاقبة الأمر ، مبينا مدى الخسارة التى ستحل بهم حينما تحرم عليهم تلك الاماكن الخصيبة فى جزع عريتنات ، وفى برقة عيهم .

ثم يختم بشر قصيدته بمقطع يفخر فيه بمنعة قومه ، وكثرتهم ، وخيولهم المضمرة المدربة المتوفزة للحرب ويتأنى فى وصف الخيل .فيصف وقع اقدامها الذى يثلم الأرض ، ويصف أولادها ولدوا على غير موعد بصغار الغنم ، ويشبهها فى سرعتها بالحمام الذى يتسابق إلى ركايا الماء .

وتأتلف اجزاء هذه القصيدة كلها فى الإيحاء بالمعركة الوشيكة ، وفى تعبئة المشاعر لها ونحس ذلك من أول بيت إذ يكذب الشاعر عينيه ويتساءل أهو حقيقة أم حلم ، ثم يردف بقوله « أم الأهوال إذ صبحى نيام » ومن المعروف ان « أم » إذا تكررت يكون معناها « بل » فكأن الشاعر يريد أن يقول « بل أننى إرى الأهوال » ومانظن ذلك إلا رؤيا بشر لاهوال الحرب المقبلة . ويتحدث الشاعر عن محبوبته الجميلة « إدام » فيفجؤنا فى بداية هذا الحديث ببيان انصرافها عنه « ألا ظعنت لنيتها إدام » ثم يردف بأن هذا شأن الغوانى ، وصالهن أبدا كالحبل البالى «وكل وصال غانية رمام » ثم يلوم نفسه على هذا الحب الذى شغله فجدّبه وهزل

حتى كبر وظن الناس به الظنون ، ويستسلم بشر لذكرياته ولكنه قبل ان يستغرق فيها كان يؤكد أن هذه ايام مضت ولن تعود فما يدوم على الدهر شيء « والدهر ليس له دوام » .

وفى ظننا ان موقف الشاعر من المحبوبة يتوازى مع الموقف من تميم ، فطالما كان هناك حرص عليها ، وطالما جدوا بحبها وهزلوا ولكنها ذهبت لنيتها .

ولاأظننا نسرف فى القول أيضا إذا قلنا ان المحبوبة تقف فى خط مواز مع تميم ، ولعل تشبيه المحبوبة بالظبية الخذول فيه غير دلالة .

وتأتى بعد ذلك صورة الناقة والثور لتأتلف مع صورة ادام فى الإيحاء بالموقف ، فالناقة تجتاز الخرق الذى تعزف فيه الجنان ، والثور يخرج ناصلا بعد ليلته الطويلة التى بات فيها يقول : اصبح ليل ، وكأن بشرا يقول إن مانحن فيه مثل هذه الليلة ولكن بنى أسد سيخرجون كما خرج الثور من ليلته .

ثم تأتى قصة جذام فتأتلف مع صور المقدمة ائتلافا عجيبا فى الإيحاء بنتيجة الحرب المتوقعة .

فإذا وصلنا كل ذلك بتحذير بشر لبنى سعد ثم بفخره بقومه اتضح لنا أن بشرا حين نظم هذه القصيدة كان يكاد يرى الحرب رأى العين .

ولكنه حتى — وهو فى هذه الحال — ماتزال لديه بقية من أمل أن يثوب بنو سعد لرشدهم ، ويمنعوا ولو فى اللحظة الأخيرة وقوع هذه الكارثة المحققة . ومن ثم فحديثه عن عريتنات وبرقة عيهم فيه من الإغراء اكثر مما فيه من التحذير والنذير .

وثمة ملحوظة اخرى نلحظها فى هذه القصيدة هى ان بشرا يفخر بخزيمة جميعا لابنى أسد وحدهم .

أثـافٍ من خُزَيْمَـــةَ راسيــــاتٌ   لها حِلُّ المنـــاقِبِ والحَــــرامُ

فهل كان بشر يطمح ببصره إلى عون من قريش أو كنانة ؟! ربما صح ذلك وبخاصة أن طيئا نفضت يديها من حلف الأحاليف .

ان القصيدة غنية بالدلالات ، وغنية بالمشاعر ، فيها تحذير الواثق ، وفيها إغراء القادر ، وفيها ثقة المعتز هذا فضلا عما فيها من بناء فني تأتلف فيه الأجزاء فى الإيحاء بالموقف بحيث نستطيع القول إنها أنشودة الجفار .

فـي أعقـاب الجفـار

نستطيع أن نحدد ثلاث قصائد لبشر ذكر فيها وقعة الجفار وهى :

★ **قصيدته الفائية :**

أىَّ المنـــازلِ بعـــد الحى تَعْتَـــرِفُ   أم ماصِبَاكَ وقـد حُكِّـمتَ مُطَّـرَفُ

وهى القصيدة رقم (٢٨) فى الديوان ، وعدتها ستة عشر بيتا ، يخلص فيها بشر إلى الفخر بعد مقدمة من خمسة أبيات يقف فيها على أطلال صاحبته .

★ **قصيدته الميمية :**

لمن الديـــارُ غشيتها بالأنْعُـــمِ   تبـدو مَعَالِمُهـا كَلَوْنِ الأرْقَـــمِ

وهى القصيدة رقم (٣٨) فى الديوان ، وعدتها اثنان وعشرون بيتا يخلص فيها إلى الفخر بعد مقدمة من سبعة أبيات يصف فيها أطلال صاحبته ثم ينتقل إلى ناقته فيصفها فى بيتين .

★ **قصيدته الميمية :**

غَشيتَ للـــيلى بشرقٍ مقُامـــا   فهـاج لَكَ الرَّسم منها سَقَامَـــا

وهى القصيدة رقم (٣٩) فى الديوان ، وعدتها تسعة عشر بيتا ، يخلص إلى الفخر فيها بعد مقدمة من ثمانية أبيات يقف فى خمسة منها على اطلال صاحبته ، ويصف ناقته مشبها لها بالحمار الوحشى وأتنه فى ثلاثه .

وقد حاولنا أن نرتب هذه القصائد الثلاث زمنيا فلم نستطع ، وذلك لأن الشاعر فى أى منها لم يكد يصور واقعة الجفار ، إن هى إلا لقطات سريعة ،

وعبارات لها طابع العموم ، ففى القصيدة الميمية الأولى « لمن الديار غشيتها بالأنعم » يقول عن الجفار :

سائل تميماً فى الحروب وعامرا　　　وهل المُجربُ مثل من لم يعلم
غضبت تميمٌ أن تقتَّل عامر　　　يومَ النسار فاعتبُوا بالصَّيْلَم

وفى الميمية الثانية : « غشيت لليلى بشرق مقاما » يقول :

ويومُ النِّسارِ ويومُ الجفار　　　كانا عذاباً وكانا غرامَا
فأما تميمٌ ، تميمُ بنُ مرٍّ　　　فالفاهمُ القومُ رَوْبَى نِيَامَا

ولاتكاد القصيدة الفائية تخرج عن هذا الطابع المعمم فى القول ، سوى إشارة واحدة إلى موقف بنى لأم في الجفار .

وأسأل تميماً بنا يومَ الجفارِ ، وسل　　　عنا بنى اذ ولُّوا ولم يقفوا
لما رَأوا قَسْطلا بالقاع أفْزَعَهُم　　　وابصرُوا الخيل شُعثاً كُلُّها بَجِفُ

ومثل هذا القول المعمم لايمكن القارىء من تكوين تصور يهتدى على أساسه فى ترتيب هذه القصائد .

ولكنا نميل إلى التأخر بالقصيدة الميمية « لمن الديار غشيتها بالأنعم » عن صاحبتيها ، وذلك لان الفخر فيها يأخذ طابع الشمول ، فيستطرد بشر إلى أمجاد القبيلة كلها ، ومنها مقتل حجر الكندى وهو حدث قديم :

أقصدن حُجرا قبل ذلك ، والقنا　　　شُرُعٌ إليه ، وقد أكبَّ على الفم
ينوى محاولةَ القيامِ ، وقد مَضَتْ　　　فيه مَخَارِضُ كل لَدْنٍ لَهْذَمِ

ومثل ذلك الفخر العام يأتى فى مرحلة لاحقة ، حيث يدفع الشاعر زهوه إلى التنقيب فى الأمجاد القديمة بعد أن فرغ من جديد الاحداث .

وعلى أى فحديث الجفار فى هذه القصائد باهت شاحب ، وكأن هناك مايلجم لسان الشاعر عن الخوض فى تفصيلاته ، فيستدير إلى النسار واحداثها التى تستأثر بجل الفخر فى هذه القصائد تقريبا . حتى حديثه عما حل برؤوس تميم يأتى متلبسا بأحداث النسار لا الجفار ومن ذلك اشارته إلى فرار حاجب بن زرارة وقد كان ذلك فى النسار :

ففضَضْنَ جمعهم وأفلتَ حاجِبُ ... تحت العجاجة فى الغُبارِ الاقتمِ
ورأوا عقَابَهم المُدِلَّةَ أصبحت ... نُبِذَت بأغلب ذى مخالبَ جهضم

وقد سبق أن ألمحنا إلى بعض ماكان يمسك لسان بشر عن الخوض فى الجفار ، وان كنا نتساءل هنا لم يذكر تفصيلات ماحدث لتميم فى النسار دون الجفار ؟ ألعله كان يريد أن يلفت تميما إلى ماجره عليها وعلى زعمائها حلفها مع بنى عامر وإلى ماحل بها وبزعمائها يوم خاضت معهم هذه الحروب ؟ هذا مجرد احتمال .

وعلى أى فالقصائد الثلاث تأتى متأخرة فى الرتبة الفنية عما سبق الجفار من قصائد ، ويحس القارىء فى القصيدة الميمية « لمن الديار غشيتها بالأنعم » فتورا ، ولسنا ندرى على أى اساس عدت هذه القصيدة من المجمهرات ، وفى القصيدة الميمية الأخرى لايكاد يأتى الشاعر بجديد وإنما هى صور يدور حولها ، وغاية ماوصف به فيها يومى الجفار والنسار قوله « كانا عذابا ، وكانا غراما » ثم تأتى بعد ذلك ابيات يحس فيها القارىء بطابع النثر .

فأما تميمٌ ، تميمُ بن مر ... فألفاهم القومُ رَوْبَى نياما
وأما بنو عامر بالنسار ... غداةَ لقونا فكانوا نعاما
نعاما بخَطْمَةَ صُعْرَ الخدود ... لاتطعم الماء إلا صياما

فهل لحظت قوله « تميم ، تميم بن مر » « كانوا نعاما ، نعاما بخطمة » وإذا كان له مايبرر التكرار فى ذكر تميم ؟ فهل له مايبرره فى كلمة « النعام » وهل اضاف

ووصفه للسهام بانها « صعر الخدود ، لاتطعم الماء » شيئا ذا بال للصورة ؟ .

وليست القصيدة الفائية باحسن حالا من نظيرتيها ، فأول مايحسه القارىء هو الغموض في بعض ابياتها مثل :

تبكي لهم أعين من شجو غيرهم ... فإن بكى منهم باكٍ فقد لُهِفُوا

ويريد بشر ان يقول ان ماأصاب بنى عامر جعل غيرهم يبكى لهم حزنا عليهم ، أما هم فقد حق لباكيهم البكاء لأنه أصيب ، فهل عبارة البيت تؤدى مانقلناه من المعنى ؟ .

هذا فضلا عن تلك الضمائر التى يستخدمها بشر ويحار القارىء فى ردها إلى اصحابها ، ونضرب لذلك مثلا قوله :

لمّا رأوا قسطلا بالقاع أفْزَعَهم ... وأبصَرُوا الخيل شُعْثا كُلّها يَجِفُ
شوازبا كالقنا قُوداً أضَرَّ بها ... شُمٌّ العرانين أبطالٌ هم خَلَّفُوا
أباهم ، ثم مازالوا على مُثُلٍ ... لاينكُلُون ، ولاهم فى الوغى كشف

والحديث فى بداية هذه الأبيات عن بنى لأم الذين خذلوا الاحاليف فى الجفار ، وتركوا ميدان المعركة ، وعليهم يعود الضمير فى قوله : « لما رأوا قسطلا بالقاع أفزعهم » أو انهم فزعوا حينما رأوا الغبار المثار فى أرض المعركة ، ولكننا نتساءل أعليهم يعود الضمير ايضا فى قوله « وابصروا الخيل شعثا كلها يجف » ، ونظن ان لا ، لأن الشاعر يتكلم عن خيل بنى أسد وفرسانهم ولم يكن هذا ليفزع طيئا بحال ، لان طيئا كانت حليفة بنى أسد ، واولى بالضمير هنا ان يعود على غير طيىء من الفريق المعادى .

ونخلص من ذلك كله إلى أن قصائد بشر فى الجفار تأخرت فى الفن رتبة ، وكان بشر أبلغ فى إنذاره بالجفار من افتخاره بها ، فاذا ربطنا ذلك بموقف بشر وقومه من الجفار ــ وقد أوضحناه فيما سلف من قول ــ اتضحت لنا العلة ، وماذا ننتظر من شاعر لم يكن متحمسا لشىء مما يقول ؟! .

•• نضيف إلى هذه القصائد الثلاث قصيدة بشر .

عفت أطـــلالُ ميَـــةَ بالجَفِيـــرِ   فَهَضْبُ الوادِيَيْـــن ، فبرقِ إيـــرِ

وهي القصيدة رقم (١٨) في الديوان ، وعدتها اثنا عشر بيتا ، ويصف بشر في هذه القصيدة غارة قام بها خالد بن المضلل الأسدي على بني تميم ، في يوم يسميه بشر بيوم كير .

ويبدو أن هذه الغاره كانت ثأرا لغارة قام بها بنو تميم ، ونفهم ذلك من قول بشر :

أبى لابنِ المُضلل غَيْرَ فخـــرٍ   بأصحـــاب الشُّعَيْبَةِ؛ يومُ كير
رأوه من بنـــــى حرب عَوانٍ   على جرداء سابحَةٍ طَحُـــــورِ
إذا نَفَذَتهُـــــم كَرَّت عليهم   بطعن مثل أفْــواه الخُبـــوُرِ
فقد نُقضَ التُّراتِ وقـد شَفَاهـا   وخلَّانـــا لتَشْرَاب الخمـــور

وفي ظننا أن هذه الغارة التي قام بها ابن المضلل كانت ردا على غارة قام بها فريق من بني دارم ثأرا لما حل بهم في وقعة الجفار وقد عرفت هذه الأخيرة بوقعة ذات الشقوق ، وبها افتخر ضمرة بن ضمرة النهشلي حيث يقول :

الان ساغَ الشرابُ ، ولم أكـــن   آتي التُّجـــارَ ، ولأشدُّ تكلُّمـــي
حتي صبحتُ على الشقـوق بغـارةٍ   كالتمر يُنْثَـــرُ في حريـــرِ الحرَّم
وأبَـــأتُ يومـــا بالجفـــار بمثلـــه   وأجرتُ نصفـاً من حديثِ الموسم[1]

أما حرير الحرَّم فيقصد بها الشاعر رمال وادي الحريم الناعمة[2] ، وقد قال الشاعر « الحرم » بدلاً من الحريم لتستقيم له القافية ، ووادي الحريم هذا كانت فيه مياه لبني نمير تسمى « الشعيبية »[3] وهي التي ذكرها بشر حاذفا إحدى ياءيها في قوله :

---

(١) شعر بني تميم في الجاهلية . جمع وتحقيق الدكتور عبد الحميد محمود المعيني . نشر النادي الأدبي بالقصيم ١٩٨٢ ص ٢٨٤ .

(٢) فسر الدكتور المعيني جامع شعر بني تميم في الجاهلية « حرير الحرم » بانه حرير النساء وشرح البيت على ذلك بقوله : كانت غارة نثرت فيها الرءوس كما ينثر التمر في ثياب النساء . وهذا تأويل عجيب .

(٣) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ـ محمد بن عبد الله بن بليهد ج ٥ ص ٢٤ .

ابن لابن المضلل غير فَخْرٍ باصحاب الشُّعيبَةِ يومُ كير

وأصحاب الشعيبة هم تميم ومن مالأهم من عامر وعلى هذا يكون الفخر بما حل باصحاب الشعيبة لابهم انفسوم . اما كير فليس عن « الشعيبة » ببعيد فهو جبل يقع قريبا من منطقة دخنة الواقعة فى جنوب غرب منطقة القصيم الحالية[1] .

ويقوى ماذهبنا إليه أن بشرا فى قصيدته يتجه بحديثه إلى بنى عدس بن زيد وهم من دارم تميم .

ألا ابلغ بنى عُدَسٍ بن زيد بما سَنُّوا لبَاقيةِ الخُتُورِ

وبنو دارم هم الذين قاموا بغارة ذات الشقوق ، وكان ضمرة لسانهم المعبر فى هذه الغارة .

وهذه القصيدة — على قصرها — تفوق قصائد بشر فى الجفار نبضا وحرارة ، ففيها السخرية الموجعة ببنى عدس ، وفيها الابتهاج الممتن بفعل ابن المضلل ، ويبدو ان سر ذلك كان فى غارة ذات الشقوق التى اوجعت بشراً وقومه ومن معهم من الأحاليف .

---

(١) المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية . معجم بلاد القصيم ج ٥ ص ٢١٣٦ .

قبل ظهر الدهناء

وظهر الدهناء هى تلك الوقعة التى حدثت بين أسد وطيىء وكان النصر فيها لطيىء ، وهذه الوقعة هى الحد الفاصل بين هجاء بشر لأوس بن حارثة ، وبين انقلابه مادحا له ، مشيدا بكرمه ، وقد هجا بشر أوسا بأربع قصائد ، وأرجوزة من ستة أشطر .

•• ونستطيع أن نقول : إن أولى أهاجى بشر فى أوس قصيدته القافية :

أهـمَّت منك سلمى بانطلاق ... وليس وصالُ غَانيةٍ بِبَاقِ

وهى برقم (٣٤) فى الديوان وعدتها عشرون بيتا ، يقدم لموضوعه فيها بتسعة أبيات يتحدث فيها عن ارتحال سلمى ، ويلم بشىء من أوصافها ، ثم يخرج نفسه من الهموم بناقته التى يستطرد فيشبهها بالحمار الوحشى وعانته فى بيتين ، ينتقل بعد ذلك انتقالا مفاجئا لموضوعه .

وفى هذه القصيدة قرائن ترجح لنا أنها أولى قصائد بشر فى هجاء أوس ، ومن ذلك تحسبه وتخوفه من الهجاء رغم رغبته فيه ونفهم ذلك من قوله :

فإنى والشكـاةَ من آل لأمٍ ... كذاتِ الضِّغْنِ تمشى فى الرفاق

فيشبه نفسه بذات الضغن من النياق التى تشد بالحبل[1] ، فكأنه — كما يفهم من هذه الصورة — راغب فى الهجاء ولكن هناك مايمنعه ، ومايمنعه ليس إلا احساسه بقوة أوس ، ولكنه فى النهاية يخرج من هذا التردد فلن يصيبه إلا ماهو له :

سأَرْمِى بالهِجَاء ولا أفيه ... بنى لأمٍ وللمَوْقِىُّ واقِى

ومثل هذا التردد لايكون إلا فى بداية الإقدام على الأمر .

(١) ذات الضغن هى الناقة التى فى قلبها حنين إلى وطنها . أو فى إحدى يديها ظلع .

وأخرى أن بشرا يبدو فى هذه القصيدة وكأنه يحدد منهجه فى الهجاء فسوف يهجو بنى لأم ، ويخص منهم أوسا :

وسوف أخصُّ بالكلمات أوساً فيلقاد بما قد قُلْتُ لاقِ

وثالثه انه يشير إلى سبب الشقاق والمخرج منه وكأنه ـ بعد ـ مازال حريصا على تفادى الموقف :

فإذْ جُزَّت نواصى آلِ بَدْرٍ فأدُّوها وأسرى فى الوَثَاقِ
والا فاعلموا أنَّا وأنتم بغاةٌ ماحيينا فى شِقَاقِ

وكل هذه قرائن تفيد أن هذه أولى قصائد بشر فى هجاء أوس ، ومن ناحية أخرى فالقصيدة تخلو من الهجاء وان كانت إنذارا به وتهديدا .

• تلى هذه القصيدة ـ فى نظرنا ـ قصيدة بشر الهمزية :

تَغَنَّىَ القَلْبَ من سلمى عناءُ فما للقلب مُذْ بانوا شِفاءُ

وهى القصيدة رقم (١) فى الديوان وعدتها خمسة وعشرون بيتا .

ويبدأ بشر قصيدته بمقطع فى النسيب يستغرق ثمانية أبيات يصف فيها عناءه بعد رحيل سلمى وقومها فما لقلبه بعد أن رحلت شفاء ، ولاعزاء ، وهو يكاتم صاحبه وجده ولكن الوجد لايخفى ، وتخونه الدموع وهو يعلم أن البكاء لايليق بذوى الشيب ، وبين هذا الوجد وهذه الدموع يصف حمول، سلمى الظاعنة التى تتمايل بمن عليها من الجميلات وضاء الوجوه كأنها نخيل وادى محلم ، ويلتفت إلى المنازل فى صارة ، والفوارع والحساء ، وجزع عريتنات فيجدها قد أصبحت قفرا خالية .

وينتقل بعد ذلك بشر انتقالا مفاجئا إلى هجاء بنى لأم فيصف غدرهم وجبنهم موعدا بقصائد أخرى تفضحهم ، وتخلد عارهم :

فياعجباً عجبتُ لآل لأمٍ أمَا لهمُ إذَا عقدوُا وفاءُ
مجاهيلٌ إذا نُدِبُوا لجهل وليس لهم سوى ذاكمْ غَنَاءُ

وأنكاسٌ إذا استعرت ضَرُوسٌ تخلَّى من مخافتها النساء
سأقذف نحوهم بمُشَنَّعاتٍ لها من بعد هُلْكِهِمُ بقاء

ويسخر من بنى لام وتعظيمهم لبجير بن أوس الصعلوك العاق الذى هو منظر ولا مخبر :

فإنكم ومدحتكم بُجَيْراً أبَا لجأ كما امتُدِح الألاءُ
يراه الناسُ أخضرَ من بعيدٍ وتمنعُه المرارةُ والإباءُ
كذلك خلته إذعقَّ أوساً وأدركه التَّصَعْلُك والذكاء

ويبدى بشر عجبه لوعيد أوس ويستهين به فليس لمثله ان يأبه بهذا الوعيد فهو فى حمى من قومه أولى البأس والقوة ، وينطلق بشر فى فخره بقومه الذين هزموا تميما فى الجفار ، ويمزج فخره بقومه بفخره بنفسه وبفروسيته ، فكم من جمع قد سما اليه بجيش من قومه كثيف لايحتاج رقيبه إلى التخفى ، وتفر الوحوش أمام طلائعه المتقدمة، شيبه لايجبنون ، وشبابه لايخافون ، تحملهم أفراس شعث سريعة كأنها كلاب الصيد الضارية .

وجمع قد سموتُ لهم بجمع رحيب السَّرب ليس له كِفَاءُ
لهامٍ مايُرامُ إذا تَهَافَى ولايخفى رقيبهم الضراء
له سلفٌ تَنِدُّ الوحش عنه عريضُ الجانبين له زُهاء
صبحناه لنلبسه بزحف شديد الرُّكن ليس له كفاء
بشيبٍ لاتَخيمُ عن المنادى ومُردٍ لايروّعُها اللِّقاء
على شُعْثٍ تَخُبُّ على وجاها كما خَبَّت مُجَوَّعَةٌ ضِرَاءُ

والقارىء لهذه القصيدة يحس هدوء بشر ، فهو يقدم لها بمقدمة يتأنى فيها بعض الشيء ، ويعرض خطوطها فى شيء من التفصيل ، بحيث تمثل المقدمة ثلث القصيدة تقريبا . وقد آثرنا ان نعرضها نحن ايضا بصورة مفصلة .

وحين يتعرض بشر لهجاء بنى لأم لايزيد على أن يعجب من أمرهم وماهم عليه من أخلاق ، وتتكرر فى الأبيات الالفاظ (فياعجبا ، عجبت) والعجب لاينم

عن ثورة أو انفعال ، بقدر ماينم عن الإشفاق لما يراه بشر من أمر هؤلاء .

ثم إن بشرا فى القصيدة لايكاد يمس أوسا مسا مباشراً إنما هو يحوم حواليه بما يصفه من أخلاق قومه ، ومن صفات ولده .

فإذا انتقل بشر بعد ذلك إلى الفخر بقومه نجده لايكاد يحدد مواقع معينه أو أحداثا معلومه اللهم إلا هزيمة قومه لتميم فى الجفار أما سائر فخره فهو فخر بالقوة والشجاعة والجيوش الكثيفة العريضة ، وهذا حديث بادىء لم يستثره مكذب بعد ، فيدفعه إلى التحديد والتفصيل .

لكل ذلك نرى ان بشرا فى هذه القصيدة مازال فى بدايات هجائه لاوس ، وسنرى بعد ذلك ان هذا الهدوء سيزايل بشرا رويدا رويدا فيصبح هجاؤه اكثر حدة ، وفخره اكثر تحديدا .

***

.. أما ثالثة قصائد بشر فى هجاء اوس فهى — فى ظننا — قصيدته البائية .

تغيَّرت المنازِلُ بالكثيب وعفَّى آيها نسجُ الجنوب

وهى القصيدة رقم (٤) فى الديوان وعدتها عشرون بيتا .

ويبدأ بشر قصيدته بوقفة على ديار سلمى التى نأت وغيرها التنائى ، ورابها ماهو عليه من كبر ، فصدت عنه ، ولكنه يعزى نفسه بأن هناك غيرها من الحسان ممن لو يشاء للها بهن .

فقد أَلْهو إذَا ماشئتُ يوما إلى بيْضاء آنسةٍ لَعُوبِ

وينتقل بشر بعد ذلك انتقالا مفاجئا إلى هجاء بنى لأم ، وهو هنا هجاء اكثر تخصيصا لانه يعرض باحداث معينه كان فيها بنو لأم مثالا للغدر والشح .

ألا أبلغ بنى لأمٍ رسولاً فبئس محلُ راحلةِ الغريب
لضيف قد ألم بهم عِشاء على الخَسْفِ المبين والجُدُوبِ
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غرَّ الرشاء من الذَّنُوب

والهجاء كما نرى هنا يشير إلى حادثة معينة هى هؤلاء الضيف الذين أساء بنو لأم معاملتهم ، ولم يحسنوا قراهم .

ومثل هذا الهجاء الذى يتناول واقعة بعينها يكون أكثر إيجاعا وإيلاما من الهجاء الذى يصم بالرذائل مجردة فيضيع وقعه بين منكر لايصدق ، وبين متسائل بمتى وأين ، إنه الهجاء الذى يضع أمام العين شاهد اللؤم ودليله .

ويمضى بشر فيسخر سخرية موجعه من أوس ومن تسويد بنى لأم له على ضعفه وضيق أفقه :

ومــاأوسٌ ولــو سوَّدْتُمُــوه ... بمَــخْشِىٍّ الغُـرَامِ ، ولا أرِيبِ

ويعجب بشر مرة أخرى من وعيد أوس ، ويرى أن من مهازل الدهر وملماته أن يتجرأ أوس على الوعيد بقومه ، وهو يعلم مكان بشر من بنى أسد ، ويعلم بعد ذلك من هم أولئك القوم .

اتوعِدُنى بقومك يا ابن سعدى ... وذلك من مُلِمَّات الخطُـوبِ
وحـولى من بنى أسدٍ حلــولٌ ... مُبِـنٌّ بين شُبَّـانٍ وشِيـبِ

ويكون هذان البيتان معبر بشر إلى الفخر بقومه ، فينطلق فيه ، ولكن فخره هذه المرة يكون محددا بوقائع معلومة ، فيشير إلى مقتل حجر الكندى على أيدى قومه ، ويشير أيضا إلى قتلهم لعتيبة بن الحارث فارس بنى تميم وكان ذلك فى يوم خو ، كما يذكر مافعله قومه فى النسار بشريح بن مالك القشيرى حيث تركه بنو أسد طعاما للضباع والذئاب ، كما يشير إلى فرار حاجب بن زراره الذى انجته فرسه السريعة من رماح بنى أسد وسيوفهم .

هم ضربوا قوانسَ خيلِ حُجْرٍ ... بِجَنْبِ الـرِّدْهِ فى يومٍ عَصِيبِ
وهـم تركـوا عُتَيْبَـةَ فى مَكَــرٍ ... بطعنـة لاألـف ولا هيــوبِ
وهــم تركــوا غداة بنــى نمير ... شُرَيْحـاً بين ضِبْعَـانٍ وذيبِ
وهـــم وردوا الجِفَــارَ على تميمٍ ... بكــل سَمَيْـدَعٍ بطــلٍ نجيبِ
وأفلـت حاجبٌ تحت العــوالى ... على مثــل المولَّعَــةِ الطَّلُــوبِ

هكذا كان التحديد فى هذه القصيدة طابع الهجاء ، والفخر ، وهذا — كما نرى — حديث مشن بالقول ، تزيل قوله الأول بالاستهانة أو بالاستخذاف أو بعدم التصديق وكل أولئك مثيرات تخرج بالشاعر عن هدوئه شيئا فشيئا ، وتدفعه إلى حديث السن والشواهد ، ثم إننا نلحظ ان بشرا يمضى فى إنفاذ وعيده الذى تهدد به فى أولى قصائده ، فيختص أوسا بالهجاء ، وهذا مالم نلحظه فى القصيدة الهمزية ، من أجل ذلك كله نرى أن هذه القصيدة كانت تالية للقصيدة الهمزية .

***

على أننا نلفت فى القصائد الثلاث السابقة إلى ظاهرة حرية بالملاحظة وهى أن بشرا فى مقدمات هذه القصائد الثلاث كان حديثه عن واحدة بعينها هى « سلمى » .

والملحوظ — أيضا — أن موقفه من سلمى وموقف سلمى منه يتدرج فى القصائد الثلاث بما يتناسب مع تدرج مشاعره وانفعالاته .

ففى القصيدة الأولى يقول انها همت بالانطلاق ، وقد يهم الإنسان بالفعل ولايفعله ، وفى ظننا ان بشرا يقصد بانطلاق سلمى انطلاقا شعوريا لامكانيا ، اى انه انطلاق من مشاعر حبها للشاعر ، أو من الشاعر نفسه على حد تعبيره فى قوله « همت منك سلمى بانطلاق » .

وبهذا التفسير يستقيم فهمنا للبيت الثانى الذى يخبر برحيل سلمى من عسس وشرق :

تغيَّـــــر عَسْعَسٌ منها فشرق فأيْنَ من آل سلماك التــلاق

فهى قد رحلت من المكان ولكنها لما ترحل عن حبها للشاعر ولما تنطلق منه ، وإن كانت تهم بذلك . .

ومعنى ذلك — من ناحية اخرى — أن بشرا لم يفقد الأمل تماما من وصال سلمى فقد يهم الانسان بفعل ثم يتراجع عنه ، وهذا تفسير لما نراه من ان بشرا مازال متعلقا بسلمى ، أسيرا لفتنتها :

غداة تبسمت عن ذى غُرُوبٍ ... لذيــذٍ طعمـــه عذبِ المذاق
مقلَّـــدةٌ سُمُوطـــا من فريـــد ... يزيـــن الجيـــدَ منها والتَّـــراق
هضيمُ الكَشْحِ ماغذيت ببُؤسٍ ... ولامـــدَّت بناحيـــةِ الرِّبـــاقِ

فاذا رحنا إلى القصيدة الثانية وهى « الهمزية » وجدنا بشرا يعيش فى صراع داخلى يعبر عنه فى أول شطر من القصيدة « تعنى القلب من سلمى عناء » ، ويحاول ـــ عبثا ـــ إخفاء مابه حتى عن صاحبه :

أكاتمُ صاحبى وجدى بسلمـى ... ولـيس لوجـد مُكتِتِـم خفَـــاءُ

ويذرف الدموع وهو يدرك ان ذلك جهل منه :

فلمـا أدبـــروا ذَرَفَتْ دموعـــى ... وجهلٌ من ذوي الشَّيْبِ البكـاء

وليس لهذه المشاعر المتصارعة إلا علة واحدة ، وهى أن بشرا يحس بانصراف صاحبته عنه ولكنه يحاول إخفاء خبره ومن هنا استغرق فى وجده ودموعه ، وعاش فى عنائه يكذب سمعه وعينه ، ويغالب انفعاله حتى يبدو متماسكا هادئا ، وهو لايصرح بما يعانى لانه مازال على بقية من أمل .

أما القصيدة الثالثة فنرى بشرا يصرح فيها بما أخفاه ، فصاحبته نأت وغيرها التنائى وسلت حبه وهذا دأب الانسان :

نأَتْ سلمـى وغيَّرهـــا التنـــائى ... وقـد يسلُـو المحبُّ عن الحبيب

ومن ناحية اخرى نراه غير مكترث لنأيها عنه ، وصدها عن مشيبه فهناك غيرها كثيرات يستطيع أن يلهو بهن متى شاء .

فإن يكُ قد نأتنى اليـومَ سلمـى ... وصدَّت بعد إلـفٍ عن مَشيبى
فقـــد الهو إذا ماشئتُ يومـــاً ... إلى بيضاء آنسةٍ لعُـــــوبِ

ومثل هذا الموقف لايقفه إلا آيس من الوصال ، مدرك أن مامضى ليست له رجعة وأن ذا العقل هو من لايتعلق بالحبال الرثَّة ، ومن هنا أطلق الشاعر لسانه ،

وافصح عن حقيقة ما اراه مهونا من شأن صاحبته مستخفا بهجرها فى حديث زائله المدى ، وتقارب الحذذ .

ولنا بعد ذلك أن نسأل من هى سلمى هذه ؟ أهى بشر ؟ أم انها معنى تمثل للشاعر . أم مثله بشرا ؟ وهل نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن مقدمات هذه القصائد الثلاث لاتبعد عن موضوعاتها بقدر كبير ، أو قل انها ترتبط بهذه الموضوعات وتمت اليها بنسبة .

ومهما كان من أمر ، فاننا نرى أن هذه المقدمات لاتنفصل عن موضوعات قصائدها ، وفهمنا لها على هذا النحو يرجح ماذهبنا اليه من ترتيب هذه القصائد فى سياقها .

***

.. نصل إلى رابعة قصائد بشر فى هجاء اوس ، وهى القصيدة الرائية

ألا بلحت خفارةَ آلَ لأمٍ فلاشاةً تردُّ ولا بعيرا

وهى القصيدة رقم (١٧) فى الديوان ، وعدتها واحد وعشرون بيتا .

وتختلف هذه القصيدة عن سابقاتها فى أن بشرا يدخل إلى الهجاء دون مقدمات ، فتبدأ القصيدة بهذا البيت الذى يكشف عن أسباب الصراع الحقيقية ، وهى أمور كما ترى تتعلق بالخفارة ، وقد رأينا بشرا فى قصائده السابقة قد تلمس لهجائه لآل لأم وزعيمهم أوس أسبابا اخرى ، ولم يكشف أو يحاول عن السبب الحقيقى ، وماكان ذلك إلا تحسبا من بشر لما يجره ذكر الأسباب الحقيقية من توتر فى علاقات قبيلته بأمراء الحيرة ، لأن ذلك يظهرهم بمظهر المحابى غير المنصف ، ومن ثم رأينا بشرا فى قصائده السابقة يدور حول أحداث فرعية كالغدر بالضيف ، وأسر وفد بنى بدر وهذه فى نظرنا أمور مبنية على السبب الحقيقى الذى كشف عنه بشر فى مطلع هذه القصيدة .

والكشف عن هذا السبب يوحى بأن بشرا بلغ ذروة انفعاله ، وانه — وقد

تأكد من الصدام الوشيك مع طيء — لم يعد يتحسب فى قوله أو يقدر عواقبه .

وحدة الانفعال سمة من سمات هذه القصيدة يحسها القارىء فيما وسم به بشر طيئا من صفات تجاوزت الأحياء إلى الأموات .

لئامُ الناس ماعاشُوا حياةً   وأنتنُهم إذَا دفنُوا قبورا

ويمضى بشر فى هجائه المقذع لبنى لأم ينعتهم بأخس ماينعت به العربى من الجبن ، والتبعية ، والغدر والبخل حتى إذا وصل إلى أوس خرج القول إلى الفحش ، وأصبح إلى السباب أقرب منه إلى الهجاء :

فقولُوا للذى آلى يميناً   أفى نذرتَ ياأوسُ النُّذُورَا
فباستك حارَ نذُرك ياابن سعدى   وحُقَّ لنَذْرِ مثلكِ أنْ يَحُورَا

فإذا ترك الهجاء إلى الفخر نراه يخص نفسه ببيت يتحدث فيه عن شجاعته وممارسته للحروب يصدر به فخره بقومه :

فلو لاقَيْتِنِى لَلَقِيتَ قِرْنا   لنارِ الحرب إذْ طفئت سَعُورا

ولأول مرة تبدو شخصية بشر فى ساحة الفخر بوضوح ، بعد أن كان يذوب فى الجماعة ويذهب ضمير المتكلم لايكاد يحس بين ضمير المتكلمين ، وعلى أى فهو قول مستثار أحاطت به اهانات أوس واستهاناته . ولاأظننا بعد فى حاجة إلى أن نقول إن هذه القصيدة هى ذروة الهجاء لأوس ، وهى كذلك ذروة الانفعال من بشر ولكل ذلك آثرنا أن نضعها فى هذا المكان من السياق .

***

ويصل الانفعال ببشر مداه ، فلاتسعفه القصائد التى تحتاج إلى الأناة واحكام القول ، فيتركها إلى الرجز ، وإلى ماينطلق به لسانه من بعض القول العفوى ، ولذلك نضع فى هذا المكان من السياق أرجوزة بشر :

إنك ياأوسُ اللئيمُ مَحْتِدُه
عبدٌ لعبد فى كلاب تُسْنِدُه

ورنمبا فى الديوان (١٣) وعدد اشطرها سته ، وهى من السباب المباشر ، ويكفى أن تقرأ فيها قوله .

مُعلْهجٌ فيهم خَبيثٌ مَقْعد (١)

وقوله :

مثل الحمار فى حمير ترفُد

• • ونضع فى هذا المكان من السياق ايضا قول بشر .

ألا تَفْدى رغاء البَكْر أوْساً بسوطٍ من هجائى يابُجَيْر

وسوط كان أهونَ من قوافٍ كأن رعا لمن رعال طيْر

وهما بيتان برقم (١٩) فى الديوان ، والخطاب فيهما لبجير بن أوس ، وهما يمضيان على النهج نفسه .

وينتهى عند هذا الحد هجاء بشر لأوس بعد أن لم يعد هناك مجال للقول ، ولم يبق إلا الصدام ، ولعل مما لحظناه أن هذه الأهاجى بما تضمنها من فخر دارت حول معان محددة كان تصرف الشاعر فيها محدودا فإذا هجا دار حول صفات بعينها مثل الغدر والجبن والبخل وإذا افتخر دار فى نطاق أحداث بعينها ، وان كان هناك من خلاف بين قصيدة واخرى فانما يتمثل فيما وردت عليه معانى الهجاء من حدة ، وفيما ورد عليه الفخر من تحديد .

ولعلنا لحظنا أن فن القول سار فى هذه الأهاجى فى خط معاكس لدرجة الانفعال ، بحث وصلنا فى النهاية إلى قول عار يكاد يخلو من لمسة الفنان .

---

(١) المعلهج : الدعى الذى ليس بخالص النسب .

بعد ظهر الدهناء

— ١ —

فى طلب الجوار

انتصر أوس بن حارثة على بنى أسد فى وقعة ظهر الدهناء وبقى له أن يظفر ببشر بن أبى خازم ، ولا نتصور أن بشرا سلم إليه نفسه عقب هذه المعركة ، أو أمكن اوسا منه بيسر ، ولا نتصور أيضا إلا أنه — وقد أحس ببوادر الهزيمة — انتبذ مكانا قصيا لا تصل إليه يد أوس ، ولابد أن بشرا قضى مدة ليست باليسيرة طوّافا على أحياء العرب مستجيرا من أوس ، ويحدثنا ابن الأثير أنه جعل لا يأتى حيا من أحياء العرب يطلب جوارهم إلا قالوا له : قد أجرناك إلا من أوس[١] .

وطبيعى أن يكون بنو بدر أول من لجأ إليه بشر مستجيرا ، ألم يكونوا من بين من أغروه بهجاء أوس ؟ ألم تعبر أهاجيه عن مشاعرهم تجاه أوس حين اختصه النعمان بما اختصه به دونهم ودون بنى اسد ؟ ومن ثم نقدر أن أولى قصائد بشر عقب وقعة ظهر الدهناء قصيدته الدالية :

بان الخليطُ ولم يُوفوا بما عَهِدُوا
وزوَّدُوك اشتياقا أَيَّةَ عَمَدُوا

وهى القصيدة رقم (١٢) فى الديوان وعدتها واحد وعشرون بيتا ، ويبدؤها بشر بالوقوف على ديار المحبوبة بعد رحيل أهلها فى أربعة أبيات ، ثم يهرب من الموقف بناقته التى يصفها مستطردا إلى الثور الوحشى الذى أدركته فى « أورال » عشية باردة فلاذ بحقف أرطاة حتى إذا كان الصباح فاجأته كلاب غضف نواحل واسعة الأشداق ، فكر عليها فتركها صريعة ، وتستغرق صورة الناقة بما استطرد إليه بشر من وصف الثور أحد عشر بيتا ، يخلص بعدها إلى مدح بنى بدر .

(١) الكامل جـ ١ ص ٢٢٩ .

لما تَخَالَجَتْ الأهواءُ قلتِ لها   حقّ عليك دُوءوبُ الليل والسَّهَدُ
حتى تزورى بنى بدر فإنهمُ   شمُّ العرانين لا سودٌ ولا جعدُ

ويستغرق المدح أبياتا خمسة :

وقد يبدو مدح بشر لبنى بدر مدحا عاما مما تعوده شعراء العرب ، أو مما تعودناه منهم ، فهو يفضلهم على جميع القبائل ثم يصفهم بالحلم إذا استخف الناس الطيش ، وبالنباهة إذا كان غيرهم خاملين .

ولكن بيتا يستوقفنا من أبيات هذا المديح هو قول بشر :

لاجارُهُم يرهبُ الأحداث وسطهم   ولاطريدُهم ناجٍ إذا طَرَدوا

وفى ظننا أن هذا البيت هو مغزى المدح ، وهو تلميح ببغية الشاعر فى جوار بنى بدر ، وفى حمايتهم له من أوس . ولا يقال هذا بيت فرد . وهو من المعانى التى درج الشعراء عليها فى مديحهم .

أما انه بيت فرد فهذا صحيح ، ولكنه يمثل خمس ما مدح به بشر بنى بدر فى قصيدته ، وأما أنه من المعانى التى درج عليها الشعراء فهذا صحيح أيضا ، ولكن هل كان الشاعر يختار من هذه المعانى إلا ما يوافق هواه على نحو من الأنحاء ؟ إن وقوفنا عند هذا البيت يدفعنا إلى إعادة النظر من جديد فى سياقه من القصيدة فقبله يقول :

لو يُوزَنُون كِيَالاً او مُعَايَرَةً   مالوا برَضْوَى ولم يَعْدِلْهُم أُحُدُ
القاعدين إذا ما الجهلُ قيمَ به   والثاقبين إذا ما معشرٌ خَمَدُوا

ولعلنا لن نختلف على معنى البيت الاول من هذين البيتين ، ولكننا نسأل فى البيت الثانى : ما الجهل الذى قعد دونه بنو بدر ؟ ومن هم المعشر الذين خمدوا بينما ظل بنو بدر ثاقبين ؟ والإجابة عن هذين السؤالين تبين الخلاف بين فهمنا لهذا البيت وفهم من حاولوا التفسير فى غيبة السياق ، فالبيت فى نظرنا عام يراد به الخاص أو يداخله الخصوص على حد قول الفقهاء ، وما الجهل الذى قيم به وقعد

دونه بنو بدر إلا ظهر الدهناء ، وما المعشر الذين خمدوا إلا معشر بشر أنفسهم ، ولعل ذلك نفثة مصدور ، وتعبير عن خيبة أمل بشر فى قومه إثر هزيمتهم فى ظهر الدهناء .

* * *

وربما يقوى ما ذهبنا إليه ما نراه فى مقدمة القصيدة من إيحاءات لا تغيب على القارىء المتأنى . وكلها ترجح ما ذهبنا إليه من تفسير أبيات المدح ، ومن وضع القصيدة — بصفة عامة — فى سياقها .

ففى ديار المحبوبة نرى الشاعر وحيدا غدر به الأحبة ، وأقصدته السهام من كل جانب ، تتساقط نفسه ضعفا ، ويعصف به ما يجده من حزن :

بانَ الخليطُ ولم يُوفُوا بما عَهِدُوا ... وزوَّدُوك اشتياقا أيَّةً عَمَدُوا
شَقَّتْ عليك نواهم حين رحلتِهم ... فأنت فى عَرَصات الدَّارِ مُقْتَصَدُ[1]
لم أُنيِّخَت إليهم كلُّ آيبةٍ ... جَلْسٍ ، ونُفِّضَ عنها التامِكُ القَرِدُ
كادت تُساقِطُ منى مُنَّةٌ أسفاً ... معاهدُ الحىِّ والحُزنُ الذى أجدُ

وتتآلف مع هذه الصورة صورة الثور فى ليلته الباردة ، وقد عرض بشر خطوطها فى شىء من التفصيل :

طاوٍ برملةِ أورال تضيَّفَه ... إلى الكِنَاسِ عَشِىٌّ باردٌ صَرِدُ
فبات فى حِقْفِ أَرْطَاةٍ يلوذُ بها ... كأنَّه فى ذَراها كوكبٌ يَقِدُ
يجرى الرَّذَاذُ عليه وهو مُنْكَرِسٌ ... كما استكان لشكوى عينِه الرَّمِدُ
باتت له العقرَبُ الأولى بنَثْرَتِها ... وبَلَّه من طلوع الجبهة الأسَدُ

وكلتا الصورتين توحى بحال بشر ، وما هو عليه بعد ظهر الدهناء ، وتوحى

---

(١) مقتصد : فسرها المحقق بقوله « واقف لا يبرح من اللهفة والأسى » وأرى أنها اسم مفعول من الفعل المبنى للمجهول « اقتصد » بمعنى اقصدته السهام .

[illegible] أيضا أنه قد يفقد الأمل فى النجاة فلم يستسلم لهمومه اليائسة على
[illegible] ونكده [illegible] على ناقته الشديدة ناجيا :

[illegible] عليها [illegible] الأرض والجدد

وكذلك [illegible] ثور ناصلا من ليلته ، ولم يرهب كلاب الصياد فكر عليها
فأرداها .

— ٢ —

فى الأسر

وقع بشر فى يد أوس ، ولا يهمنا أن نعرض للتفصيلات التى صورت كيفية حدوث ذلك ولا أن نناقشها ، ولكن الذى يستوقفنا هو ذلك الهدوء الغريب الذى كان عليه بشر فى أسره ، مع علمه أن أوسا توعده بقطع لسانه ، وبتحريقه ، وبتقطيع أطرافه .

وقد عبر بشر عن هذا الاحساس المتفائل فى أرجوزته :

أَحْسِنْ وأَجْمِلْ فى الإسَارِ ياسَلَمْ

وهى برقم (٤٢) فى الديوان وعدتها خمسة أشطار .

وكذلك فى أرجوزته :

لو خفتُ هذا منك يوماً لم أَنَمْ

وهى برقم (٤٣) فى الديوان وعدتها ثمانية أشطر .

والارجوزتان تدوران حول صور واحدة مما كان يتيمن به العرب من الظباء التى ترعى آمنة ، والعير الذى يقف إلى جوار الجبل ، والعانة التى تنطلق فى الوادى آمنة السرب ، وهذه صور رأى فيها بشر ما ينبىء بالسلامة ، وما يقول بالنجاة حيث يقول العقل بالهلاك :

لقد زجرتُ الطَّيْرَ زجراً لم أُلِمْ
تقول قولاً غيرَ أقوال الحُلُم

ونتساءل أكان اطمئنان بشر لما يراه من هذه الصور أم أن هذه الصور كانت غطاء فنيا أو قل : كانت تجسيدا فنيا لمشاعر بشر فى صورة حية محسوسة ؟

على أى فإننا نرى أن بشرا كان مطمئنا الى شىء ما ، وكان مدركا أن هناك

قوى ستحول دون إنفاذ أوس لوعيده ، وأنها لن تسمح للأمر بالتفاقم ، وبتجاوز ما وصل إليه فى ظهر الدهناء .

على أننا نود أن نسجل رأيا فنيا بخصوص هاتين الارجوزتين فى النهاية ، وهو أنهما — فى نظرنا — أرجوزة واحدة لا اثنتان ، ودليلنا على ذلك أن بعض أشطار الأرجوزة الأولى ورد بلفظة فى الارجوزة الثانية ، فالشطر الخامس من الأرجوزة الأولى :

سلامةٌ ونعمةٌ من النعم

هو بلفظة الشطر السادس من الأرجوزة الثانية .

كذلك فقد ورد بعض أشطار الأجوزة الأولى محورا فى الثانية ، فقول بشر فى الأولى :

ألا ترى الغَيْسَرَ إلى جَنْبِ العالم

حور ليصبح فى الثانية :

ألم تر الظُّبْىَ إلى جنب العلم

وقول بشر فى الأولى :

والظبية العَيْطاءُ تَعْطُو فى السَّلَم

هو فى الثانية شطرا :

والعِينُ والعانةَ فى وادى السَّلم

وهذا من صنع الرواة فى غالب الأمر ، وكان طبيعيا — بعد ذلك — أن يفصلوا بين هذه الاشطر حتى لا يكون هناك تكرار ، فصنعوا من الأرجوزة الواحدة اثنتين .

— ٣ —

طلب الشعر

[illegible]

وهى برقم (٩) فى الديوان ، وعدتها — كما اسلفنا — سبعة أبيات، وفى هذه المقطوعة يعلن بشر توبته من قوله الظالم ، ويعد أن يمحو بمدحه الصادق ما قاله فى هجائه الكاذب ، ويبين لأوس أن خير ما يصنعه به أن يهبه الحياة ليقوم فيها بشكره ، ويرجو أن يكون موقفه منه كموقف يوسف عليه السلام من اخوته حينما عفا عنهم وقال لهم : لا تثريب عليكم :

وإنّى قد أهْجَرْتُ بالقول ظالماً	وإنّى منه يا ابنَ سُعدى لتائِبُ
وإنّى إلى أوسٍ ليقبَل عِذْرَتى	ويعفُوَ عنىٌ ماحيِيتُ لراغبُ
فهب لى حياتى ، فالحياةُ لقائمٍ	بشكرك فيها خيرُ ما أنتَ واهب
فقلْ كالذى قال ابنُ يعقوب يوسفٌ	لإخوته ، والحكم فى ذاك راسبُ
فإنى سأمحُو بالذى أنا قائلٌ	به صادقا ماقلتُ إذْ أنا كاذب

وقد يرى القارىء أن استشهاد الشاعر بيوسف عليه السلام واخوته أثر اسلامى ، وقد يدفعه ذلك الى التشكك فى نسبة المقطوعة أو بعض أبياتها لبشر ، ولكنا نقول إن قصة يوسف عليه السلام ذُكرت فى التوراة ونقول أيضا إنّ بنى أسد — بخاصة — كانوا على علم بكثير مما ورد فى التوراة ، ونذكر — فى هذا المجال — بأن اليهودية كانت منتشرة فى قبيلة كندة التى كان منها ملوك بنى أسد حقبة من الدهر[1] .

على أن ما يستوقفنا فى هذه المقطوعة هو بيتها الأول :

وإنّى لراجٍ منك يا أوسُ نعمةً	وانى لأخرى يا ابنَ سُعدى لراهِبُ

فقد عرفنا النعمة التى يرجوها بشر فى الشطر الأول من هذا البيت وهى عفو أوس عنه وصفحه ، فما الأخرى التى يرجوها بشر فى الشطر الثانى ويرهب أن يصرح بها ؟ ألعل لبشر مطالب أخرى عند أوس ؟ ربما يتكشف لنا ذلك بعد قليل .

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩١ .

** ونضع هنا مقطوعة بشر السادسة :

تداركَني أوسُ بنُ سُعدى بنعمةٍ   وقد ضاقَ من أرضي عليّ عريضُ

وهى المقطوعة رقم (٢٢) فى الديوان وعدتها سبعة أبيات . وفى هذه المقطوعة نرى بشرا ممتنا لما صنعه أوس به ، فقد تداركه حينما ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس بنفسه كأنما يصعد فى السماء ، أو كأنما هو فى مخالب عقاب قبوض ، ولم يكتف أوس بالإنقاذ بل أتبعه بالعطاء الجزيل :

تداركني أوسُ بن سُعدى بنعمةٍ   وقد ضاق من أرضٍ عليّ عريضُ
فمنَّ وأعطانى الجزيلَ وإنّه   بأمثالِها رَحْبُ الذراعِ نهوضُ
تداركت لحمى بعدما حَلَّقَتْ به   مع النّسْرِ فَتْخاءُ الجناحِ قَبوضُ
فقلتُ لها ردى عليه حياته   فَرُدَّت ، كما ردَّ المَنيحَ مُفيضُ

إذن لقد أطلق سراح بشر ، وردت عليه حياته ، فلماذا وضعنا هذه المقطوعة فى مكانها هذا من السياق ؟ ولماذا نرى أن بشرا مازال طالبا للعفو ؟ إن الأمر يتعلق بالنعمة الأخرى التى رهب بشر الإفصاح عنها فى مقطوعته السابقة ، وها هو يلمح إليها فى مقوطعته هذه :

فإن تجعل النعماءَ منك تمامةً   ونعماك نُعمى لا تزال تَفيضُ
يكن لك فى قومى يدٌ يشكرونها   وأيدى النَّدَى فى الصالحين فُروضُ

لقد مَنّ أوس على بشر بالحياة والمال فماذا يطلب بشر بعد ؟ وما هذا الصنيع الذى سيكون تمامة للنعمة ، ويدا يشكرها بنو أسد وتكون دينا فى أعناقهم ؟

إن المطلب – فى نظرنا – ليس مطلبا شخصيا ، ولكنه مطلب قبلى ، فما ذاك المطلب القبلى الذى يعنى بشر نفسه به ؟ وماذا يكون لبنى أسد عند أوس عقب وقعة انتصر فيها عليهم ؟ ليس ثمة سوى أسرى الوقعة وارجع البصر – بعد ذلك – فى الأبيات فلن تجد فهما يستقيم لها إلا على هذا التقدير .

لقد وصم ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » بيت بشر :

يكن لك . قومى يدٌ يشكرونها وأيدى النّدى فى الصالحين قروضُ

بأنه من الأبيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم[1] ، وعلق الدكتور عزة [illegible] أي ابن طباطبا بقوله « ويفهم من قوله ومن استعراض الأبيات التى أوردها فى هذا الباب أنه ينكر على بشر أنه ساوى بين نفسه وبين ممدوحه ».

ونرى أن ابن طباطبا لا يقصد ذلك ، وإنما يقصد أن بشرا أساء إلى قومه حين جعلهم بحاجة إلى إنعام أوس وإفضاله ويقوى هذا أنه أورد بيت بشر بعد بيت الفرزدق :

وإن تميماً كلّها غير سعدها زعانفُ لولا عزُّ سعد لذلّت

وعلق على بيت الفرزدق بقوله « وقد وضع من قومه وهجاهم بهذا البيت » ثم أورد بيت بشر والبيتى أن ينسحب عليه الحكم فى بيت الفرزدق وإلا لأفرد بحكم خاص .

وسواء هذا [illegible] ذاك أو أن ابن طباطبا قصد إلى ثالث فالبيت لا ينبغى أن يحكم عليه بزيادة قريحة قائله ، ولم يكن ينبغى لبشر أن يقول غير ما قاله ، وماذا كنا نترقب — إذن — من شاعر يسعى فى فكاك أسرى قومه .

ومرد الخلط فى نظرنا أن البيت فهم على أنه مطلب شخصى ، وما ذاك إلا لأن المقطوعة كلها فهمت فى غير سياقها وفى غيبة السياق يمكن أن يقال كل شىء .

** نصل إلى قصيدة بشر العينية :

هل انتَ على أطلاَلِ ميّةَ رابــعُ بِحَوْضَى تُسائِلُ ربعَها وتُطَالِـعُ

وهى القصيدة رقم (٢٤) فى الديوان ، وعدتها سبعة عشر بيتا . ويبدو أن جزءا سقط من مقدمة هذه القصيدة إذ هناك فجوة بين البيتين الثالث والرابع ، فقد انتهى الشاعر فى الأبيات الثلاثة الأولى من وصف أطلال صاحبته « مية » حيث

---

(١) عيار الشعر ، ابو الحسن بن طباطبا العلوى ، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع ط ١٤٠٥/١٩٨٥ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

أقفرت بتبالة ، وبأعلى ذى الاراك ، وتبدلت بأناسها ثيرانا كأنها تجار من الأنباط فى صوامعهم ، وبعد ذلك يفجؤنا الشاعر فى البيت الرابع بقوله :

قطعت إلى معروفها منكراتها   بعيْهَمَةٍ تَنْسَلُّ والليل هاكِعُ

معروف ماذا إلى منكرات ماذا ؟ إنه يقصد بالطبع معروف الصحراء ومنكراتها ، ولابد أنه تحدث عن هذه الصحراء موطئا لهذا البيت ولكن يبدو أن هذا الحديث سقط من ذاكرة الرواة .

على أىَّ فقد تجاوز منكرات هذه الصحراء بناقته السريعة وصولا إلى بغيته أوس .

وفى خامس أبيات القصيدة يبدأ الشاعر فى مديحة لأوس فيدور فى البداية حول ما دار حوله فى المقطوعة السابقة ، فأوس تداركه بنعمه بعد أن تخلى عنه — جبنا — من كان يعتد بهم ، ويرجوهم لدهره ، وأوس قد أغدق عليه حتى كأن إغداقه خليج تستن فيه الضفادع ، وأوس قد رد عليه حياته بعدما أحدق به الموت .

تداركنى أوسُ بن سُعدى بنعمةٍ   وَعـرَّدَ من تُخْنَى عليه الأصابِعُ
تداركنى منه خليجٌ فردَّنى   له حدبٌ تستنُ فيه الضفادعُ
تداركنى من كُرْبَةِ الموت بعدما   بدت نُهلاتٌ فوقهن الودائع

وتلفت إلى جمال التكرار للفظة « تداركنى » فى بداية الأبيات الثلاثة ، وإلى ما يوحى به من استجابة أوس السريعة لرجاء بشر ، وما تلك الأبيات إلا توطئة لغرض هذه القصيدة الأساسى وهو أن يمن أوس فيطلق سراح أسرى بنى أسد .

ويبالغ بشر فى ضراعته لأوس مبينا أن ضراعته تلك ستورى زناد أوس حتى ولو كانت به هجنة فيمن بالعفو لينقلب بؤس بنى أسد الى نعمة ولن يضيع معروف يسدى إلى بنى أسد والأيام دول ، وتصل ضراعة بشر الى ما[illegible] لقد كان لك أن تفعل فى بنى أسد عبيد العصا ما تشاء بعد أن هزمتهم لولا [illegible] تداركهم سيبك وسيب والدتك سعدى .

لعمرك لو كانت زِنَادُك هُجْنَةً	لأورَيْتَ إذ خدِّى لخدِّك ضارعُ
فأصبح قومى بعد بُؤْسَى بنعمةٍ	لقومك والأيامُ عُوجٌ رواجع
عبيدُ العصا لم يمنعوك نفوسهم	سوى سيبِ سعدى إن سيبَك نافعُ

وصحيح أن بنى أسد كان يأنفون من نعتهم بعبيد العصا لأن ذلك يذكرهم بما لا يحبون أن يذكروه من مواقف الذل ، ولكن لا يظن أن بشرا هنا يهين قومه ، أو يقصد إلى إهانتهم وإنما هى مبالغة فى التوسل والاسترحام ، ولا بأس من أن يطأطىء بشر هامته وهامة قومه فلعل ذلك يورى زند أوس الصلود ، أو يذهب عنه بعض ما يجد على بنى أسد فيمن على أسراهم .

ويمضى بشر بعد ذلك فيكيل المديح لأوس فهو فتى غر من بنى لأم كأنه الشهاب الساطع فى ظلمة الليل ، وهو يفديه بنفسه وناقته حين يراه متقدما فى ساحة الحرب ينقذ من استسلموا للرماح بطعنة من رمحه ، و ضربة من سيفه ، وهو المرجى فى النائبات رحب الذراع كثير المال ، وهو الذى إذ سعى الى العلا قصر عن اللحاق به غيره ، وصنع ما لم يصنعه أحد

وكل هذه الصفات التى خلعها بشر على ممدوحه اوس تمت بسبب أو بغيره الى بغية بشر ، وغايته الأساسية .

ولعل ما لحظناه من عرضنا لهذه القصيدة أن بشرا بلغ الغاية سواء فى مديحه لأوس أم فى تضرعه له وتوسله ، من أجل ذلك نرى أن نظم هذه القصيدة كان تاليا لنظم المقطوعة الضادية بعد أن أحس بشر أن أوس كان معرضا ما يزال عن مطلبه بخصوص قومه .

** تأتى بعد ذلك قصيدة بشر الهائية :

اتعرف من هُنَيْدَةَ رسْمَ دارٍ	بخَرْجَيْ ذَرْوَةٍ فإلى لواها

وهى القصيدة رقم (٤٦) فى الديوان ، وعدتها اثنان وعشرون بيتا، وتبدأ القصيدة بمقطع فى النسيب يستغرق ستة أبيات ، وفى البيت السابع يبدأ الحديث

عن تلك الموماة الموحشة المقفرة التى تقطعها ليلا بناقته النشيطة وصولا الى أوس .

وينتهى الشاعر إلى أوس فى البيت الثالث عشر فيقول :

إلى أوس بن حارثـــةَ بـــن لأم ليـقضىَ حاجتى ، ولقـد قضاهـا

ويبدو أن الشاعر كان مطمئنا الى قضاء حاجته هذه المرة ، بل انه يراها قد قضيت بالفعل ، «ولقد قضاها» وما ذاك إلا وثوقا بصاحبه أولا ، وباحساسه ثانيا .

وربما كان هذا الاطمئنان هو سر ما نحسه من عجلة بشر فى مقدمته ، وسرعة إيقاعها ، فهو لا يكترث بصاحبته هند ، ولا بديارها وكأنه لا يريد لشىء أن يشغله عن بغيته بعد أن اطمأن لنجاحها :

وما أشْجَاكَ من أطـلالِ هنْـــدٍ وقــد شَطَّت لِطِيَّتِهـــا نَوَاهَـــا
وقـد اضحت حبـا لكمـا رِثاثـــاً بِطَاءَ الوصل ، قد خَلُقَت قُوَاهـا

وكذلك هو فى وصفه للصحراء لا يكاد يتأنى عند صورة ، ولا يكاد يميل إلى استطراد ، وربما كان ذلك دأب بشر فى تعبيره ، ولكنه كان فى هذه المقدمة أكثر وضوحا .

ولا نريد أن يفهم ان عجلة بشر فى مقدمته تعنى قصرها ، فعلى العكس من ذلك هى مقدمة طويلة إذا قورنت بمقدمات بشر وبحجم القصيدة نفسها ، ولكن الطول شىء والعجلة شىء آخر ، ويكفى أن القارىء يكاد يلهث وهو يتابع صورها المتتالية ، ويخيل إليه أن بشرا يريد أن يطرق على الحديد وهو ساخن .

وعلى أى حال فقد مدح بشر أوسا فأجاد فى مدحه ، صوره سباقا الى المكرمات ، وتحدث عن نشأته فى أكرم بيوت جديلة وعن سيادته عليها ووصفه بأنه قادر على الضرر وقادر على النفع ، وأنه الشجاع الذى يقتحم الحرب ، ويفرج كرب المكروبين كل ذلك فى صور رائقة ولفظ عذب متناسق ، واقرأ قوله من هذه القصيدة :

فما وَطِئ الحصى مثل ابن سُعدى ... ولا لَبِسَ النعالَ ولا احتذاها

[illegible] ... وقَصَّر معشرها عن مداها

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... إذا ما [illegible]

[illegible] ... له [illegible]

[illegible] ... تأزّر بالـ[illegible]

[illegible] بعد ذلك مدح المادح .

ولعلنا لاحظنا أن نغمة التوسل والضراعة التي سادت في القصيدة العينية وتوشحت عليها بلون قاتم قد اختفت من هذه القصيدة ، بل إن القارىء ليحس أن نغمة من السرور والمرح تسري في الألفاظ ، وتنتشر في أوصال الصور . وماذا ننتظر بإنسان [illegible] نجح حاجته غير ذلك ؟

وإنا في نهاية هذه المجموعة من شعر بشر نريد أن نسأل : هل بقي لدى القارئ شك في أن بشرا لم يكن طالب مال في هجائه أو مدحه ؟ فإذا كان ثمة شك فإننا نقول له : فلتعد النظر في قصائد بشر في طلب العفو ، كم منها طلب فيه العفو لنفسه ؟ وكم منها طلب فيه العفو لقومه ، ثم فلتعد النظر في مديح بشر لأوس في هذه القصائد أذلك مدح مسترفد ؟ إن المادح المسترفد يدور حول صفات أخرى ، أما بشر فقد مدح ببلوغ المكرمات ، والتأزر بها ، والسيادة ، والقدرة على الضر والنفع ، وتفريج الكرب وغير خفي نسبة ذلك كله إلى ما يسعى فيه بشر .

وأخرى نلفت إليها أن بشرا بلغ ذروة مدحه لأوس في قصيدته الهائية التي استوثق فيها من أن أوسا محقق حاجته « ليقضي حاجتي وقد قضاها » فهل كان هذا الترافق بين بلوغ المدح ذروته وبين بلوغ الشاعر نجحه في مقصده القبلي ضربا من الصدفة ؟

ـ ٤ ـ

فى الشـــكر

من أوس على بشر فعفا عنه ، وأغدق عليه ، كما أجابه ـ فى ظننا ـ إلى أخرى تتعلق بقومه إذ أطلق أسرى ظهر الدهناء التى هزم فيها بنو أسد . وكان طبيعيا أن يشكر بشر لأوس صنيعه ، ويؤكد له أن معروفه لن يضيع ، وأن أيدى الندى فى الصالحين قروض ، كما سلف أن مر بنا من قوله :

وقد بقى من مدائح بشر فى أوس قصيدتان نقدر أنهما كانتا فى شكر الصنيع ، فليس فيهما تلميح برجاء ، أو طلب لمنة ، وإنما هما مدح خالص ، وإشادة محضة بفضائل أوس ، ومثل هذا فى نظرنا لا يكون إلا فى مرحلة لاحقة للعفو ، وإطلاق سراح الأسرى .

أما القصيدتان فهما :

★ القصيدة الفائية :

كفَى بالنَّـــأْيِ من أسماءَ كافــــى   ولـــيس لحبها إذْ طـــال شــــاف

وهى القصيدة رقم (٢٩) فى الديوان ، وعدتها ثلاثون بيتا .

★ القصيدة اللامية :

أَنِيّـــةُ الغـــــداةَ أم انتقـــــالُ   لمُـــنْصَرَفِ الظَّعائـــن أم دلال

وهي القصيدة رقم (٣٥) فى الديوان ، وعدتها أربعة عشر بيتا .

وفى ظننا أن القصيدة الفائية أسبق نظما فهى من ناحية أطول القصيدتين إذ تربو على ضعف اللامية ، ومن ناحية أخرى يبدو بشر فيها أكثر احتفالا بصنعته الشعرية ، ومثل ذلك لا يكون إلا والعواطف ساخنة ، والمدى قريب بين القول والباعث عليه .

... الثمانية عشرين بيتا أى ثلثى القصيدة ويبدؤها
... أنها ذات عنه تاركة إياه يعانى من حبها ما يعانى ،
... تعلله بها ينسيه الفراق :

... وطولُ الشوْقِ يُنسيك القرافـــى

... الحب إلا القوافى التى يؤدى بشر فيها حقوق
... لهم عليه من شكر .

... جمال محبوبته ، وما جره عليه فراقها من
... اء ، وإذا به يقول :

... أُسنيها المودّةَ فــى القوافـــى

... اثنتان أم واحدة ؟ أو أنهما شخص معنوى
... أكبر ظننا أنه كذلك ، وإن ما يلفتنا أن
... يليق إلا بأوس نفسه واقرأ معى قوله :

... خُشوعِـى للتفــرُّق واعترافـــى
... بودى غير مُطَّـــرف التصافـــى
... إذا هَمَّ القرينـــةُ بانصـــراف
... أســنيها المـــودة فـــى القوافـــى

... يريد أن ينقله بشر إلى أوس ؟ ألا ترى معى
... المودة والألم للفراق ، والإخلاص لمن يحب
... ؟ ألا ترى أن القرينة هى التى اضطرته إلى
... صراف ؟ ألا يذكرك ذلك بانصراف أوس
... بعد من موقف بشر من أوس ؟ على أى
... فيركز مدحه فى ثلاثة أوصاف هى منعة
الجوار ، والخير ، والحكمة ، فيبرز مصورا منعة جوار أوس :

فمـا صَدَعٌ بِجُبَّـةَ أو بشـوُطٍ ... على زُلُقٍ زوالـقَ ذى كِهـافِ
تزلُّ اللَّقـوةُ الشَّغـواءُ عنهـا ... مخالبُهـا كأطـرافِ الأشـافى
بأحـرزَ موئـلاً مـن جـارِ أوس ... إذا ما ضيم جيـرانُ الضعـاف

ويقول مصورا قوة أوس مفضلا لها على قوة الأسد :

ومـا ليث بعثَّـر فـى غَرِيـفٍ ... يغنيه البعوض علـى النطّـاف
مُغِبٌّ ، مايـزال علـى أُكيـلٍ ... يناغى الشمس ليس بـذى عطـاف
با بأس سـورة للقـرن منـه ... إذا دُعِيت نـزال لدى الثقـاف

وأما الحنكة فيصف بها أوسا فى قوله :

ومـا أوس بن حارثـةَ بـن لأمٍ ... بغُمـر فى الأمـور ولا مضـاف

ولعلك لحظت سلسلة نسب أوس فى هذا البيت (أوس بن حارثة بن لأم) وكأن بشرا يريد أن يؤكد صحة هذا النسب ، ولعل هذا يرجع بنا لى ما وصم به أوسا زمان القطيعة من أنه دعى النسب ، ألم يقل عنه :

« معلهج فيهم خبيث مقعده »

ويرجع بنا أيضا إلى ماكان يصر عليه بشر من نداء أوس فى أهاجيه بابن سعدى ، وما يوحى به ذلك من غمز فى النسب .

والربط بين الأهاجى والمدائح يعطيك تفسيرا لتركيز بشر على هذه الصفات فى مدحه ، فإنها هى ذاتها الصفات التى سلبها عنه فى هجائه ، ألم يصف أوسا بالغدر بجيرانه فى قوله :

غدرتَ بجارِ بيـتك يا ابـن لأْمٍ ... وكنت بمثـل فعلَتِهـا جديـرًا

ألم يصفه بالضعف وقلة التجريب فى قوله :

ومـا أوس ولـو سـود تمـوه ... بمخشـىٍّ العـرام ولا أريـب

ألم يكن على بشر — إذن — أن يغسل كل ذلك .

★ ونصل إلى القصيدة اللامية :

أنيَّةُ الغـــداةَ أم انتقـــالُ — لمنصـــرف الظعائـــن أم دلال

وهى كما قدرنا ختام علاقة بشر بأوس .

والقصيدة أربعة عشر بيتا تستغرق المقدمة منها ثمانية أبيات يصف فيها الظعن ثم ينطلق من الهموم التى أثارها الفراق بناقته فيقف عندها قليلا : ثم يقول :

ألا تنسى الكفـــورَ وكلُّ شـــىءٍ — من الأخلاق تُنتَجِـــع الرجـــالُ

والبيت فى السياق خطاب للنفس ، وكأنه يحث نفسه على نسيان تلك المرأة التى كفرت بالمودة ، ثم يمضى فإذا به يبرر تعلقه بأمثال هذه الكفور « وكل شيء من الأخلاق تنتجع الرجال » . ولما كان هذا البيت يمثل بيتا مفصليا إذ به ينتقل الشاعر من المقدمة إلى الموضوع فإننا نشعر أن الخطاب فيه مشاركة بين النفس وبين الممدوح ، ألا ترى أن هذا التبرير صالح لموقف بشر من صاحبه زمان القطيعة ، ألا ترى أن بشرا يريد أن يسقط هذا الموقف برمته موحيا إلى صاحبه أن الإنسان قد يسلك كل المسالك وأنه رهن فى اختياره بظروفه ، وأياما كان الأمر فقد ركز بشر فى هذه القصيدة على بأس أوس وكرمه ناهجا النهج نفسه الذى سلكه فى قصيدته السابقة ، بل إنه يعيد صورة الليث نفسها مع بعض التحوير اللفظى وذلك فى قوله :

ومـا ليثٌ بعثَّـــرَ فـــى غَرِيـــفٍ — معيدُ الهَصْرِ خطفتُـه شِمَـــالُ
بأصدق عَدْوَةً منـــه وبأســـا — غداة الروع إذ خَلـت الحجـالُ

فهل نضب خيال بشر ؟ أو أن العاطفة اعتراهاالفتور ؟ وربما ملنا إلى الأخرى ، فنحن لا نرتاح إلى المبالغة ونراها دليل خواء عاطفى ، وإن شئت فاقرأ قول بشر من هذه القصيدة :

ولـــو جارَاك أبيـــضُ مُتْلَئِـــبٌ — قرى نبـطِ الســواد لـــه عيـــال

تَهِفُّ يداك من هذا وهذا — وتُغْرِفُ من جوانبه السجال
لأصبحت السفين مخوَّيات — على القُذُفات ليس لها بِلال

ولا نريد أن نعود بك إلى مدائح بشر الأولى فى أوس وبخاصة القصيدة الهائية لتلمس الفارق بين الصدق والزيف ، ولكننا نسألك هل صورة الكرم المبالغ فيها هذه أنستك قول بشر فى وصف بخل أوس وقومه :

إذا ما جئتَهم تبغى قِراهم — وجدتَ الخيرَ عندهم عسيرا
ذُنَابَى لا يَفُون بحق جار — وليسوا ينعشون لهم فقيرا

أم أن بشرا نال حاجته ، وحقق مأربه ، ولم يعد هناك ما يحفزه من رغب أو رهب سوى أن يكد ذهنه ليفى بالشكر، وما أصعب الوفاء !!

الختـــام

نصل إلى ختام شعر بشر فى قصيدته التى بكى فيها نفسه :

سائلـــةٌ عميرةُ عـــن أبيهـــا خلالَ الجيش تعتـــرف الركابـــا

وهى القصيدة رقم (٥) فى الديوان وعدتها عشرون بيتا ، وقد بدأها مصورا موقف ابنته عميرة التى تنتظر عودته بالنهاب ، ولا تدرى أن أباها قد طعن الطعنة القاتلة ، وأنه لن يؤوب إليها أبدا ، وتتوالى مشاهد الحياة شريطا مصورا أمام عينى بشر فيتحسر على عمره [illegible] ، وعلى المنية تعاجله قبل أن يشفى صدره من عدوه ، وتلوح له مشاهد من فروسيته فيغنى بها فى صوت نحس تهدجه :

فإن أهلك عميرُ فربَّ زحـــفٍ يُشبَّـــهُ نقْعُـــه عدْواً ضَبابـــا
سموتُ لـــه لألبسَـــهُ بزحـــفٍ كما لفت شآميـــةٌ سحابـــا

ويمضى فى نشيجه ليكون آخر قوله الإشادة بقوة قومه ، وكأنه يحثهم على إدراك ثأره من قاتليه .

وقد سارت من هذه القصيدة أبيات تناقلها الرواة والشعراء فى إعجاب ، ومنها قول بشر :

رهيـنُ بِلَـــىً وكلُّ فتـــىً سيـــبلى فأذرِى الدَّمْعَ وانتحبـى انتحابـــا

وقوله :

مضى قصـدَ السـبيل وكـلُّ حـىٌّ إذا يُدْعَـــى لميتَتِـــه أجابـــا[1]

وفى تقديرنا أن بشرا نظم هذه القصيدة وهو يتهيأ للموت إثر الطعنة القاتلة التى تلقاها من ذلك الغلام الوائلى ، وفى تقديرنا أيضا أنه عاش إثر هذه الطعنة

(١) انظر العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٧٨ .

أياما ، وربما كانت قصة مقتله تعين على هذا التقدير ، إذ تحكى هذه القصيدة أن بشرا تمكن من أسر طاعنه ، وأنه لم يطلقه إلا بعد أن استيأس من النجاة ، وظن أنه الموت . وهذا لا يمكن تصوره إلا على الوجه الذى قدرنا من أنه ظل بعض الوقت مستجمعا قوته قبل أن ينهكه الجرح ، ويودى بحياته . وبهذا التقدير نستطيع أن نتمثل كيف نظم بشر هذه القصيدة فلا يعقل فى تصورنا أن يتاح له نظمها وهو يعالج سكرات الموت .

ولعل الجاحظ تصور الأمر على غير ما قدرنا فذهب يشكك فى القصيدة ، ويدعى أنها مصنوعة[1] .

ولعل الجاحظ ذهب إلى هذا الرأى دون تثبت أو تمحيص من باب مدافعة الرأى ، والانتصار على المجادل ، وقد كان هذا دأبه دائما ، ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى شكك فيها بعض فى شعر بشر[2] .

ونحن نطمئن إلى صحة نسبة هذه القصيدة لبشر ففيها روحه ، وطابعه ، ونهجه فى بناء الصورة التى يقوم على اللقطات الخاطفة المتتابعة .

---

(١) انظر كتاب الحيوان جـ ٦ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر كتاب الحيوان جـ ٦ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ثم انظر كتاب مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٦٦ وما بعدها فى تصويره لمنهج الجاحظ فى الر[illegible] وعد[illegible] إبداء الرأى .

الفصل الرابع

السياق الفني لشعر بشر

من حيث الإطار العام للقصيدة لا نستطيع أن نقول : ان بشر بن أبي خازم كان له نهج منفرد يتميز به عن شعراء عصره فهو سائر على سننهم فى البدء بمقطع النسيب يخرج منه إلى وصف ناقته ، وقد يستطرد فيشبهها بالحمار الوحشى وأتنه ، أو بالثور الوحشى أو بذكر النعام ثم يخلص بعد ذلك إلى لب القصيدة إن فخرا وإن مدحا أو هجاء ، وقد يمزج الفخر بأبيات فى وصف الخيل تتخلله أو تذيله . وكل أولئك نسق معهود ، وطريق موطأ لم يشذ فيه بشر عن غيره .

ولكن الذى يستوقفنا فى شعر بشر هو ما نراه من علاقة بين مقدمة القصيدة وموضوعها .

وقد وقفنا فى عرض السياق التاريخى لشعر بشر عند عديد من مقدمات النسيب رأيناها تقف موازية لموضوع القصيدة ، رامزة اليه بطريق أو اخرى ، وقد وقفنا وقفات تحليلية عند مقدمات قصائده :

.. ألليلى على شَحْطِ المزار تَذَكُّرُ ... ومن دون ليلى ذو بِحَار ومَنْوَرُ

التى قالها منددا بفعل بنى عامر بابن ضباء .

.. عفا رسْمٌ برامَةَ فالتِّلاعِ ... فكثبانُ الحفير إلى لقاعِ

وهى فخر بالنسار .

.. أحقٌّ ما رأيتُ أم احتلامُ ... أم الاهوالُ إذ صبحى نِيامُ

وفيها يحذر من الجفار .

كل مقدمات النسيب فى قصائده التى هجا بها أوس بن حارثه .

.. بان الخليطُ ولم يُوفوا بما عَهِدُوا ... وزوّدوك اشتياقا أيّةً عَمَدُوا

وفى كل مقدمات هذه القصائد رأينا أن موقف بشر من المحبوبة كان موازيا لموقفه من موضوع قصيدته .

وقد استوقفنا ايضا فى السياق لون آخر من المقدمات لا نستطيع أن نقول : إنه مواز للموضوع ، ولكنا أحسسنا أنه ينطلق من نفس الجو النفسى الذى ينطلق منه الموضوع فرحا كان أم حزنا أو رهبة بحيث نستطيع أن نقول : إن هذا اللون من المقدمات يواكب الموضوع الأساسى ، وقد وقفنا وقفات تحليلية عند مقدمتى القصيدتين :

.. ألا بانَ الخليطُ ولم يُــزَارُوا   وقلبُكَ فى الظَّعائــنِ مُسْتطَــارُ
.. عفت من سُلَيْمى رامةٌ فكثيبُهـا   وشطَّت بها منك النَّوى وشُعوبُهـا

ويمكن أن نضيف إلى هاتين القصيدتين رائية بشر التى قالها مشيدا بانتصار ابن المضلل على بنى دارم فى يوم كير وكان ذلك فى أعقاب الجفار :

عفت أطــلالُ ميَّــةَ بالجفيــر   فهضبُ الواديــن فبــرقُ إيــر .

ولم يشر بشر إلى علاقته بمية ، ولم يلم بشىء من أوصافها ، وإنما اكتفى بالوقوف متأسيا على ديارها ، ناظرا ما فعلته بها الرياح .

تلاعبت الرياحُ الهُــوجُ منهــا   بذى حُرُضٍ معالِــمَ للبصيــر
وجــر الرامســاتُ بهــا ذيــولا   كأن شَمــالها بعــد الدَّبــور
رمــادٌ بين أظْــآرٍ ثــلاثٍ   كما وُشِمَ الرواهــشُ بالنــؤُورِ

فإذا خلصنا الى موضوع القصيدة ، رأينا بشرا منتشيا بالنصر ولكن نشوته نشوة أسيانه إذا صبح لنا التعبير ، وكأنه يتأسى على ما آل اليه الأمر مع بنى تميم :

فقــد تركَ الاسنّــةُ كــلَّ ود   سحاباتٍ ذهبــن مــع الدبــور
لما قطعــن من قُربــى قريــبٍ   ومــا أتلفــن مــن يَسَر سرور

ولا نقول : إن مية رمزٌ لبنى تميم ، ولكن غاية ما نقوله : إن المقدمة والموضوع ينطلقان من إحساس واحد .

وهناك نوع ثالث من مقدمات قصائد بشر يرتبط بالموضوع ارتباطا مكانيا ، إذ نرى بشرا يحوم حول مسرح الموضوع ومجاله ، ونمثل لذلك بمقدمتي القصيدتين اللتين في أيام الجفار ، فنراه يفتتح إحداهما بقوله :

لمن الديارُ غشيتها بالأنعُمِ ... تبدو معالمُها كلونِ الأرقمِ

ويفتتح الثانية بقوله :

غشيت لليلى بشرقٍ مقاما ... فهاج لك الرسمُ منها سَقَامَا
سقْطِ الكثيب إلى عسْعَسٍ ... تخالُ منازلَ ليلى وشاما

وما الأنعم وعسعس والكثيب إلا اماكن فى حمى ضرية باعث معارك النسار والجفار وهدفها ، وقد سبق أن عرفنا أن هاتين القصيدتين تتحدثان عن النسار والجفار وكأن بشرا إذ يقف على آثار المحبوبة ليلى أو غيرها إنما يقف على آثار المعارك وفى ميدانها ، ولنا بعد ذلك أن نعيد النظر فى قوله فى القصيدة الأولى :

سمعت بنا قيلَ الوشاةِ فأصبحت ... صرمت حبالك فى الخليطِ الاشأم

وفى قوله فى الثانية :

ذكرتُ بها الحيَّ إذ هم بها ... فأسْبَلَت العينُ منى سِجَامَا

ويخيل إلينا أن بشرا هنا لا يتأسى على تجربة سمعت قيل الوشاة ، أو على حبها الذى كان ، وإنما يتأسى على ما أصاب قوة الأحاليف من تصدع .

نخلص من كل ذلك إلى نتيجة هى ان مقدمات النسيب فى قصائد بشر كانت ذات صلة بالموضوعات الأساس فى هذه القصائد ولا نريد أن نغالى فنقول انها كانت ضربا من الرمز ، ولكنا نقول : انها على الأقل كانت تهيىء للموضوع ، وتوحى بجوه النفسى .

نصل بعد ذلك الى ما يستطرد اليه بشر من وصف الثور الوحشى أو الحمار وأتنه أو النعام فى معرض حديثه عن ناقته فنرى أن ما استطرد إليه من ذاك كان

يأتلف مع مقدمة النسيب فى الإيحاء بمضمون القصيدة ائتلافا يستوقف النظر ، وقد وقفنا فى عرض السياق التاريخى وقفات تحليلية عند بعض هذه الاستطرادات .

وصحيح أن هناك أطرا معهودة وخطوطا ثابتة لهذه الاستطرادات إلا أن الملفت للنظر أن بشرا كان يتصرف داخل هذه الأطر متلاعبا بخطوطها بما يتفق وروح موضوعه .

فنراه حينا يهمل بعض هذه الخطوط ، ويقف بالصورة عند حد معين . ففى قصيدته البائية فى مدح عمرو بن ام اياس « أطلال مية بالتلاع فمثقب » رأيناه يقف بالحمار وأتنه دون الوصول إلى الماء ، وقد أشرنا الى أن ذلك إيحاء بعدم ثقة بشر فى نجاح رحلته .

وفى قصيدته عن ابن ضباء « أليلى على شحط المزار تذكر » وجدناه يقف فى صورة الثور عند ظهور الصياد وكلابه ، وقد أشرنا إلى أن ذلك يتوازى مع واقع قومه وبنى عامر حيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بنهاية الصراع .

وفى قصيدته الميمية « غشيت لليلى بشرق مقاما » نجده يقف عند الكدام بين الحمار وأتنه .

كأن قُتُودى على أحقبٍ يريد نحوصا تؤم السلاما
شَتيمٍ تربَّع فى عانةٍ حيالٍ يكادمُ فيها كِدَامَا

ولعله بذلك يبرز واقع قومه الذين كتب عليهم هذا الصراع المستمر ولعل مما يقوى ذلك أن يردف مباشرة بقوله :

فسائلْ بقومى غداة الوغى إذاما العذارَى جلسْنَ الخداما

فماذا أذكر الشاعر بقومه من مشهد هذا الحمار وأتنه ؟

ونراه أحيانا يركز على بعض خطوط الصورة بينما يمر على الخطوط الأخرى مرورا خاطفا فنراه فى قصيدته الدالية التى مدح بها بنى بدر يركز على خطين من خطوط

الصورة هما الليلة الباردة . وكلاب الصياد التى فاجأت الثور فيقول :

طاوٍ برملــــةِ أورالٍ تضيَّفــــه	إلى الكنــاسِ عشىٌّ باردٌ صَـــرِدُ
فبـات فى حقـف أرطـاةٍ يلـوذُ بهـا	كأنــه فى ذَارهــا كوكبٌ يقـــد
يجرى الـرذاذُ عليـه وهـو مُنكــرِسٌ	كما استكان لشكـوى عينه الرَّمِـدُ
باتت له العقـربُ الأولى بنثرتِهــا	وبلَّـه من طلـوع الجبهةِ الأسـدُ
ففاجأتـــه ولم يرهب فجاءتِهــا	غضفٌ نواحلُ فى أعناقها قِـدَدُ
معروقةُ الهام ، فى أشداقها سَعَةُ	وللمرافــقِ فيها بينهـا بَــدَدُ
فأزعجتْه ، فأُجلَـى ثم كرَّ لهــا	حامى الحقيقة يحمى لحمَـه نَجِـدُ
فمارستـه قليـلا ، ثم غادرهـــا	مجرَّبُ الطعـن فتَّالٌ لهـا جَسَـدُ

أرأيت كيف ركز على ما جرى على الثور فى ليلته من وصفه وهو منكرس يجرى عليه الرذاذ وتصيبه أنواء العقرب الاولى والجبهة . ثم أرأيت كيف انتقل بعد ذلك انتقالا خاطفا إلى بروز كلاب الصياد ، فلم يحدثنا عن نصول الثور من ليلته . وحبات البرد المتلألئة على جسده ثم توجسه لما يسمع من نبأة الكلاب المتربصة هى وصاحبها ، واكتفى بالتعبير عن كل ذلك بقوله « ففاجأته ولم يرهب فجاءتها »؟ ولكنه يأخذ بعد ذلك فى تفصيل القول فى أوصاف الكلاب فهى غضف ، نواحل ، فى أعناقها القدد ، وهى دقيقة الرءوس ، واسعة الأشداق ، بين أيديها تباعد .

حتى اذا وصل الى مشهد الصيد رأيناه يوجز القول مرة أخرى ، ويكتفى بالأفعال المتعاطفة التى تعرض الحدث فى سرعة خاطفة ، فأزعجته ، فاجلى ، ثم كر فمارسته قليلا ، ثم غادرها ... وتنتهى الصورة .

ولعل تفسير تركيز بشر على ماركز عليه من صورة الثور فى هذه القصيدة لا يحتاج الى جهد فكرى إذا ادركنا انه كان مطاردا من أوس ترصده العيون من كل جانب ، وتلوح له بين حين وآخر صورة هذه الأوجه التى تطارده ، وتتحين الفرصة لاقتناصه .

وقد يقال كان من الأنسب إذن أن يقف بالصورة عند هذا الحد ، ولا يمضى إلى تمامها فيظهر انتصار الثور ، فمن ادراه بالنجاة ؟ وهذا قول وجيه ولكننا نلفت أن أمل بشر فى بنى بدر كان يمثل له النجاة ، ويقوى ثقته بها .

نخلص من ذلك كله إلى أنه كان ثمة رباط يؤلف بين أجزاء القصيدة عند بشر قل : إنه كان عرضا للموضوع بمستويات متنوعة من الإيحاء والتصريح ، قل : إنه كان موقفا نفسيا موحدا تنبثق عنه كل هذه الأجزاء . قل : إنه كان عزفا للحن الواحد على أوتار متباينة النغم . قل ما تشاء فلا نظنك فى النهاية ترى أن القصيدة عند بشر كانت متنافرة الأجزاء أو أن البدء فيها ليست له صلة بالختام .

بنـاء الصـورة

ــ ١ ــ

ربما كان من الأنسب ــ فى البداية ــ أن نتعرف على مادة الصوره عند بشر . ونحن نعلم سلفا أن بشرا ــ كغيره من الشعراء الجاهليين ــ أخذ مادة صوره من البيئة المحيطة به : سمائها ، وأرضها ، ونباتها ، وإنسانها ، ووحشها ، وطيورها ، ونعلم كذلك أن الصورة فى الشعر الجاهلى ربما تبدو نمطية إلى حد بعيد لأن مادة الشعراء فى التصوير واحدة ، والنبع الذى يغترفون منه واحد .

ولكن تبقى لكل شاعر بعد ذلك ذاتيته فيما يأخذ وفيما يدع ، وفيما يكثر استخدامه من مادة التصوير فشاعر مثل الأعشى مثلا أخذ كثيرا من مادة تصويره من الملابس والمعادن واللآلىء ، وكذلك امرؤ القيس ، بينما قلت هذه المادة قلة واضحة فى شعر طرفة ، وفى شعر أوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص . وشاعر مثل قيس بن الخطيم قلت فى شعره صور الإبل ، وانعدمت أو تكاد الحمر والأبقار الوحشية بينما كثرت هذهَ المادة عند عديد من الشعراء الجاهليين .

وهذا يرجع فيما نعتقد إلى شخصية كل شاعر ونمط الحياة التى عاشها ، والتجارب التى مرت به .

واللافت للنظر فى شعر بشر أن القدر الاكبر من مادته الشعرية أخذ من النبات والأشجار وما يتصل بها من الرى ونتح المياه من الآبار ، فمن النخيل مثلا استمد عديدا من الصور فشبه تمايل الظعن بتمايلها . ومن بسر النخيل استمد صورته فى القتيل يقتل غدرا[١] ومن نوى التمر اليابس استمد صورته فى بيان صلابة كعوب الرمح[٢] . وتبقى بعد ذلك إشارته اللافته إلى واحات نخيل بعينها ، فقد كرر « نخيل محلم » مرتين :

(١) الديوان ص ١٥. (٢) الديوان ص ٨٧.

ـ كأنَّ حُمُولَهم لما استقلُّوا نخيلُ مُحَلِّمٍ فيها الخناءُ[1]
ـ كأن حُدُوجَهم لما استقلوا نخيلُ مُحَلِّمٍ فيها ينوعُ[2]

وقد ورد ذكر جنة يثرب أيضا :

والمانح المائةَ الهجانَ بأسرها تُزجى مطافلها كجنَّة يثربِ[3]

والمعروف أن يثرب تميزت بكثرة نخيلها .

وإذا تركنا النخيل الى غيرها طالعتنا وفرة من أسماء الأشجار والنبات فمن شجر الألاء اتخذ صورته فى حسن المظهر وسوء المخبر إذ هو شجر ذوورق مر لا يؤكل .

فانكم ومدحتكم بُجَيْراً أبا لَجَأٍ كما امتُدِحَ الألآءُ
يراه الناس أخضر من بعيدٍ وتمنعُه المرارة والإباءُ[4]

ومن ثمار البرير استمد صورته فى وصف شعر المحبوبة :

رأى درة بيضاء يحفِلُ لونَها سُخامٌ كغِرْبانِ البَرِيرِ مقصب[5]

ومن زهور شجر الراء البيضاء استمد صورته فى وصف الدسم المتجمد على لحى رفاقه :

ترى وَدَكَ السَّدِيفِ على لِحاهم كلون الرَّاءِ لبَّده الصقيعُ[6]

ومن الأقاحى أخذ صورته فى فم المحبوبة :

ـ ليالى تستبيك بذى غُروبٍ يُشَبَّهُ ظَلْمُه خَضِلَ الأقاحى[7]
ـ يفلِّجن الشفاه عن اقحُوَانٍ جلاه غبُّ سارية قطار[8]

(1) الديوان ص ٢
(2) الديوان ص ١٣٠
(3) الديوان ص ٣٩
(4) الديوان ص ٣ ، ٤
(5) الديوان ص ٧
(6) الديوان ص ١٣٤
(7) الديوان ص ٤٣
(8) الديوان ص ٦٣

ونون صور ما يعرضه من ظباء بذكر الضال ، والعبرى ، والسدر ، والسلم ، والأراك ، والحلب:

ــ وفى الأظعانِ أبْكــارٌ وعُــونٌ　　كعِينِ السِّدر أوجهها وِضــاءُ[1]
ــ خذولٌ من البيضِ الخدودِ دنــالها　　أراكٌ بروضات الخُزَامى وحلّــبُ[2]
ــ من البيض الخدود بذى سُـدَيْرٍ　　يَنُشْنَ الغصن من ضَالٍ قِضَــافِ
أو الأُدْمِ الموشَّحــةِ العواطــى　　بأيديهن من سَلَــمِ النِّعــافِ[3]
ــ تَعرُّضَ جأبةِ المدرى خــذولِ　　بصاحــةَ فى اسرتها السَّــلامُ[4]
أو البيض الخدود بذى سدير　　اطــاع لهن عُبْــرِىٌّ وضَــالُ[5]

ويلون صورته فى وصف الأرض الخصيبة بذكر النفل والحوذان والعلجان :

وغيــث أحجــم الــروَّادُ عنـــه　　به نَفَــلٌ وحَــوْذَانٌ تُــؤَام
تغــالى نبتــه واعتـــمَّ حتـــى　　كأن منابت العَلَجَــانِ شــامُ[6]

أما « الطلع » فقد استمد من قطعه بالمعاول صورة ما يحدث برؤوس الأعداء :

تولَّوْا عليهم يضربــون رؤوسَهـــم　　كما تعضدُ الطَّلْحَ الوريقَ المعــاولُ[7]

ومن السلع والقار استمد صورته فى سخريته ببنى عامر حين ادعوا حقا لهم فى ذات كهف :

يسومــون الصَّلاحَ بــذات كَهْــفٍ　　ومــا لهم بها سَلْــعٌ وقَــارُ[8]

ومما يتعلق بالنبات والاشجار الماء وآباره وغروبه ورشاؤه ، وقد استمد بشر منها جملة من الصور ، فالجيش الهاجم فى عمق ديار بنى عامر كالرشاء الممدود ليصل إلى قاع بئر سحيق :

---

(١) الديوان ص ٢
(٢) الديوان ص ٨
(٣) الديوان ص ١٤٣
(٤) الديوان ص ٢٠٣
(٥) الديوان ص ١٦٧
(٦) الديوان ص ٢٠٨
(٧) الديوان ص ١٧٦
(٨) الديوان ص ٦٩

جعلن قُشَيْراً غَايَةً يُهتَدى بها　　　كما مد أشْطَانَ الدِّلاءِ قَلِيبُها[1]

والرماح التى شجر بها بنو كلاب متصلة كأشطان القليب :

وحى بنى كلابٍ قد شَجَرْنا　　　بأرماحٍ كأشطان القَلِيبِ[2]

وغدر بنى لأم وخذلانهم لجيرانهم كقطع الرشاء عن الذنوب :

إذا عقدوا لجار أخفروه　　　كما غر الرشاءُ من الذَّنُوبِ

على أن ما يلفتنا هو تلك الصورة المفصلة المأخوذة من السانية(*) .

ألم يأتها أن الدموعَ نِطافةٌ　　　لعين يوافى فى المنام حبيبُها
تحدّر ماء البئر عن جُرشِيَّةٍ　　　على جرْبَةٍ تعلو الدِّبَار غُروبُها
بغرب ومربوع وعوْد تقيمه　　　محالة خطافٍ تصرُّ ثقوبُها[3]

ومرة أخرى يعود إلى « السانية » أيضا فى وصف غزارة دمعه ، ولكن على شيء من الإجمال :

ودمعى يوم ذلك غرب شَنٌّ　　　بجانب شَهْمَةٍ ما تستريحُ[4]

وربما نتساءل بعد ذلك عن سر إكثار بشر فى تصويره من استخدام هذه المادة النباتية ـــ ان صح التعبير ـــ ولكن ينبغى ألا يغيب عن اذهاننا أن بنى أسد الذين منهم بشر كانوا يعيشون فى منطقة القصيم وهى من أخصب المناطق فى شبه الجزيرة ، وكانت منازلهم من هذه المنطقة تتركز على ضفتى وادى الرمة ، وأظن بعد ذلك أنه لا مجال للتساؤل ، فطبيعى أن يأخذ بشر مادته من النبات ، وطبيعى أن يلفته النبات ولو كان فى غير دياره فيذكر نخيل محلم وهو باليمامة ، ويذكر جنة يثرب .

---

(١) الديوان ص ١٧　　　(٢) الديوان ص ٢٣
(٣) الديوان ص ١٤　　　(٤) الديوان ص ٤٩

* السانية هى الساقية وتستخدم الإبل فيها لإخراج الماء من الآبار ورفعه ومازالت موجودة بصورتها التى رسمها بشر فى منطقة القصيم ، وربما فى مناطق أخرى من الجزيرة العربية .

وأخذ بشر أيضا مادة كبيرة لصورته من الابل فقومه يعطفون على عدوهم « عطف الضروس »[1] ، والفرسان ينهضون الى الحرب كما تنهض البزل فى العطن[2] وأوس فى تهديداته له مثل « رغاء البكر »[3] ، وهو فيما يكنه له من كره « كذات الضغن تمشى فى الرفاق »[4] وعندما صفا لاوس فيما بعد وصفه بأنه « له عطن عند التفاضل واسع »[5] ومن الإبل أيضا اخذ صورة السفر الخائفين على السفينة تتقلب بها الأمواج فهم يغضون الطرف « كالابل القماح »[6] وبشر فى كل ذلك شأنه شأن شعراء عصره ، ولو أننا نلحظ أن حظ الشعراء الجاهليين يتفاوت من هذه المادة بين أهل الوبر وأهل الحضر اذ كثرت الصور المستقاة من هذه المادة عند اهل الوبر وقلت عند اهل الحضر ، فشاعر حضرى مثل قيس بن الخطيم لا نجد فى ديوانه البالغ مائتين وتسعة وتسعين بيتا سوى خمس صور مأخوذة من مادة « الإبل » . وقد المحنا آنفا الى شيء من ذلك .

لا عجب ـــ إذن ـــ أن تكثر الصور المستقاة من هذه المادة فى شعر بشر فهو شاعر بدوى ، ولا عجب أيضا أن تكثر الصور المأخوذة عن الحياة البرية بطيورها وجوارحها وسباعها ووحوشها وظبائها وغزلانها ، فمن الظباء والغزلان أخذ مادة صورته فى المرأة ، ومن البقر الوحشى والثيران أخذ مادته فى وصف ناقته ، ومن الضباع أخذ مادة صورته فى بيان ما يحل بقتلى أعدائه ، ومن الأسد اخذ مادته فى وصف الشجاعة ، ومن زئيره أخذ مادته فى وصف زفرات الخيل ، وهو بين هذا وذاك يشير الى أماكن عرفت بنوع ما من هذه الحيوانات فنراه يذكر « ظباء أسبمة » و « وحش خبة » و « ثيران حربة » ، وهى أماكن من البيئة التى عاش فيها .

وتستوقفنا من صور الحيوان فى شعر بشر صور تدل على دقة ملاحظته

(١) الديوان ص ١٥ — (٢) الديوان ص ٤٥

(٣) الديوان ص ٩٧ — (٤) الديوان ص ١٦٣

(٥) الديوان ص ١١٧

(٦) الديوان ص ٤٨ ، والإبل القماح هى التى تعاف الماء ، ويكون ذلك عادة فى فصل الشتاء ، وعند اشتداد البرد . انظر الأزمنة والأمكنة لأبى على المرزوقى ط حيدر آباد جـ ١ ص ١٧٥ .

للأشياء منها ما وصف به « سليما » وقد سكنت من شدة الخوف كأنها حمار ضامز .

وقد ضَمَزَت بجرَّتِهَا سُلَيْمٌ　　مخافتنا كما ضَمَزَ الحمار[1]

ومنها صورة الكلاب تنقل جراءها :

نقلناهم نقلَ الكلابِ جِراءَها　　على كل مَعْلُوبٍ يثور عُكَرُبُها[2]

ومنها صورته العجيبة التي عبر فيها عن السراب بأبوال البغال :

وقد جاوزن من غمدان أرضاً　　لأبوال البغال بها وقيع[3]

أما أن أبوال البغال تعبير عن السراب فذاك لأن البغال لا تتناسل فبولها لا فائدة له إذ كانت العرب تكنى عن كثرة النسل بكثرة البول فيقال رجل كثير البول إذا كان كثير النسل[4] وأما أن أبوال البغال هذه تنبت الوقيع وهو العشب الأخضر فهذه هي المخايلة بعينها .

ومثل هذه الصور الدقيقة لا نظن أنها تتاح لشاعر حضرى . على أن ما يستوقفنا أيضاً غزارة تلك المادة التى أخذها من طيور الصحراء البرية وبخاصة القطا والعقاب ، فمن القطا أخذ مادة صورته فى وصف هجوم بنى أسد وأحلافها على تميم :

هم وردوا المياه على تميم　　كورد قطاً نأت عنه الحساءُ[5]

ووصف الخيل فى الحرب بأنها (قطا شركٍ يشب من النواحى) وشبه رأسه الصلعاء بأفحوص القطاة (رأتنى كأفحوص القطاة ذؤابتى)[6] ، ووصف مواضع ثفنات الناقة بمعرس أربع من القطا متقابلات[7] .

---

(1) الديوان ص ٣٤
(2) الديوان ص ١٧
(3) الديوان ص ١٣٢
(4) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى جـ ١ حيدر آباد جـ ٢ ص ٢٤١
(5) الديوان ص ٤
(6) الديوان ص ٥٠
(7) الديوان ص ١٤٦

أما العقاب فقد أخذ منها مادته فى وصف سرعة فرسه ، وفى وصف فرسان قومه ، وفى وصف الأتان وهى تشج بالعير الفلاة [1] ، وصور نفسه فى ضيق الأسر بمن حلقت به فتخاء الجناح قبوض[2] .

ومما يتصل بهذه الحياة البرية خبرة بشر بالكواكب والأنواء والرياح ، ونرى فى شعره صورا دقيقة مادتها من هذه الخبرة ، فمن الرياح استمد تصويره للجيش الهاجم إذ شبهه بنشاص الثريا هيجته ريح الجنوب :

فلما رأونا بالنسار كأننا — نشاصُ الثريا هيَّجتْهُ جَنُوبُها

ويقصد بنشاص الثريا نوءها ، وما يرتفع به من السحاب ، ويكون هذا النوء فى الخريف مصاحبا لهبوب ريح الجنوب ، وكان العرب يعتقدون أن ريح الجنوب هى التى تلقح السحاب بالمطر[3] ، ومن ريح الدبور وفعلها بالسحاب أخذ مادة صورته فى وصف ما فعلته الحرب بعلاقات الود :

فقد ترك الأسنةُ كلَّ ودٍّ — سحاباتٍ ذهبن مع الدَّبور

والدبور ريح غربيه قليلة الهبوب ولكنها حينما تهب تكون عاصفة تأخذ ما أمامها[4] ، ومن هنا جاءت دقة الصورة وتلاؤم أجزائها ومن الخبرة بالنجوم ومواقعها وحركتها أخذ هذه الصورة :

فبت مسهَّداً أرقاً كأنى — تمشت فى مفاصلى العُقارُ

أراقب فى السماء بناتِ نَعْشٍ — وقد دارت كما عطف الصُّوارُ

وعاندت الثريَّا بعد هدْءٍ — معاندةً لها العيُّوقُ جارُ

ودقة الصورة تتضح حينما نعلم أن بنات نعش لا تنقلب دائرة إلى القطب الشمالى إلا فى آخر الليل ، ومعاندة الثريا هى انجذابها أيضا نحو القطب فتصبح فى مرأى العين كأنها جانحة إلى « العيّوق » وكأنها تأبى الغروب . وهذه هى المعاندة[5] .

---

(١) الديوان ص ٣٦ — (٢) الديوان ص ١٠٧

(٣) انظر الأزمنة والأمكنة جـ ٢ ص ٣٤٢

(٤) نفسه جـ ٢ ص ٨٣ — (٥) نفسه جـ ١ ص ١٨٩، جـ ٢ ص ٢١٣، ٣٧٢

ومن الأنواء استمد بشر عديدا من صوره مما وصفه لما أصاب ديار سلمى بعد رحيلها :

وما تذكر من سلمى وقد شحطت   فى رسم دار ونؤى غير مغْتَرِفِ
جادت له الدلو والشُّعرى ونوؤُهما   بكل أسحمَ دانى الوَدْقِ مرتجِفِ

والمطر الذى يصفه بشر هنا هو « الوسمى » الذى يصيب بعض منه دياره فى الخريف ، ومن أنواء الوسمى هذا العرقوتان المؤخرتان من الدلو[1] ، وتكون « الشعرى » إذ ذاك فى إبان طلوعها ، وإذ عرفنا ذلك كان علينا أن ندرك أن رحلة سلمى كانت رحلة التبدى إلى المرابع الجنوبية التى تكون أكثر حظا من « الوسمى »[2] ، أما المطر الشتىء الذى كان يصيب ديار بشر فى قلب الشتاء فقد استمد منه بشر صورته فى وصف الثور الوحشى يلوذ بالأرطاة فى ليلة باردة ممطرة .

يجرى الرذاذُ عليه وهو منكرس   كما استكان لشكوى عينه الرَّمِدُ
باتت له العقربُ الأولى بنَثْرتها   وبله من طلوع الجبهةِ الأسد

والنثرة هى نثرة الأسد ونوؤها يكون فى آخر يناير ، وطلوع الجبهة يقصد به نوء الجبهة لأن طلوع هنا بمعنى غياب وهى من أسماء الأضداد ، ونوء الجبهة يكون فى النصف الأول من فبراير ، وقد يتقدم بعض الشىء فيلحق بالنثرة ، والنثرة والجبهة من أكثر الأنواء أمطارا[3] .

ويقصد بالليلة الرجبية إحدى ليالى رجب ، وكان يقع — بما كان يستخدمه العرب من الكبس والنسىء — فى آخر الشتاء ، ومن يقرأ هذا البيت يدرك أن الشاعر مضرى لأن رجب مضر كان شتويا ، أما رجب ربيعة فكان يتأخر لأنهم كانوا يقدمون عليه شعبان[4] .

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة جـ ١ ص ١٩٨
(٢) انظر كتاب تقويم العرب فى الجاهلية ، د. عبد المحسن الحسينى ـ جامعة الاسكندرية ص ١١ ، وانظر ما ورد فيه عن الظعن والإقامة ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .
(٣) انظر تقويم العرب فى الجاهلية ص ٢٨ ، وانظر الأزمنة والأمكنة جـ ٢ ص ٣٢٧
(٤) نفسه ص ٤٤ ، ٤٧ وما بعدها

وصفوة القول أن مادة الصورة عند بشر مادة برية ، ونتيجة لذلك قلت في شعره الصور المأخوذة من مادة الحضر ، قلت مثلا الصور المأخوذة من اللآلىء فأخذ صورتين فقط من الدر ، وصورتين من سوار العاج (وقف العاج) وصورة من الجمان ، أما الثياب فقد أخذ منها ثلاث صور ، واحدة من النصع الحميرى :

فجـال كأن نِصْعـاً جِمْيَرِيّـا　　إذا كَفَـرَ الغُبـارُ به يلـوحُ[1]

وواحدة من الخمار :

يظل يعـارضُ الركبـان يهفُـو　　كأن بيـاض غرتـه خِمـارُ[2]

وثالثة من القرطف :

أكَّـالُ تُنُـومِ النقـاع كأنـه　　حبشيٌّ حازقـةٍ عليـه القَرْطَـفُ[3]

أما الطيوب فقد وردت صورة واحدة من الزعفران فيما وصف به نساء العدو من أنها « مضرجة بالزعفران جيوبها »[4] .

وأما الاطعمة فكانت المادة فيها بدوية خالصة ، فنرى مثلا صورة دقيقة أخذت من سلى الزبد :

فكانوا كذاتِ القِـدْرِ لم تدر إذْ غَلَتْ
أتنزلُهـا مذمومـةً أم تذيبهـا[5]

ونرى أخرى يشكل اللبن مادتها الأساسية :

غذاهـا قارصٌ يَجرِىَ عليهـا　　ومحضٌ حين تنبعِثُ العِشـارُ[6]

ونرى ثالثة تظهر فيها الملال وما تطحره من حب :

تَجـرُّ نعالُهـا ولهـا نَفِـىٌّ　　نَفِىَ الحب تَطْحَـرُه المُـلَالُ[7]

(١) الديوان ص ٥١
(٢) الديوان ص ٧٧
(٣) الديوان ص ١٥٤
(٤) الديوان ص ١٩
(٥) الديوان ص ١٦
(٦) الديوان ص ٦٤
(٧) الديوان ص ١٦٨

علّى أن ثمة جوانب اخرى استقى منها بشر صوره وإن كان ذلك بقدر ضئيل منها مثلا الحياة الدينية ، ومنها التجارة وما كان يعرض فى بيئته من تجار من جنسيات مختلفة ، ومنها أسفاره ورحلاته وقد ألمحنا إلى انه كان ذا صلة بالتجارة ، ومنها أخيرا بعض الحرف البدائية التى كانت تنتشر فى بيئته . فمما كان ينتشر فى بيوت العبادة من تماثيل ودمى أخذ بشر بعض مادته فى وصف جمال النساء « البيض الكواعب كالدمى » وأشار بالذات الى دمى صنعاء :

كأن على الحُـــدُوجِ مُخَـــدَّرَاتٍ دمى صنعاءَ خُـطَّ لهـا مثـال[1]

ولا يخفى أن اليمن ــ اذ ذاك ــ كانت مركزا من مراكز الوثنية وكانت تعبد ثالوثا من الشمس والقمر والزهره ، وكانت تمثل الشمس فى صورة امرأة فاتنة عارية .

كذلك اخذ بشر بعض مادته مما كان ينشره اليهود من قصص أنبيائهم ، وقد مرت بنا الصورة المأخوذة من يوسف عليه السلام واخوته .

كذلك أخذ بشر بعض مادته مما كان يشيع فى بيئته من الارتفاع بأضرحة الموتى وتعظيمها . فقد شبه سنام ناقته بالضريح المرتفع :

سناماً يرفـع الأحْـــلاس عنـــه إلى سنـد كما رُفِـدَ الضَّرِيـــحُ[2]

وأشار الى تعظيم بنى لأم لقبر حارثة بن لأم وحلفهم به :

جعلتـم قبـرَ حارثـــةُ بـــن لأمٍ إلاهـا تحلفـــون بـــه فجـــورا[3]

وبالنسبة للتجارة والتجار فقد اخذ بشر مادة صورته فى وصف الثيران من برانس الدهاقين الأنباط :

تَمشّى بها الثيرانُ تُرْدِى كأنهـــا دهاقينُ أنبـاطٍ عليهـا الصوامـعُ[4]

(١) الديوان ص ١٦٧
(٢) الديوان ص ٥٠
(٣) الديوان ص ٩١
(٤) الديوان ص ١١٣

وبما كان يعلقه تجار الخمر من الزقاق المطوية أخذ صورته فى وصف بعض أعضاء فرسه :

وخنذيذٍ تـرى الغرمُـولَ منـه   كطىِّ الزِّق علّقـه التّجـارُ[١]

أما اسفاره فقد اخذ منها صورة السفن المتكفئة فى الخليج :

فكأن ظعنهم غـداة تحملـوا   سفنٌ تَكَفَّأُ فى خليـج مغـرب[٢]

وتبقى بعد ذلك صورته الواسعة اللافته فى وصف السفينة[٣] فى قصيدته الحائية ، وقد عرضنا لها فى حديثنا عن حياة بشر .

اخذ بشر بعض مادته كذلك من بعض الحرف البدائية المنتشرة فى بيئته من مثل الحدادة وعصر الزيت والوشم ، فشبه حفيف منخر الفرس بالكير المستعار[٤] ، وبين لبنى عامر ان ما فعلوه بابن ضباء سيبقى مادام الزيت يعصر[٥] ، وشبه الرماد المتخلف من أثافى الراحلين بوشم الرواهش بالنوءور[٦] .

وعلى ذكر الوشم تأتى الكتابة وقد أخذ منها بشر صورتين فى وصف الأطلال فشبه الديار بالصحف[٧] وبالألواح عليها الزخرف[٨] .

هذه هى مادة الصورة فى شعر بشر يرى القارىء فيها ما تميز فيه بشر من غيره من الشعراء ، وما اشترك فيه مع غيره ، ويرى ما استهوى بشرا من مادة البيئة فاغترف منه ، وما عزف عنه وأعرض وهذا ــ فى نظرنا ــ امر جوهرى فى التعرف على فن الشاعر .

---

(١) الديوان ص ٧٦
(٢) الديوان ص ٣٥
(٣) الديوان ص ٤٧ ، ٤٨
(٤) الديوان ص ٧٨
(٥) الديوان ص ٨٩
(٦) الديوان ص ٩٥
(٧) الديوان ص ١٣٧
(٨) الديوان ص ١٥٢

— ٢ —

وبشر — بعد — له سمته فى بناء صورته فهو لا يميل الى الاستقصاء ، ولا يشغل نفسه بتتبع الجزئيات والدقائق إنما هو فى تكوين صورته يلقى الضوء على بعض الخطوط ، ويركز على بعض الجوانب بما ينبه القارىء إلى مغزى الصورة ومقصدها فنرى مثلا المحبوبة يبرز منها وجهها ، أو صدرها ، أو قلادتها التى تزين جيدها بينما تغيم بقية الملامح ففى القصيدة البائية « تعناك نصب من أميمة منصب » مثلا لا يكاد يظهر من أميمة إلا الوجه الأبيض محاطا بالشعر الفاحم :

رأى درَّةً بيضاءَ يحفـــلُ لونَهـــا   سخامٌ كغِربـانِ البَرِيـرِ مقصـب

وفى قصيدته « تغيرت المنازل من سليمى » لا نرى من المحبوبة غير الخصر والفم :

ديـارٌ قـد تَحُـلُّ بهـا سُلَيْمـى   هضيمَ الكشـح جائلـةَ الوشـاحِ
ليـالى تستبيك بـذى غُـرُوبٍ   يُشَبَّهُ ظَلْمُـهُ خضـلَ الأقـاحـى
كأن نطَافـةً شيـبت بمسـك   هدوءا فـى ثناياهـا بـراح

وفى قصيدته الرائية « ألا بان الخليط ولم يزاروا » نرى المحبوبة من غير زاوية ، ولكننا لا نراها من أى من هذه الزوايا تامة الملامح ، ففى زاوية يكتفى الشاعر بوصفها بأنها « آنسة لعوب » :

وفـى الأظعـان آنسـةٌ لعـوب   تيمم أهلُهـا بلـداً فسـاروا

وربما تساءل القارىء عن المبررات التى بنى عليها الشاعر وصفه ، وكيف هى آنسه ؟ وكيف هى لعوب ؟ ولكن الشاعر يترك للقارىء أن يتخيل ذلك ويستكمله على هدى من هاتين الكلمتين .

ومن زاوية اخرى نطل على المحبوبة فنرى ما يدل على النعمة والتدليل :

من البلاتى غُذِين بغير بؤس ... منازلُها القُصَيْبَةُ فالأُوارُ

غذاها قارصٌ يجرى عليها ... ومحضٌ حين تنبعث العشارُ

ولكن ألا ترى ان الشاعر يكتفى فى إظهار النعمة باللبن يجرى على المحبوبة قارصة ومحضة ؟

ومن زاوية ثالثة نلم ببعض ملامح من المحبوبة مثل امتلاء الساقين ودقة الخصر وثقل الأرداف :

نبيلةُ موضع الحجليْن خَوْدٌ ... وفى الكشحينْ والبطنِ اضطمارُ

ثَقَالٌ كلما رامت قياما ... وفيها حين تنبعثُ انبهارُ

ولعلنا لاحظنا أن الصورة من أية زاوية من الزوايا لم تقم على تتبع الجزئيات ومراكمة الدقائق وإنما قامت على الكلمة الموحية والإشارة المجزئة ،واللقطة المغنية عن غيرها من اللقطات .

وفى مواقف أخرى لا يُظهر بشر أى ملمح لمحبوبته وإنما يترك لنا أن نتصور ذلك من خلال سلوكها معه وعلاقتها به ، كأن يقول فى قصيدته « تغيرت المنازل بالكثيب » :

فإن يك قد نأتنى اليوم سلمى ... وصدَّت بعد ألف عن مشيبى

فقد ألهو إذا ماشئت يوماً ... إلى بيضاء آنسه لعوب

فإننا نتصور سلمى من سلوكها مع بشر شابة مكتملة الشباب ، وما كان لها لتصد عن صاحبها بعد مشيبه لو أنها فى مثل عمره .

وكذلك نستطيع أن نتصور صورة « هنيدة » فى القصيدة المائية « أتعرف من هنيدة رسم دار » على ضوء من قوله :

ليالى لا تطيشُ لها سهامٌ ... ولا ترنو لأَسْهمِ من رماها

فلابد أن تكون مثل هذه المرأة على جانب كبير من الجمال .

فإذا تركنا المرأة مثلا إلى الناقة نجد الطابع نفسه ، وقلب شعر بشر كله فلن

تجد فيه ناقة كناقة طرفة ، أو عنترة ، أو علقمة ، لن تجد فيه ناقة مكتملة الملامح أو مستتمة الخلق ، وإنما سترى مرة مرفقا أسرع فى سيره فى وقت الهاجرة :

ترى فى رَجْــع مرفقهـــا نُتُـــوءاً إذا ما الآلُ خفَّـــق لارتفـــاع[1]

وفى مرة أخرى سترى السنام المرتفع :

أمونــاً كدكــان العبــادى فوقهـــا سنـامٌ كجثمـان البليَّـةِ أتلَـعُ[2]

ومرة ثالثة نرى العنق مع السنام :

عذافـرة ، تَخَيَّـلُ فـــى سراهـــا لهـــا قَمَـــعٌ وتـــلاَّع رفيـــعُ[3]

ومع ناقة رابعة لا نسمع غير أطيط النسع ، ولا نبصر إلا أرجل الناقة بما لثفناتها من وقع ، وبما أحدثه فيها التعب والاعياء :

فســل طلابهــا ، وتعــز عنهـــا بناجيــــةٍ تخيّـــــل بالـــــرادف
بحرجــوج يئــطّ النســع فيهـــا أطيــط السـمهريّة فــى الثقــاف
كأن مواضــعَ الثفنـــات منهـــا إذا بركــت وهــن علــى تجافـــى
معـــرّسُ أربــــع متقابـــــلات يبـادرن القطـا سَمَلَ النّطـــافِ
فأبقـى الأيْــنُ والتهجيــر منهـــا شُجُوباً مثـل أعمـدة الخـلاف
تخـــرُّ نعالُهـــا ولهـــا نَفِـــىٌّ من المَعْزاءِ مثل حصى الخِـذاف[4]

وما عدا ذلك فصفات عامة كأن يصفها بأنها « حرج مروح »[5] أو « عنس عذافرة »[6] أو « أدماء من سر المهارى »[7] أو « ذعلبة هوجاء ناجية »[8] إلى غير ذلك من الصفات التى درج عليها الشعراء الجاهليون ، وهى كما ترى صفات تشى بصورة الناقة ولكنها لا تجسدها .

وليس هذا نهج بشر فى تصوير المرأة والناقة فقط وإنما هو نهجه فى كل صوره أيا كان موضوعها ، فإذا أراد أن يصور ما عليه قومه من سلاح وقوة اكتفى بقوله

(١) الديوان ص ١١٠
(٢) الديوان ص ١٢٠
(٣) الديوان ص ١٦
(٤) الديوان ص ١٤٥ ، ١٤٦
(٥) الديوان ص ٥٠
(٦) الديوان ص ٥٥
(٧) الديوان ص ٨٢
(٨) الديوان ص ١٥٣ ، ١٥٤

« بشهباء لا يمشى الضراء رقيبها »[1] وإذا أراد أن يصور حماسهم للقتال اكتفى بمثل قوله :

اذا ماالحقنا منهم بكتيبة ... تُذُكِّرَ منها ذحلُها وذُنُوبُها[2]

وإذا أراد أن يصور وحدة قومه وطاعتهم لزعيمهم قال :

أشار بهم لمَعَ الأصمّ فأقبلوا ... عرانين لايأتيه للنصر مُخْلِبُ[3]

وانظر الى قوله « لمع الأصم » والى ما يثيره فى ذهن القارىء من صورة واسعة .

وهذه الخاصية فى بناء بشر للصورة جعلت صوره الواسعة تتكون من خطوط متوازية لا متواصلة كل خط منها يمثل لقطة قائمة بذاتها ونضرب مثلا لذلك قوله مفتخرا بقومه :

بأيديهم صوارمُ للتدانى ... وإن بعدُوا فوافيةُ الكُعُوبِ

هم ضربوا قوانِسَ خيلِ حُجْرٍ ... بجنب الرَّدْهِ فى يوم عصيب

وهم تركو عُتَيْبَةَ فى مكَرٍّ ... بطعنةِ لا ألفٍّ ولا هيوب

وهم تركوا غداة بنى نمير ... شريحاً بين ضبعان وذيب

وهم وردوا الجفار على تميم ... بكل سميْدعٍ بطلٍ نجيب

وأفلت حاجِبٌ تحت العوالى ... على شنِل المولّعة الطلوب

وحيٍّ بنى كلاب قد شجرنا ... بأرماح كأشطان القَلِيبِ

فكل بيت من هذه الأبيات يمثل لقطة من إحدى المعارك التى خاضها قوم بشر ، وصحيح أن تتابع هذه اللقطات على هذه الشاكلة يعطى — فى النهاية — صورة واسعة لقوة بنى أسد قوم بشر ولكنها صورة تقوم على خطوط متفرقة نستطيع أن نقدم منها ما نشاء أو نؤخر كيفما نشاء اذ ليس هناك خط يفضى إلى الآخر ، وحتى التسلسل الزمنى نجده غير مراعى فهو قد أتى بلقطة من النسار رأينا فيها شريحا تنوشه الضباع والذئاب ، ثم انتقل إلى الجفار ، ثم عاد الى

(١) الديوان ص ١٥ (٢) الديوان ص ١٧ (٣) الديوان ص ١٠

لقطة من النسار رأينا فيها حاجبا يفر تحت العوالى . إذن هو التجاور الذى يؤلف بين هذه الخطوط لا أكثر .

وانت مع هذه الخطوط المتوازية فى كل ما يرومه بشر من صور متسعة تراها فى فخره ، وتراها فى رثائه وتراها فى مدحه وهجائه ، انظر الى قوله فى رثاء اخيه سمير :

والقِيائدُ الخيلَ فى المفازة — والجدب يساقون خِلفَةً سرعا
اللابس الخيلَ فى العجاجة — والخيل تشاق سِمَامهَا نُقَعا
ومُسْلَمٍ قد دعا فأنقذه — حتى انجلى الكرب عنه فانقشعا
بضربة يستدير صاحبها — أو طعنة لم تكن له بِدَعَا[1]

وانظر إلى قوله فى مدح عمرو بن أم إياس :

بحر يفيض لمن أَنَاخَ ببابه — من سائلٍ وثِمَالُ كلِّ مُعَصَّبِ
ولأنت أحيا من فتاة غالها — حذر ، وأشجع من هَمُوسٍ أغلب
الحافظ الحيَّ الجميعَ إذا شتوا — والواهبُ القيناتِ شبهَ الربرب
والمانح المئةَ المجانَ بأسرها — تزجى مطافلُها كجنة يثرب[2]

وانظر الى قوله فى مدح بنى بدر :

حتى تزورى بنى بدر فإنهم — شمُّ العرانين لا سودٌ ولا جعد
لو يوزنون كِيَالاً أو مُعايرةً — مالوا برضوى ولم يعدلهم أُحُدُ
القاعدين إذا ما الجهلُ قيم به — والثاقبين إذا ما معشرٌ خمدوا
لا جارهم يرهب الأحداثَ وسطهم — ولا طريدهم ناجٍ إذا طردوا[3]

فهل ترى فى كل هذه الصور الواسعة إلا لقطات متفرقة لا يؤلف بينها الا التجاور ، وقارن بعد هذا النهج بنهج زهير بن أبى سلمى فى بناء صورته حين مدح حصن بن حذيفة إذ يقول :

بكرت عليه غدوة فرأيتُه — قُعودا لديه بالصريم عواذِلُه

(١) الديوان ص ١٢٨ (٢) الديوان ص ٣٨ (٣) الديوان ص ٥٧ ، ٥٨

يفدِّينَه طوْراً وطوراً يلمنه ... وأعْيا فيما يدرين أين مخاتله
فأقصرْن منه عن كريم مرزَّأ ... عزوم على الأمر الذى هو فاعله
أخى ثقة لاتتلف الخمرُ مالَه ... ولكنه قد يهلك المالَ نائلهُ
تراه إذا ماجئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فنحن مع هذه الصورة فى خطوط متصلة تبدأ بأولئك النسوة اللاتى يعذلن حصنا على كرمه ، ويحاولن كفه عما يرينه سفها ، ويلجأن الى كل وسيلة فطورا يستخدمن اللين ، وطورا يلجأن إلى اللوم ولكنهن يعجزن عن إثنائه ، ويجدنه عزوما على ما ينوى ، فهو رجل لا يهلك ماله الا الكرم ، وتمضى الصورة الى البيت الأخير الذى يكون بمثابة الذروة صعد اليها القارىء خطوة مع كل بيت ، ولعلنا لحظنا أن اسلوب القص هو الذى أتاح لزهير هذا البناء المتصل ، ولكن أسلوب القص ليس وحده الذى يصل بين خطوط الصورة ، فهناك صور أخرى يقوم الاتصال فيها على توليد الصور والمعانى وانظر فى هذا الصدد الى قول النابغة فى مدح الغساسنة :

إذا ماغزو بالجيش حلَّق فوقهم ... عصائبُ طير تهتدى بعصائب
يصاحبنهم حتى يُغِرْن مغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب
تراهن خلف القوم خُزْراً عيونُها ... جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب
جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله ... اذا ما التقى الجمعان أوَّلُ غالب
لهن عليهم عادةٌ قد عرفنها ... إذا عرض الخَطِّىُّ فوق الكواثب

فالأمر هنا خلاف ما رأينا عند زهير ، صورة عصائب الطير التى تهتدى بعصائب تتولد عنها صورة المصاحبة فى البيت الثانى ، يتولد عنها التفات إلى هيئة الطير فى البيت الثالث ثم يتولد عن هذه المصاحبة صورة تهيؤ الطير للانقضاض لأنها واثقة من نتيجة المعركة ، يتولد عن ذلك كله إلف الطير للجيش كلما رأت الرماح مشرعة .

على أن الأمر فى صورة النابغة وفى صورة زهير سواء — فى النهاية — اذ هو

غرام الشاعرين باستقصاء الجزئيات ومراكمتها ، وليس بشر من هذا فى شىء لأنه فى بناء صورته يعتمد على اللقطة الخاطفة ، والاشارة السريعة .

ولا ينبغى أن يفهم من كلامنا أننا نفضل احد النهجين على الآخر ، فكلاهما له مكانه الذى يغنى فيه ، وكلاهما له شعراؤه القادرون عليه ، وقد يجيد الشاعر فى بناء الصور المتواصلة ، فإذا احتاج الأمر منه إلى الخطوط السريعة المجزئة هبط منه القول ، واضطرب ، والعكس صحيح ودليلنا عليه بشر حين يحاول بناء هذه الصور المتواصلة فيهبط قوله وينحط فى رتبة الفن ، وانظر مثلا إليه حين يصور الحمار وأتانه فى مدحه لعمرو بن أم اياس :

حرفٍ مذكَّـرةٍ كأن قُتودهـا	بعد الكلال على شتيمٍ أحقبِ
جونٍ اضرَّ بمُلْمِعٍ يعلـو بهـا	حدبَ الإكام وكل قـاع مجـدب
ينوى وسيقتها وقد وسقت لـه	ماء الوسيقةِ فى وعـاء معجـب
فتصكُّ مَحْجِرَه إذا ما استافهـا	وجبينَـه بحوافـرٍ لـم تُنْكَـبِ
وتشج بالعيْـر الفـلاةَ كأنّهـا	فتخـاءُ كاسرة هوت مـن مرقـب
والعيْرُ يرهِقُها الخبار ، وجحشـها	ينقض خلفهما انقضـاض الكوكب
فعـلاهما سَبِـطٌ كأن ضَبَابَـه	بجُنُـوب صاراتٍ دواخـن تنضُب
فتجاريـا شأوا بطينـا مِيلُـه	هيهات شأوهما وشـأو التولـب[1]

فعلى حرص بشر على إظهار حركة الحمار واتانه والجحش الذى يجاهد فى اتباعهما فالصورة تبدو باردة ، بافعالها المتعاطفة التى تتتابع فى رتابة ، (ينوى وسيقتها ... فتصك محجرة ... فعلاهما سبط ...، فتجاريا شأوا) .. ثم انظر الى قوله (وتشج بالعير الفلاة) ثم الى قوله « والعير يرهقها الخبار » وهل لم تكن هناك مندوحة للشاعر عن تكرار كلمة العير ، وتتابع الجملتين على هذه الشاكلة التى هى اشبه بالنهج المتبع فى تعليم الصغار ، ولا نريد أن نشير هنا إلى قرينة هذه

(١) الديوان ص ٣٦ ، ٣٧

الصورة فى معلقة لبيد أو فى رائية المخبل السعدى « أعرفت من سلمى رسوم ديار »[1] فبون بعيد بينهما وين ما يقول بشر . واذا كانت قصيدة بشر « الا بان الخليط ولم يزاروا » أطول قصيدة فى ديوانه وهى ايضا من جيد فنه ، فان أضعف مقطع فيها هو ذاك الذى يلجأ بشر فيه الى السرد فى محاولة لبناء صورة متواصلة الخطوط :

وصوَّب قومَـه عمرو بن عمـرو ... كهـادم عـزه وبـه انتصـار
وأصعـدت الرِّبـاب فليس منهـا ... بصارات ولا بالحُـبس نـار
فحاطونا القصـا ، ولقـدْ رأونـا ... قريبـا حيـث يستمـع السِّـرار
يسومون الصـلاح بـذات كَهْـفٍ ... ومـا فيهـا لهـم سلْـعٌ وقـارُ

... الخ .

ايضا الافعال المتعاطفة ، وايضا الرتابة والبرود ، والسر فى ذلك — فى نظرنا — أن بشرا ينهج فى بناء هذه الصور المتواصلة منهجه فى بناء سائر صوره ، فيركز على الخطوط العامة غير ناظر إلى الجزئيات معتقدا أن الأمر كله يقوم على السرد ، ولكن السرد فى الصور المتواصلة لا يمثل أكثر من درب يلج منه الشاعر إلى جزئيات الصورة ودقائقها يتتبعها فى تأن ، ويرصدها فى رويه أما ان يسلك الشاعر هذا الدرب بخطاه المعجلة عينها ، وبعينيه الراعشتين نفسيهما فلن يخرج منه بغير ما رأينا عند بشر .

بشر — اذن — شاعر اللقطة الخاطفة ، والخط السريع المجزىء ، والصورة التى تقوم على الإيحاء ، ونسأل بعد ذلك : هل لهذا النهج علاقة بموقع بشر من قومه ، وبأنه لسان قبيلته المعبر ؟ والجواب — فى اعتقادنا — أن نعم ، إن احساس بشر بقبيلته ، وتوظيف شعره لقضاياها ، جعل الشعر عنده وسيلة لا غاية ، وجعل الصورة الشعرية عنده مسخرة لهدف بعينه ، ولذلك كان هم بشر فى شعره أن يصل الى قارئه من اقرب طريق ، وأصبح تبعا لذلك جمال الصورة

(١) انظر شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ وقد عرض لنا المخبل السعدى فى هذه القصيدة صورة رائعة للحمار وأتانه استغرقت ما يربو على عشرين بيتا .

عنده أن تؤدى هدفها فى التبليغ والاستثارة ، فاذا كان لخيط من خطوط الصورة أن يؤدى هذا الهدف فقد بلغت الصورة تمامها ، فى رأى بشر ، ولم يعد فى حاجة الى خطوط اخرى يضيفها ، ومن هنا أيضا غلب على قصائد بشر القصر فأطول قصائده لا تتعدى ثمانية وخمسين بيتا . لم يكن بشر بحاجة إلى أن يطيل تأمله فى أطلال محبوبة ، أو فى أعضاء ناقة أو فرس إلا بما تسمح له مهمته القبلية ، وإلا بما يسمح له هدف القصيدة وغايتها ، ولعل هذا يلقى ضوءا جديدا على ما سبق أن ألمحنا إليه فى شعر بشر من ارتباط المقدمة بموضوع القصيدة .

— ٣ —

وعبارة بشر الشعرية عبارة مكثفة ، وأول ما يلفتنا فيها قدرة بشر على انتقاء الألفاظ ذات القدرة التصويرية بحيث نرى — فى كثير من الأحيان — اللفظ الواحد يجسم لنا موقفا بأكمله أو صورة بتمامها ، ومن ذلك — مثلا — ما نتخيله حينما نسمع لفظة « براكاء » — وما نظن أنها وردت فى غير شعر بشر — فى البيت :

ومـــا يُنْجِـــى من الغمـــراتِ إلا بَرَاكَـــاءُ القتـــالِ أو الفــــرار

إن كلمة « براكاء » فى البيت ليست كلمة مفردة ولكنها صورة مكتملة لمعركة عنيفة يخوضها فرسان لا يريدون تراجعا ، أو يريدون أن يقسروا أنفسهم على الثبات فيبركون فى ساحة المعركة .

وانظر أيضا إلى الصورة التى تؤديها كلة « صحل » فى البيت :

قوما فنوحـا فـى مأتـم صَحِـلٍ على سُمَيْرِ النـــدى ولا تدعـــا

إن هذه الكلمة تنقل لنا صورة المأتم المروع بالفاجعة ، وما فيه من صرخات متتابعة حادة أودت بأصوات أصحابها إلى البحوح . ونقف أيضا عند كلمة « جهضم » فى قول بشر مصورا ذلة تميم والمهانة التى لحقت برايتهم ذات العقاب :

ورأوا عقـابهم المدلَّـةَ أصبحـــت نُبِذَت بأغلبَ ذى مخالب جهضم

ويشير بشر بالأغلب ذى المخالب إلى الأسد الذى اتخذه بنو أسد رمزا لهم على رايتهم ، ولكن انظر إلى ما جسمته كلمة « جهضم » هنا من شدة بطش هذا الأسد ، وقوة قبضته التى لا تنطبق على فريسة إلا ماتت مكانها ، ولا يفوتنا أن نلفت إلى إيقاع هذه الكلمة الصوتى وما له من دور فى التصوير .

وشبيه بكلمة جهضم كلمة « الصيلم » وصفا لوقعة الجفار ، فى قوله :

غضبت تميمٌ أن تقتـــل عامـــر ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يوم الـــنسار فأعتبـــوا بالصَّيْلَـــمِ

ألا تنقل إلينا هذا الظفر الساحق ، ألا تمثل لنا هذه الرءوس المتطايرة بآذانها المقطوعة ، وأنوفها المبتورة .

وتأمل أيضا الكلمتين « صلت ، وحاشد » فى وصفه لرجلهم الذى فوضوه لمساومة بنى تميم :

وقد زاركم صلت من القــوم حاشــد ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وأنتم له بادى الضَّغِينَــةِ مُذْنِـــبُ

إننا نكاد نرى الرجل من خلال الكلمتين رأى العين ، نرى ثقته بنفسه ، وانتصاب قامته ، وقدرته أن يقول ويفعل ، ووثوقه من طاعة قومه ، واطمئنانه إلى ثروة له أو لقومه خول إليه التصرف فيها ، وقوة رأيه ، ونصاعه حجته ، إنه رجل حاشد .. وما دلالة الحشد إلا كل هذا .

إن بشرا ولا ريب كان قادرا على التصوير بالكلمة ، ماهراً فى اعتصار طاقاتها الدلالية والصوتية . فمن اعتصار الطاقة الدلالية ما نراه من كثرة استخدام بشر لصيغ المبالغة ومن ذلك صيغة المبالغة « فُعُلَه » فى قوله :

متحلِّب الكـــفين غير غُضُبَّــــةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ جزلُ المواهب مخلِــفٌ ما يتلـــف

ومن ذلك صيغة « فعول » نراها فى قوله :

ــ فمــن وأعطـانى الجزيـل وإنـــه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بأمثـــالها رحب الـــذراع نهـــوض

ــ تداركت لحمى بعدما حلّقت بــه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مع النسر فتخـاء الجناح قبـــوض

ــ بكل قيـاد مُسنفـــة عنــــود ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أضرَّ بها المسالح والعــــــــوار

ــ فصرفت السمر النواهل عنــه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بعُسُوسٍ من مرهفــات النصــــال

ومنها صيغة « فعال » ونراها فى قوله :

ــ عذافـــرة تخيّــل فى سُراهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لها [illegible] وتـــ[illegible] رفيــــع

ــ ومارسته قليـــلا ثـــم غادرهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مجرَّب الطير [illegible]

وصيغة « مفعال » وترد معها فعول :

أصبح الدهر قد مضى بسمير بسعور الوغى وبالمفضال .

ومن اعتصار طاقة الكلمة الصوتية ما نراه من اختيار بشر الألفاظ التى تعبر بجرسها ، أو قل يتعاشق فيها الجرس والمعنى ، ولعلنا أحسسنا بذلك فى كلمتى « الصيلم والجهضم » ، ونؤكد هذه الظاهرة ببعض أمثلة أخرى من مثل كلمة « يَخُشُّ » فى قوله واصفا ما فعله الثور بالكلاب :

يَخُشُّ بمدراه القلوب كأنما به ظمأٌ من داخل الجوف ينقع

أرأيت إلى هذه الخشخشة التى تنبعث من الكلمة وكأنها صوت فعل مدرى الثور فى قلوب الكلاب .

ثم انظر إلى كلمة « ألظَّ » فى قوله واصفا حمار الوحش وأتنه :

ألظ بهن يحدوهن حتى تبين حُولَهنَّ من الوساق

ألعلك تحس أن اختيار هذه الكلمة ذات النهاية المشددة ، يوحى بوعورة الطريق ، ثم انظر إلى صوت اللام والظاء « لظ ــ لظ ــ لظ » ألا يمثل ذلك صوت وقع حوافر هذا التقطيع على الأرض الوعرة .

وانظر إلى اختياره لفظة « تعنَّى » بعينها ونونها المشددة ونطقها المجهد وأثر ذلك فى التعبير عما يكابده من عناء الحب :

* تعنَّى القلب من سلمى عناء فما للقلب مذ بانوا شفاء
* تعناك نصبٌ من أميمة منصب كذى الشوق لما يَسْلُه وسيذهب

وتأمل الجرس فى كلمة « ضامزة » التى وصف بها ناقته :

أطوى بها الفلوات ضامِزَةٌ إذا سمع المُجِدُّ بها صريرَ الجُنْدِبِ

ألا تشعر معى بهذا الصوت المكتوم الذى ينبعث من الضاد بالميم والزاى وكأن هذه الناقة تبتلع شيئا ، أو قل تبتلع صوتها .

ومما يتصل باعتصار الطاقة الصوتية للفظة ما نراه عند بشر من المزاوجات الصوتية إذ يضم إلى اللفظة لفظة أخرى من جنس حروفها تقع منها وصفا أو مفعولا مطلقا ، أو مضافا إليه أو ما إلى ذلك ، ويكفى أن نسوق تمثيلا لهذه الظاهرة هذه الأبيات دون تعليق :

★ فيا عجباً عجبتُ لآل لأم	أما لَهُمُ إذا عقدوا . وفاء ؟
★ عذافرة يئطُّ النِّسعُ فيها	إذا ما خب رقراق الرقاق
★ فما صَدَعٌ بجبة أو بشوط	على زُلُقٍ زَوَالِقَ ذى كهاف
★ ذهب الآلى كانوا بهن فعادنى	أشجان نصْب للظعائن مُنصَبِ
★ لما قطَّعْن من قربى قريب	وما أتلفن من يَسَرٍ يسور
★ على ربذ قوائمه إذا ما	شأته الخيل ينسرب انسرابا
★ فدهمنهم دهماً بكل طمرة	ومقطع حلقَ الرّحالة مِرْجَم

وإذا تركنا اللفظة إلى العبارة وجدنا أن بشرا يصوغ عبارته على الأبنية التى تتيح له أكبر قدر من التكثيف ، وقد استطعنا أن نتبين من بين هذه الأبنية أنماطا أربعة نعرضها على النحو التالى :

(أ) البناء المتوازى :

ويتمثل هذا البناء فى تزامن عدة جمل تأتى متتابعة متعاطفة أو متداخله تعرض الصورة من زوايا مختلفة ، أو تمثلها على مستويات متباينة وصولا إلى ترسيخ ما يريد بشر أن يلقى به فى روع سامعه من معنى أو شعور ، ونضرب لذلك مثلا بقوله :

ليالى لا أطاوع من نهانى	ويضفو فى تحت كعبىّ الإزار
فأعصى عاذلى ، وأصيب لهوا	وأوذى فى الزيارة من يغار

فنحن فى البيتين مع خمس جمل متتابعة متزامنة الحدث : لا أطاوع من نهانى ــ يضفو تحت كعبىّ الإزار ــ أعصى عاذلى ــ أصيب لهوا ــ أوذى فى الزيارة من يغار ، وكل جملة من هذه الجمل مثلت لنا خيلاء الشباب وطيشه من

جانب معين ، أو قل : إن كلا منها يمثل مستوى من مستويات الخيلاء والطيش .

ومثال آخر :

نعلو القوانِسَ بالسيوف ، ونعتزى والخيل مشعلةُ النحور من الدم

والجمل الثلاث فى البيت تصور أحداثا تجرى فى ذات الوقت ؛ الضرب بالسيوف على القوانس ؛ والاعتزاء ، وتخضب نحور الخيل بالدم ، ولكن كلا منها عرض لجانب من جوانب المعركة ، بحيث تمثلت لنا فى النهاية صورة المعركة بما فيها من شدة ، وبما فيها من ضجيج ، وبما فيها ـــ بعد ذلك وقبله ـــ من تفوق قوم بشر وغلبتهم .

وبناء العبارة على هذا النحو المتوازى يبرز للسامع والقارىء معانى فرعية لم تقلها الكلمات ، ولكن البناء أوحى بها ومن ذلك ما نراه فى قول بشر واصفا ناقته :

تخر نعالها ، ولها نفى من المعزاء مثل حصى الخِذَافِ

فلو عبرنا بإحدى الجملتين أو فصلنا بينهما ماكان لنا أن ندرك مدى قوة هذه الناقة التى احتفظت بنشاطها رغم طول الرحلة ، وإنهاك السير . وانظر أيضا إلى ما أظهره هذا البناء من الحب القاهر والرغبة العاجزة إضافة إلى ما قالت به الكلمات من جمال المحبوبة وزهوها :

ليالى لا تطيش لها سهامٌ ولا ترنُو لأسهم من رماها

وتأمل إلى ضآلة أمر العدو تلوح خلف هذه المتوازيات المنتشية فى قول بشر واصفا فعل ابن المضلل ببنى تميم :

فقد نقض التُّرات ، وقد شفاها وخلانا لتشراب الخمور

وانظر إلى عناء هذا الحمار الوحشى من جراء الرغبة والمثير المخايل :

ينوى وسيقتها ، وقد وسقت له ماءَ الوسيقةِ فى وعاء مُعْجِب

وعلى هذا النحو نستطيع أن نرى ما حققه هذا البناء من إثراء لدلالة العبارة في قول بشر مفتخرا :

كفينا من تغيَّبَ ، واستبحنا سنامَ الأرض إذ قحط القطار

وفى قوله راجيا :

وإنى لراج منك يا أوس نعمة وإنى لأخرى منك يا أوس راهب

وفى قوله متأسيا :

فظلت أكفكف العبراتِ منى ودمعُ العين منهمر سفوح

وفى قوله محذرا :

نسومكم الرشاد ، ونحن قومٌ لتارك ودنا فى الحرب ذام

وفى قوله واصفا الظباء :

حم القوادم ، مايُغَرُّ ضروعها حلب الأكف ، لها قرار مُؤْنِف

وواصفا الأسد :

مُغِبٌّ ، مايزال على أكيل يناغى الشمس، ليس بذى عِطَافِ

وواصفا المعركة :

لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم وأدرك جرْىَ المبقياتِ لُغُوبُها

وواصفا ما أصاب عدوه :

سليب به وقع السلاح ، وراتك حثيث بأسباب المنية يضرب

(ب) البناء الراجع

ونقصد بهذا البناء الراجع ذلك النمط التعبيرى الذى نرى فيه الشاعر يمضى بصورته إلى حد ثم يتوقف ويرجع ليستدرك صورة أخرى أو ليضرب عن صورته الأولى ، أو ليلتفت أو يلفت إلى معنى جانبى ، أو فرعى يرى أهمية ذكره ، ويتم ذلك على صور بلاغية منها القطع والاستئناف والاعتراض .

ونبدأ فى التمثيل لهذا البناء بقول بشر ذاكرا انصراف المحبوبة عنه :

رأتنى كأفْحُوصِ القطاة ذؤابتى وما مَسَّها من مُنْعِمٍ يستثيبُها

فبعد أن ذكر بشر أن محبوبته رأت رأسه صلعاء كأفحوص القطاة قطع الصورة حتى دون أن يبين موقف المحبوبة من صلعه معتمدا على إدارك المتلقى للموقف . واستأنف إلى ذكر أن هذا الصلع هو فعل السنين ولم يكن نتيجة أسر ، أو إنعام وكان من العادة حينما يمن الرجل على أسيره بالعفو أن يحلق له رأسه ، وهكذا نرى أن التعبير « وما مسها من منعم يستثيبها » رجوع إلى الخلف ، ولفتة مستدركة من الشاعر للوراء .

وقد يمر قارىء على هذا التعبير فلا يرى سوى أن الواو للاستئناف ، والجملة بعدها مستأنفة ، ولكنا نرى هذه الجملة اختزالا لموقف حوارى كامل بين الشاعر وصاحبته ، فكأنها تساءلت عن سر هذا الصلع ، وربما ألمحت من طرف خفى إلى أنه قد يكون إنعام منعم ، فأسرع الشاعر إلى دفع ظنونها وشكوكها ملقيا بهذا التعبير غير آبه بقطع الجملة الأولى ، أو الوصول بها إلى تمامها وكأنه رأى أن هناك قضية أهم من إقبال المحبوبة عليه ، أو إعراضها عنه .

وانظر أيضا إلى هذا التعبير الراجع « وكنت غير مغلب » فى قول بشر :

فانهلَّ دمعى فى الرداء صبابةً إثر الخليط ، وكنت غير مغلَّب

ألا تحس معنا أنه ذروة موقف كامل بين المشاعر المتصارعة فى نفس الشاعر ، بين إحساسه بما ينبغى أن يكون عليه جلد الرجل وبين قوة الصبابة الغالبة القاهرة ، بين شعوره بما هو عليه من ضعف ، وبين رغبته فى أن يكون كما كان شديد الأيد غالبا على عواطفه ، بين إحساسه بالانسحاق أمام نظرات أقرانه المزدرية وبين رغبته فى الاعتذار عن ضعفه حفظا لتوازنه ، وتجاوزا للحظة ضعفه .

ومثل ثالث التعبير الراجع « ولقد قضاها » فى قوله :

إلى أوس بن حارثةَ بن سعدى ليقضى حاجتى ، ولقد قضاها

أرأيت إلى ما يفصح عنه من صراع الخوف والرجاء ، والوساوس المثبطة ، والثقة الدافعة ، ليقطع الشاعر فى النهاية شكوك وساوسه بيقين ثقته .

وإذا كان هذا التعبير قد انتهى إلى تغليب الأمل فعلى عكسه انتهى التعبير « فقد حق الحذار » فى قوله :

أحـــاذرُ أن تبين بنـــو عقيـــل بجارتنـــا ، فقـــد حـــق الحـــذار

فقد انتهى بالمحاذر إلى راحة اليأس .

وعلى هذا النسق يمكن أن نرى دخيلة نفس بشر من خلال تعبيره الراجع « لا يأتيه للنصر مجلب » فى قوله مفتخرا بكثرة قومه وعزتهم :

أشار بهم لَمْـعَ الأصمِّ فأقبلـــوا عرانين ، لا يأتيـه للنصـر مجلـب

والمجلب هو المعين من غير القوم .

وكذلك من خلال التعبير « دام لهم من غيرى الحسد » فى قوله :

ومـاحسدت بنـى بـدر نصيبَهـم فى الخير ، دام لهم من غير الحسـد

ومن خلال التعبير « وللموقى واق » فى قوله :

سأرمـــى بالهجنـاء ولا أفيـــه بنـــى لأم ، وللمـــوقّ واقـــى

وإذا كنا قد ركزنا فى الأمثلة السابقة على ما ورد من هذا البناء على القطع والاستئناف ، فإن ما ورد منه على الاعتراض لا يقل أهمية فى إثراء الصورة بما يحمله التعبير المعترض من خط يسرع الشاعر بإبرازه ، أو استدراك له قيمته ، أو معنى يود تقريره قبل أن يمضى فى إتمام صورته ، ونحن مع هذه التعبيرات نعيش مع الشاعر عن كثب ، ونرقب ما يدور فى فكره ، وندرك أى المعانى جوهر وأيها عرض فى صورته فانظر مثلا إلى ما أبرزه التعبير « وقد شحطت » من إبراز إحساس الشاعر بعدم الجدوى فى قوله :

وما تذكّر من سلمـى (وقـد شحـطت) فى رسم دار ونوْى غير منتـــرف

وانظر إلى المعانى المتداخلة التى أبرزها التعبير « ولو سودتموه » فى قوله هاجيا أوس :

وما أوس (ولو سوّدتموه) بمخشىّ العرام ولا أريب

ففيه تحقير لقوم أوس وسخرية بهم لأنهم سودوا من لا يستحق السيادة ، وفيه أيضا دفع من بشر لمخاوفة أن يكون هجا من لا يستحق الهجاء ، وفيه أخيرا ما فيه من التحقير لأوس أن يصبح سيدا لقومه وهو من هو فى الضعف وقلة الحنكة .

ومثل ثالث نقف عليه فى التعبير المعترض « ولم تخش الذى فعلت به » فى قول بشر :

سبته (ولم تخش الذى فعلت به) منعّمةٌ من نشء أسلم مُعْصِرُ

فانظر إلى قيمة الإسراع بإبراز هذا الخط فى بيان زهو المحبوبة وخيلائها ، ثم بيان ما يقابل ذلك من عجز الشاعر وإحساسه بالضياع والقهر وقلة الحيلة .

وعلى هذا يمكن أن ندرك أثر التعبيرات المعترضة فى الأبيات :

* ففاجأته (ولم يرهب فجاءتها) غُضُفٌ نواحل فى أعناقها القِدَدُ
* تداركني منه خليجٌ (فردّنى) له حدبٌ تستن فيه الضفادع
* رهين بلى (وكل فتى سيبلى) فأذرى الدمع وانتحبى انتحابا
* ياسمير من للنساء (إذا ما قحط القطر) أمّهاتِ العيال
* أما عقيل فنجاها (وقد شرعت فيها الأسنّةُ) ركض غير تكذيب
* فدُعْنا (ولم نجبن) ولكن تقاصرت بإخواننا عند الجدود تقصرا

ولعلنا نستطيع أن نقول — فى النهاية : إن البناء الراجع لا يكثف العبارة بما يثرى به دلالاتها فحسب ، ولكنه — أيضا — يربط بين المتلقى والشاعر بما يقف عليه المتلقى من دخيلة الشاعر الفكرية والنفسية .

(ج) البناء التقابلى

ونقصد به بناء العبارة على أساس من المواقف المتقابلة ، ولا ريب أن مثل هذا

البناء يصل بالعبارة الشعرية إلى درجة عالية من الكثافة بما يفجره التقابل فيها من مشاعر متضاربة أو متداخلة ، أو بما يحدثه من تركيز شديد للصورة وبيان واضح لخطوطها حينما يضع الشيء مجاورا لنقيضه .

ولنبدأ أمثلتنا لهذا النمط البنائى بقول بشر :

أسائل صاحبى ولقد أرانى   بصيراً بالظعائن حيث صاروا

والبيت يعرض موقفا عجيبا فبشر بصير بالظعائن ، وبالمكان الذى صاروا إليه على حد قوله ، ففيم السؤال إذن ؟ وما جدواه ؟ ألعله التلذذ بذكر المحبوبة حتى ولو كان الأمر سؤالا هو يدرك الإجابة عنه سلفا ؟ ألعله هو نفسه الموقف الذى وقفه ــ بعدُ ــ أبو الطيب حين قال :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد   أقصيرٌ طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق   وكثير من ردّه تعليل

أم لعل الشاعر يفزع بآماله إلى الكذب ، فيتمنى أن يكون ما يبصره وهما ، فيسأل صاحبه لعل فى إجابته ما يحيى الأمل المحتضر ؟

وعلى أى فما نظن أننا كنا سنقف على شيء من هذه الحال النفسية للشاعر إلا بمثل هذا البناء التقابلى .

ومثل آخر نسوقه وهو يتمثل صورة ابنته بعد أن طعن الطعنة القاتلة ، فيقولْ :

تؤمل أن أعود لها بنَهْب   ولم تعلم بأن السهم صابا

. ابنته تقف حين عودة الركاب تنظر أباها ، وتعقد الأمل على ماعاد به من نهاب ، وفى الجانب المقابل ــ وهو ما خفى على الابنة ــ نرى الأب قد أصيب بالسهم القاتل . لم يعرض بشر سوى هذين الموقفين المتقابلين ، ولكن هذا التقابل فجر لدى السامع حشدا من الصور والمشاعر : أسى الأب ولوعته ، حنينه لابنته ، الأمل حين يرتد دموعا مقهورة ، الوعود التى كان الأب منى بها ابنته ،

موقف الفتاة حين تعلم النبأ الفاجع .. إنها قصة طويلة مختزلة فى كلمات .

ومثل ثالث نقع عليه فى حديثه عن قبيلة جذام التى جاورتهم زمنا :

وقالوا : لن تقيموا إن ظعنّا   فكان لنا — وقد ظعنُوا — مقامُ

موقفان متقابلان أيضا ؛ الأول فيه جذام واثقة مستعلية ، والثانى ما آلت إليه من إقصاء ، وما انتهى إليه قوم الشاعر من رسوخ وثبات ، وبالمقابلة تظهر المفارقة ، ونكاد نلمح ابتسامة الشاعر الساخرة .

وشبيه بذلك — فيما ينضح به من سخرية — قوله عن عتبة بن مالك الذى أجار ابن ضباء الأسدى فلم يستطع حمايته من قاتليه :

أجار فلم يمنع من الضَّيْم جاره   ولا هو إذ خاف الضياع مُسَيَّرُ

ومرة أخرى نذكر أبا الطيب وقوله :

جوعان يأكل من زادى ويمسكنى   حتى يقال : كريم القدر مقصود

وما أذكرنا أبا الطيب إلا الموقف المتشابه ، وإلا السخرية المرة التى تنضح بها المفارقة فى بيته وبيت بشر .

وقريب من هذا قول بشر فى بنى سعد بن تميم :

أذا ماعُلوا قالوا : أبونا وأمنا   وليس لهم عالين أمّ ولا أب

إنهم إذا انهزموا ناشدونا القرابة وصلة الرحم ، أما إذا كانوا منتصرين فإنهم يدوسون على كل هذه الصلات ، قل : إن هذا غدر ، قل : إنه خسّة ، قل : إنه تذلل الضعف وتجبره حين يستشعر القوة . إن البيت يحمل كل ذلك فضلا عما يحمله من السخرية بهذه الأواصر المدعاة .

وعلى ذكر سعد بن تميم يأتى ذكر هوازن ويأتى ذكر قول بشر لها :

وكنا إذا قلنا هوازن أقبلى   إلى الرشد لم يأت السّداد خطيبها

والتقابل فى البيت يفجر كثيرا من المعانى ؛ فنرى الإشماق والشماته فى آن واحد ، ونرى فيه حماقة الضعيف وتقريع المنتصر ، ونرى فيه الإعذار عما أريق من دماء فى ساحة المعركة ، والإنذار لكل من تسول له نفسه فعل هوازن .

ومرة أخرى مع هوازن وطلبها ما ليس لها فيه مطلب فى قول بشر :

يرومون الصِّلاح بذات كهف   وما لهم بها سَلْعٌ وقار

والتناقض فى البيت يبرز لنا صورة الساعى إلى حتفه بظلفه

ودون هذه المواقف المتقابلة ما يمكن أن نسميه الصور المتقابلة كما نرى فى مقابلة القاعدين بالقائمين والثاقبين بالخامدين فى قوله :

القاعدين إذا ما الجهلُ قِيمَ به   والثاقبين إذا ما معشر ، خمدوا

وكالمقابلة بين صورة المجير والمجار فى قوله :

وأنزل خوفُنا سعداً بأرض   هنالك إذ تجيرُ ولا تجار

وكالمقابلة بين صورة المكرمات المرفوعة والباع القصير فى قوله :

إذا ما المكرمات رفعن يوما   مددت لنيْلها باعا قصيرا

والصورة نفسها مع بعض التحوير فى المدح :

إذا ما المكرمات رفعن يوما   وقصر مبتغوها عن مداها
وضاقت أذرعُ المثرين عنها   سما أوسٌ إليها فاحتواها

وصورة الجار الآمن والطريد الهالك فى قوله مادحا بنى بدر :

لا جارهم يرهبُ الأحداثَ وسطهم   ولا طريدُهم ناجٍ إذا طَردُوا

والأمثلة عديدة فى شعر بشر :

ونحن نعلم أن كثيرا من هذه الصور المتقابلة يقود إليها اللفظ فإذا ذكر الشاعر القيام توارد إلى ذهنه القعود ، وإذ ذكر الرفعة ذكر التقصير أو الاحتواء ، وإذا

ذكر الجار ذكر الطريد ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقلل من قيمتها ، ولا نستطيع أن نعتبرها من البناء الشعرى بمنزلة الحلية لأن التجربة الشعرية فى نظرنا تجربة لغوية فى المقام الأول ، ومادامت كذلك فالألفاظ فيها فاعلة ومفعولة ، وكما يختار الشاعر ألفاظه فكثيرا ما تختار "ه الألفاظ صوره وأخيلته . وكما يأنس الشاعر إلى لفظ ما يراه معبرا فإن اللفظ هو الآخر قد لا يأنس إلا إلى نظيره ، وهكذا تولد الألفاظ صورها ، وتسكن إلى أبنيتها .

(د) البناء المنفرج

ونقصد به البناء الذى يخرج به الشاعر من خصوص القول إلى عمومه ، بأن يردف قوله بما سمى فى البلاغة « التذييل الذى يجرى مجرى المثل » ، ونسوق تمثيلا لهذا البناء قول بشر :

فإن تَكُ قد نأتك اليوم سلمى ... فكل هوى قرين لانقطاع

وقوله :

أكاتم صاحبى وجدى بسلمى ... وليس لوجد مُكْتَتِم خفاء

وقوله :

نأت سلمى وغيرها التنائى ... وقد يسلُو المحبُّ عن الحبيب

وقوله :

غضبتم علينا أن تقتَّل عامر ... وفى الحق إذ قال المعاتب مغضب

وقوله :

مضى قصد السبيل وكل حى ... إذا يدعى لميتة أجابا

وقوله :

فلما أدبروا ذَرَفَتْ دموعى ... وجهلٌ من ذوى الشيب البكاء

وقوله :

أجبنا بنى سعد بن ضَبَّةَ إذ دعوا ... ولله مولى دعوة لا يجيبها

وقوله :

فإن تجعل النعماء منك تمامَةً ونعماك نعمى لا تزال تفيض
يكن لك فى قومى يد يشكرونها وأيدى الندى فى الصالحين قروض

وقوله :

فأصبح قومى بعد بُؤسَى بنعمةٍ لقومك ، والأيام عُوجٌ رواجع

وقوله :

ألا تنسى الكفور ، وكل شىء من الأخلاق تنتجع الرجال

ولا نقصد أن نضيف بشر بما ورد فى شعره من هذه الأبنية إلى قائمة الحكماء ، وما نظنه كان يسعى إلى ذلك ، بل إننا لا نرى أى شاعر ــ مهما كثرت أمثاله وتذييلاته ــ كان يسعى أن يقعد من قرائه وسامعيه مقعد الحكيم ، وكل ما نراد أن الشاعر يريد أن يربط موقفه الخاص بموقف أعم وأشمل لدى قارئيه وسامعيه ، وكأنه يضع تجربته الخاصة أمام معيار عام لدى المتلقى ليدرك المفارقة فيها أو الموافقة ، والشاعر بهذا إنما يحتكم إلى سامعه ، ويشركه فى أمره ويدخله طرفا فى القول بما يحفز فيه هذا القول العام من التدبر والمقارنة وضم تجربة الشاعر إلى ما يماثلها ، وهذا ولا ريب انفراج بالقول وانفساح بخصوصياته إلى أطر إنسانة أوسع .

ونعلم ــ بعد ذلك ــ أن هناك من ينكر هذا الصنيع من الشاعر ذاهبا إلى أن الشعر يجب أن يعنى بالتصوير الحسى مبتعدا عن مثل هذه التعبيرات التى تذهب مذهب التجريد ، ولكننا نفت إلى أمر يتصل بالقصيدة العربية ، وهو أنها قامت على الإنشاد ، والمتلقى فيها كان السامع على الأغلب الأعم لا القارىء ، ومن هنا تأتى فى نظرنا أهمية هذه التذييلات التى يقصد بها الشاعر دائما حزم كل زمرة من الجزئيات الحسية بحزام استوثق من قوته لدى سامعه حتى لا تتبعثر هذه الجزئيات وتتفلت ، وهذا الصنيع فى نظرنا ترسيخ للقول وتكثيف له ، ونزوع به إلى الأعم والأبقى

وقد عنى بشر بالتصوير ووظف ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية توظيفا جيدا وإن كان التصوير الكنائى فى شعره يغلب على اللونين الآخرين وهذا شىء طبيعى ، وهو أيضا لا يختص بشعر بشر وحده ، وإنما هو سمة من سمات التجربة الشعرية فى عمومها بما تعين عليه الكناية من تقديم الصورة المحسوسة الفياضة بالإيحاء .

أما بالنسبة للصور الاستعارية والتشبيهية فبشر شأنه فيهما شأن شعراء عصره من قلة الصور الاستعارية والاتكاء على التشبيه ، وقد أحصينا له فى شعره الذى نظن صحة نسبته إليه ، والذى يبلغ سبعمائة وثلاثين بيتا خمسا وعشرين استعارة ، ومائة وخمسين تشبيها ، ومن هذا الإحصاء يتضح لنا التفاوت الواضح بين اللونين .

وعلى أى فبشر لم يكن يثقل أبياته بأى من اللونين ، وصوره سواء الاستعارية منها والتشبيهية صور قريبة غير محلقة ، وشأنه فى ذلك أيضا شأن شعراء عصره .

وربما كان لنا أن نلفت هنا إلى ما أثنى عليه النقاد القدماء من بعض استعارات بشر وتشبيهاته ، فقد روى عن الأصمعى قوله : ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر بن أبى خازم :

يفلجن الشفاه عن أقحوان　　جلاه غبُّ سارية قطار[١]

وقد أورد أبو هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى بعض تشبيهات بشر نموذجاً للتشبيه المصيب ، قال : « والتشبيه المصيب من الشعر القديم » قول بشر بن أبى خازم :

وغيث أحجم الرواد عنه　　به نفَلٌ وحوذانٌ تؤام
تغالى نبته واعتمَّ حتى　　كأن منابت العلجان شام[٢]

(١) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى حـ ١ ص ٢٣٨

(٢) المرجع نفسه حـ ٢ ص ١٣

وفى المقابل عاب عليه بعض النقاد غموض بعض صوره ، ومغالاته فيها ولكننا سنرجىء ذلك إلى مكان آخر من هذا البحث .

أما ما نريد أن نقف عنده وقفة خاصة من صورة بشر البيانية فهما أمران كان لهما فعلهما فى تكثيف الصورة الشعرية عنده ، أحدهما يتعلق بالاستعارة ، وثانيهما يتعلق بالتشبيه .

أما فيما يتعلق بالاستعارة فنراه فى استخدام بشر للمثل ، واستخدام المثل لون من ألوان الاستعارة يسمى بالاستعارة التمثيلية ، وهو يمثل للسامع فى كلمات قلائل موقفا بأكمله ، أو تجربة بتمامها .

وقد نقع فى شعر الشعراء الجاهليين على شيء من ذلك كما نرى فى قول زهير :

تدارك كتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ولكننا نزعم أن ما استخدمه بشر من هذه الأمثال فى شعره أكبر مما استخدمه أى شاعر جاهلى آخر .

ومما بنى عليه بشر بعض صوره من هذه الأمثال قصة القارظ العنزى الذى خرج يطلب القرظ فمات ، فضربت العرب به المثل لمن يخرج ولا يعود ، وقول بشر المبنى على ذلك هو خطابه لابنته :

فرجى الخير وانتظرى إيابى إذا ما القارظُ العَنَزِىُّ آبا

ومن المثل « كر فى ركوبة أعسر أو أعصر » وهو مثل يضرب لشدة العسر ، فالركوبة هى العقبة الشاقة شديدة المرتقى ، وعلى هذا المثل بنى بشر صورته فى صاحبته :

هى العيش لو أن النّوى أسعفت بها ولكن كَرًّا فى ركوبةَ أعصر

وتقول العرب « كن وسطا واربض حجرة » أى كن مع القوم ماداموا فى خير فإن وقعوا فى الشر دعهم ، وعلى هذا المثل يبنى بشر صورته فى هجاء عقبة بن مالك :

جزيز القفا شبعان يربض حجرةً حديث الخصاء وارم العفْل معبر

وتقول العرب « أصبح ليل » فى الليلة الشديدة يطول فيها الشر ، ويقول بشر واصفا ليلة ثوره :

فبات يقول أصبح ليل حتى تجلّى عن صريمته الظلام

وتقول العرب إذا بلغ الشر مداه « قد حلبت صرام » والصرام هو آخر اللبن ، ويبنى بشر على هذا المثل فى قوله :

ألا أبلغ بنى سعد رسولا ومولاهم فقد حُلبت صرام

ويقولون « ضبت لثته » مثلا للنهم الحريص على الأمر ، ومن هذا يأخذ بشر قوله :

ولما ألق خيلا من نمير تضِبُّ لثاتُها ترجو النهابا

وقوله :

وبنى تميم قد لقينا منهم خيلا تضب لثاتُها للمغنم

وفى اعتقادنا أن استخدام المثل فضلا عن تكثيفه للصورة له دوره الفعال فى استمالة السامع والتأثير عليه بإشراكه فى الموقف ، والتوسل بمعارفه وخبراته فى إدراكه .

أما فيما يتصل بالتشبيه فإن ما يلفتنا بصورة واضحة مانراه من ميل بشر إلى استخدام ذلك النمط الذى فيه يقوم المشبه به فى بعض لوازم المشبه حتى لكأنهما شىء واحد فى مرأى العين . ونمثل لذلك بقوله فى وصف ريق المحبوبة :

كأن بطافةً شيبتْ بمسك هدوءا فى ثناياها براح

وفيه أيضا :

كأن مدامةً من أذرعات كميتا لونها لون الرعاف
على أنيابها بغريض مزن أحالته السحابة فى الرِّصَافِ

وفى المحبوبة :

كأن الأتحمية قام فيها ... لحسن دلالها رشأ موافى

وفى الظعائن :

كأن ظباء أسنمة عليها ... كوانس قالصا عنها المغار

وفيهن :

كأن على الحدوج مخدرات ... دمى صنعاء خط لها مثال

وفى وصف ناقته :

مضبرة كأن الرحل منها ... وأجلادى على لهق لياح

وفيها :

كأن الرحل منها فوق جأب ... شنون حين يفزعها القطيع

وفيها :

كأن نسوط يقبض بطن طاو ... بأجماد اللبين من جفاف

وفيها أيضا :

كأن قتودى على أحقب ... يريد نحوصا تؤم السلاما

وفى وصف الثور :

فجال كأن نصعا حميريا ... إذا كفر الغبار به يلوح

وفى وصف الفرس :

مهارشة العنان كأن فيه ... جرادة هبوة فيها اصفرار

وأيضا :

كأنى بين خافيتى عقاب ... تكفؤنى إذا ابتل العذار

وحقيقة أن هذا نمط متبع فى الشعر الجاهلى . ولكن تردده بصورة ملفتة فى شعر بشر يدفعنا إلى القول بأنه يمثل سمة خاصة اتكأ عليها بشر فى بناء اللقطة المكثفة بما تحققه من ضغط لطرفى التشبيه إذ يدخل أحدهما فى الآخر ، أو ينجلى فى هيئته فلا نكاد نميزه من الاستعارة إلا بأداة تشبيه واهية تقوم على حافة الصورة .

وفى بعض شعر بشر غموض ، وهذا الغموض لا يرجع فى عمومه إلى سبب واحد وإنما يرجع إلى أسباب متباينة . فبعض هذا الغموض — وهذا حق — لم يكن لبشر يد فيه ، وإنما هو راجع إلى غيبة السياق عن ذهن القارىء ، وقد سبق أن ألمعنا إلى شىء من هذا .

ولعل مما يمت إلى غيبة السياق بسبب عدم تمثل البيئة التى عاش فيها بشر تمثلا صحيحا ، وقد يترتب على عدم تمثل البيئة هذا حكم نقدى خاطىء كذلك الذى نراه عند ابن طباطبا حيث ساق مثلا على التشبيهات التى لم يلطف أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم فيها سلسا سهلا قول بشر :

وجر الرامساتُ بها ذيولا   كأن شَمالَهَا بعد الدَّبُور
رمادٌ بين أظْآر ثلاثٍ   كما وُشِمَ الرَّواهِشُ بالنئور

وتعجب ابن طباطبا أن يشبه الشاعر الشمال بالرماد[١] ، ولابن طباطبا أن يعجب فهو أصبهانى لم يفارق أصبهان قط[٢] ولم يعرف من أمر ريح الشمال إلا أنها بعض الرياح ، ولكنا ما نظنه كان يبدى مثل هذا الرأى لو علم أن ريح الشمال أكثر الرياح عجاجا ، وهى تثير من الأتربة ما يغطى صغار الشجر[٣] ، أفلا يحق للشاعر — وقد علمنا ذاك — أن يشبه الشمال بالرماد ، ثم ما ظنك إذا كانت هذه الشمال فى أعقاب الدبور ؟

ومما يتصل بذلك من أمر الغموض أن يكون الشاعر متكئا فى صورته على قصة نجهلها ، أو موقف طواه الزمن عنا كما نرى فى قول بشر :

فلو كنت إذ خفتَ الضَّيَاعَ أسرْتَهَ   بقادم عَصْرٍ قبلما هو مُبْسَرُ
لأصبح كالشقراء لم يعد شرها   سنابك رجليها وعرضك أوفر

(١) انظر عيار الشعر ص ٩٠ .

(٢) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت حـ ١٧ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٣) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى حـ ٢ ص ٣٤١

ولو عرفنا قصة الشقراء ، وأنها كانت فرس لقيط بن زرارة وأن لها قصة معه فى وقعة شعب جبلة لا نكشف لنا ما توهمناه من غموض . ومن ذلك أيضا قول بشر مادحا أوس بن حارثة :

تداركنى من كربة الموت بعدما بدت نهلات فوقهن الودائع

وأغلب الظن لدينا أن قول بشر « بدت نهلات فوقهن الودائع » يشير إلى مثل كان معروفا ، أو إلى عادة متبعة ، وحجب عنا الزمن ذاك أو هذه على أن تحريف النساخ احتمال وارد فى مثل هذا التعبير .

على أن بعض غموض صور بشر راجع إلى الضغط الشديد للعبارة بحيث لا يفهم القارىء مقصود الشاعر — إن تم له ذلك — إلا بعد لأى ومن ذلك قوله :

فإنى والشكاة من ال لأم كذات الضِّغْنِ تمشى فى الرفاق

فقد لايدرى القارىء المقصود بذات الضغن أهى امرأة أم ناقة ، وإذا كانت ناقة فهل هى الناقة التى ينازعها الحنين أو هى الناقة الظالعة بإحدى يديها ، وكل هذه معان محتمله ، كذلك قد لا يدرى ماذا يقصد الشاعر بالرفاق أهو حبل تشد به الناقة أم هو الصحبه وهما أيضا معنيان محتملان ، ولو أن بشرافصل صورته بعض الشىء لفهمنا مقصده على وجه من التحديد ، ولكن أنى له التفصيل ؟! ومن ذلك أيضا قوله فى بنى نمير بعد النسار :

تبكى لهم أعين من شجو غيرهم فإن بكى منهم باك فقد لهفوا

ولا نعرف إلا بعد جهد أن المقصود بالشطر الأول هو أن الناس يبكون رحمة بهم .. ولكنها العبارة المضغوطة !!

كذلك لا نعرف على وجه التحديد كيف ينسى طول الشوق القوافى فى قوله :

بلى إن العزاء له دواء وطول الشوق ينسيك الفراق

وفى ظننا أن طول الشوق يؤجج القوافى لا ينسيها .

ولا ندرى على وجه الدقة أيضا قصد الشاعر بقوله « وقبلك ما انقضى خلق سجيح » فى قوله :

وما جلب الصبابة مثل شوق   وقبلك ما انقضى خلق سجيح

ألعله يقصد أن الحب غير ٔأخلاقه فأصبح ضيق الصدر بعد أن كان رقيق الحواشى ، لين الخلق .

وعلى أى فهى صور محدودة معدودة وينبغى أن نتوقع مثلها من شاعر اللقطة الخاطفة .

(٦)

وقد نظم بشر شعره على سبعة من بحور الشعر هى على الترتيب ؛ الوافر وفيه نظم سبع عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة ، ويليه الطويل وقد نظم فيه اثنتى عشرة منظومة ، ثم الكامل وقد نظم فيه خمسا ، ثم البسيط ونظم فيه اثنتين ، ثم المنسرح ، والخفيف والمتقارب وفى كل منها منظومة واحدة . هذا عدا مقطوعتين من الرجز .

وعلى هذا فقد استأثر البحر الوافر بالحظ الأوفى يليه الطويل وبعدهما بأمد يأتى الكامل .

وإذا كان هناك من الباحثين من يرى علاقة بين البحر الشعرى وما ينظم عليه ، ويذهب إلى أن هناك بحورا تصلح لموضوعات دون أخرى[1] ، فإننا لا نرى هذا الرأى ، ونرى أن البحور الشعرية مجرد إيقاعات يمكن أن ينظم عليها كل الألوان ، وهى فى ذلك أشبه بالمقامات الموسيقية التى تصلح لأن يغنى عليها كل ألوان الكلام . ودليلنا على ذلك بشر نفسه ، ولنأخذ البحر الوافر الذى تسنم ذروة الإيقاع الشعرى عنده لنرى ما اتسع له من فنون القول . فعلى هذا البحر نرى هجاءه لأوس بن حارثة فى قصيدته :

تعنى القلبَ من سلمى عناءُ ... فما للقلب مذ بانُوا شفاءُ

وفى قصيدته :

أهمَّتْ منك سلمى بانطلاق ... وليس وصال غانيةٍ بباقِ

وعلى البحر نفسه نسمع مدحه لأوس بن حارثه فى قصيدتيه :

كفى بالنَّأيِ من أسماءَ كافِ ... وليس لحبها إذْ طال شافِ

أتعرفُ من هنيدةَ رسمَ دارٍ ... بخرجيْ ذروةٍ فَلِوى [illegible]

(١) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب [illegible] القاهرة [illegible]
[illegible] ، ٧٥ ، ١٨٨

وعلى ذات البحر نسمع فخر بشر فى جملة من قصائده أبرزها :

ألا بان الخليطُ ولم يزاروا وقلبك فى الظَّعائن مستعار

وعليه أيضا نسمع مرثيته فى أخيه :

ألا يا عينُ ما فابكـى سميرا إذا ظلَّ المطىُّ لها صريف

ومرثيته فى نفسه :

أسائلةٌ عميرة عن أبيها خلالَ الجيش تعترفُ الرِّكابا

إذن فهل نستطيع القول بأن إيقاعات هذا البحر تتوافق مع الفرح أو الحزن أو الغضب ؟! ولكن يبقى السؤال ــ بعد ذلك ــ لماذا إذن مال بشر إلى البحر الوافر ثم إلى الطويل فأكثر فيهما دون غيرهما من البحور ؟

ولكنا نجيبه هذا السؤال بسؤال آخر هو : هل كان بشر بن أبى خازم فذا فى إيثاره هذين البحرين دون سائر شعراء العصر الجاهلى ؟ إن استقراء الشعر الجاهلى أوضح لنا أن أكثر من أربعة أخماسه نظم على أربعة بحور من الشعر هى الطويل والكامل والوافر والبسيط[1] . إذن بشر لم يكن فذا ، وإنما كان ذلك دأب شعراء عصره جميعا .

وطالما أن الأمر كذلك فلماذا لا ندخل ذوق العصر طرفا فى القضية ؟ وهذا ــ فى نظرنا ــ هو المدخل السليم ، إن ذوق العصر كان ميالا لنمط معين من الإيقاع ، وكان على الشعراء أن يستجيبوا له . والدليل أن هذه الأبحر الأربعة بدأت فى التنحى عن مكانتها بدءا من العصر العباسى فأغرى الشعراء بالمجزوءات ، وبالنظم على بحور أخر مما لم تكن لها مكانة هذه البحور الأربعة . أكان ذلك لأن هذه البحور الكبرى فقدت قدرتها على التعبير ، والظن لدينا أنها لم تفقد القدرة على التعبير وإنما فقدت القدرة على التأثير لتغير ذوق العصر الموسيقى . ومالنا نبعد ونحن فى أيامنا هذه نسمع ألحانا لم يمض عليها سوى بعض عقود من الزمان فننكر وقعها ، مع أن معاصريها كانوا على شغف بها ، ولو بعث

(١) موسيقى الشعر العربى . مشروع دراسة علمية . دكتور شكرى محمد عياد . ط جامعة القاهرة ١٩٦٨ .

أحد ملحنيها ودفعت إليه ببعض ما يغنى حديثا وطلبت إليه أن يلحنه لوقعه على ماكان يألف ويألف معاصروه . الأمر — إذن — فى إيثار بشر للوافر أو الطويل مرده إلى ذوق عصره وما يستهويه من إيقاع ولا علاقة — فى نظرنا — بين هذه الإيقاعات وموضوع ما يعزف عليهما من كلمات .

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنزعم أن بيئة نجد كان لها ما تفضله من بحور خلاف ما تفضله بيئة الحجاز أو البحرين ، بل لماذا لا يكون لكل قبيلة لونها المفضل ألم ينظم الحارث بن حلزة معلقته على الخفيف ، بينما نظم عمرو بن كلثوم معلقته على الوافر فى حين نظم عنترة على الكامل والمعلقات الثلاث فى الحماسة ، فلو كان للبحر علاقة بالموضوع كما يقال ، فلماذا لم تأت هذه المعلقات الثلاث على بحر واحد ؟!

وعلى أى فليس هذا كل أمر الموسيقى فى شعر بشر ، وإنما كانت هناك تلوينات موسيقية تصاحب هذا الإيقاع منها ما أشرنا إليه سلفا من المزاوجة اللفظية ، ومنها أن يعمد إلى تكرار كلمة بعينها أو تعبير بعينه أو الاتكاء على حرف بذاته ، أو الموالاة بين حروف اللين أو الشدة أو بين حروف الحلق أو اللسان أو الشفاه أو الإتيان بها على نسق معين .

ونبدأ بالتكرار :

فمن تكرار الجملة قوله :

ألا ياعين ما فابكى سميرا   إذا ظلَّ المطىُّ لها صريفُ
ألا ياعين ما فابكى سميرا   إذا صَعِرَتْ من الغضب الأنوف

ونلفت إلى تماثل البناء فى عجز البيتين أيضا .

وانظر أيضا إلى تكرار « وهم تركوا » فى قوله .

وهم تركوا عتيبة فى مكَرّ   بطعنة لا ألفِّ ولا هيوب
وهم تركوا غداة بنى نمير   شُرَيْحاً بين ضِبْعانٍ وذيب

وانظر إلى تكرار « ولما ألق » فى قوله :

فعز على أن عجل المنايا ولما ألق كعبا أو كلابا
ولما ألق خيلا من نمير تضب لثاتها ترجو النهابا

ومن تكرار كلمة بذاتها تكرار (سلمى) فى قوله :

ديار أقفرت من آل (سلمى) رعى (سلمى) بحسن الوصل راعى
ذكرتُ بهنّ من (سلمى) وداعاً فشاقك منهم بين الـــوداع
فإن تك قد نأتْكَ اليوم (سلمى) فكـلٌ قوى قريـن لانقطــاع

وتكرار كلمة (تميم) فى قوله : .

فأما (تميمٌ) (تميمُ) بن مر فألفاهم القومى روْبى نياما

وكلمة (نعام) فى قوله :

وأما بنو عامر بالنسار غداة لقُونا فكانوا (نعاما)
(نعاما) بخطْمَةَ صعْرَ الخدود لا تطعم الماءَ إلا صياما

وتكرار كلمة « نغنى » فى قوله :

وقد (نَغْنَى) بها حينا و(تَغْنَى) بنا والدَّهر ليس له دوام

وتكرار كلمة (النقع) فى قوله :

فجال على نَفْر تعرُّضَ كوكب وقد حال دون (النقـع) و(النقـع) يسطـع

وكلمة (نفىّ) فى قوله :

تخُرُّ نعالُها ولها (نفىٌّ) (نفىٌّ) الحب تَطْحَرُهُ المُلال

أما الاتكاء على حرف معين فمنه مانراه من الاتكاء على حرف (العين) فى قوله :

قطعت إلى معروفها منكراتها بِعَيْهمَةٍ تنسلُّ والليل هاكع

وفى قوله متكئا على الصاد مع العين :

وكنت إذا هشت يداك إلى العلى صنعت فلم يصنع كصنعك صانع

وعلى حرف الشين فى قوله :

فطارت عامر شتىّ شِلَالاً فما صبرت وما حَمِىَ التبيعُ

وعلى حرف السين فى قوله :

فسل همك عن سلمى بناجية خطارة تَغْتَلِى فى السَّبْسَبِ القذف

وفى قوله ومعها الخاء :

وأنكاسٌ إذا استعرت ضروس   تخلّى من مخافتها النساء

وعلى القاف فى قوله :

وسوف أخص بالكلمات أوسا   فيلقاه بما قد قلت لاقى

وعلى الطاء فى قوله :

بحر جوج يئطّ النسع فيهما   أطيط السمهرية فى الثقاف

وعلى الميم والنون (مع اعتبار التنوين نونا) فى قوله :

فدهمنهم دهماً بكل طمرة   ومقطّعٍ حلق الرّحالة مرجم

وفى قوله :

غضبت تميمٌ أن تقتّل عامر   يوم النِّسَار فأُعتبوا بالصيلم

أما حروف المد فانظر إلى تواليها فى هذا البيت :

يتساقون سمعها فى دروع   سابغاتٍ من الحديد ثقال

وفى البيت :

على أنى على هجران سعدى   أمنيها المودة فى القوافى

وانظر كيف توالت فى الشطر الأول من هذا البيت ثم أعقبتها فى الشطر الثانى الحروف الحلقية :

فيالك حاجةً ومطال شوق   وقطع قرينة بعد ائتلاف

وانظر إليها كيف أعقبتها الحروف المشددة فى هذا البيت :

وكنت إذا دعوت أجاب صوتى   كمى لا ألفّ ولا ضعيف

ولعلنا بعد هذه الأمثلة ندرك أن هناك تلوينات موسيقية أو أنغام فى شعر بشر تصاحب الإيقاع تتمثل فى ترديد جملة أو كلمة أو حرف على نسق معين ، وهذا الترديد أشبه بآلات العزف المصاحبة للإيقاع فى موسيقانا الحديثة فكما تتردد أنغام الكمان أو الناى أو المزمار على نحو معين مرتب نرى الشاعر كذلك يردد أنغامه على ايقاعه الشعرى فيكرر كلمه هنا ، أو جملة هناك ، ويتكىء على حرف هنا أو حرف هناك ، فهنا حروف همس ، وهنا تصعد بالنغمة حروف الجهر ، وهنا تتوالى حروف الحلق التى تشبه الآلات النحاسية .

وهذه التلوينات الموسيقية أو قل التوزيعات الموسيقية هى التى تأتلف بموضوع الشاعر فى نظرنا فالتحكم فيها على نحو معين يعطى نغما رقيقا أو حادا أو صاخبا يتآلف مع ما يأخذ فيه الشاعر من غزل أو حماسة أو رثاء .

نصل الآن إلى أمر عرف به بشر فى موسيقاه الشعرية هو الإقواء ، وقد أورد ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء قول أبى عمرو بن العلاء : « فحلان من فحول الجاهلية كان يقويان بشر بن أبى خازم والنابغة الذبيانى »[1] .

وفى شعر بشر الذى بين يدينا إقواء فى خمسة مواضع . ففى قصيدته العينية :

عفا رسم برامة فالتلاع ... فكثبان الحفير إلى لقاع

أقوى فى البيت الثانى حيث ورد مضموم الروى :

فجنب عنيزة فذوات خيم ... بها الغزلان والبقر الرتاعُ

وأقوى كذلك فى البيتين : العشرين والحادى والعشرين وقد ورد الروى مضموما أيضا :

وكل غَضَارة لك من حبيب ... لها بك أو لهوت به متاعُ

قليلا والشباب سحاب ريح ... إذا ولى فليس له ارتجاعُ

وفى قصيدته العينية :

ألا ظعن الخليط غداة ريعوا ... بشبْوَة فالمَطِىُّ بنا خضوع

أقوى فى البيت الثانى والعشرين إذ ورد مكسور الروى :

عقائلنا ونمنع من يلينا ... بكل مهند صافٍ صنيع

وفى قصيدته :

أحق ما رأيت أم احتلام ... أم الأهوال إذ صبحى نيام

أقوى فى البيت السادس عشر إذ ورد مكسور الروى :

وكانوا قومنا فبغوا علينا ... فسقناهم إلى البلد الشآمى

هذه هى المواطن التى أقوى فيها بشر ، وقد عرفنا أن النابغة أيضا كان يقوى

---

١ ـــ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبه ص ٢٢٧ ، وقد ورد هذا الخبر فى الموشح للمرزبانى ص ٥٩ .

فى شعره ، ونضيف أيضا إليهما عنترة إذ وقع الإقواء فى قصيدته :

ألا يا دار عبلة بالطوى كرجع الوشم فى رسغ المدى

فى البيت :

وقد خذلتهم ثُعل بن عمرو سلاميّوهـــم والجرولى[1]

ووقع أيضا فى البيتين الثانى والثالث من أبياته الأربعة :

أصبر حصين لمن تركت بوجهه أثرا فإنى لا إخا لك تصبرُ

ما سرنى أن القناة تحرفت عما أصابت من حجاج المحجر

إن الكريم ندوبه فى وجهه . وندُوب مرة لا ترى فى المنحرَ

لكن فى أكتافهم ونحورهم فبذاك فافخر بئس ذاك المفخرُ[2]

وأقوى الأعشى أيضا فى قصيدته :

صحا القلب من ذكرى قتيله بعدما يكون لها مثل الأسير المكبل

إذ ورد البيت السادس عشر مضموم الروى :

يجول وشاحاها على أخمصيهما إذاانتقلت جالأعليهايُجَلْجِلُ[3]

ووقع الأعشى أيضا فى التوجيه وهو قريب من الإقواء والتوجيه هو اختلاف الحركة فى الحرف السابق على الروى ، ونرى ذلك فى قصيدته :

أتهجر غانية ، أم تلم أم الحبل واه بها منجذم

وقد وقع التوجيه فى عامة القصيدة فى اختلاف الحركة بين الضم والكسر ، ولم يرد إلا فى بيتين بالفتح هما البيتان الحادى عشر والخامس والعشرين[4] .

إذن فليس الأمر أمر بشر والنابغة إنما هو أمر جملة من الشعراء النجديين .

والذى يلفتنا فى أمر ماورد من أخبار هذا الإقواء أن النابغة لم يكن يشعر بالإقواء فى شعره ، ونبهه أهل الحجاز فلم يتنبه إلا حين غنوا له شعره الذى فيه

---

(١) القصيدة فى ديوان عنترة بتحقيق مولوى ص ٢٦٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢٧ .

(٣) ديوان الأعشى تحقيق د. م. محمد محمد حسين ص ٣٩١

(٤) راجع القصيدة فى ديوان الأعشى ص ٧١ .

إقواء . ونريدك أن تقرأ هذا الخبر معنا ثانيا كما ورد فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

يقول ابن سلام بعد أن أورد الأبيات المشهورة للنابغة التى أقوى فيها :

« فعيب ذلك عليه فلم يأبه حتى أسمعوه إياه فى غناء ـــ وأهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب ـــ فقالوا للجارية : إذا صرت إلى القافية فرتلى فلما قالت : « الغداف الأسودُ » و« يعقدُ » و« باليد » علم وانتبه ، فلم يعد فيه . وقال قدمت الحجاز وفى شعرى ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس »[1] .

والنص كثير الدلالات إذ يبين أن النابغة لم يلتفت إلى ما فى شعره من إقـــواء حتـــى رتلته له الجارية بالغناء والترتيل كما نعلم هو إبانة المنطق والتمهيل والترسل .

ثم يبين أن أهل القرى كانوا ألطف نظرا من أهل البدو ويردف ذلك بأنهم كانوا يكتبون ، إذن فلطف النظر يمت بصلة إلى الكتابة والكتابه تعود من يقرأ أن يميز بين الضم والكسر وغيرهما . ثم لماذا لم يُنبَّه النابغة إلى هذا إلا فى الحجاز ؟..

والأمر ـــ فى نظرنا ـــ يتعلق بطريقة النطق ، وأغلب النطق لدينا أن أهل نجد ـــ إذ ذاك ـــ كانوا لا يضغطون على المقطع الأخير من كلامهم وإذا كان ذلك لم يبن الضم من الكسر والإقواء كما نعلم يكون بين هاتين الحركتين ، وحتى التوجيه فى شعر الأعشى استأثرت به هاتان الحركتان فى عمومه .

ويبدو أن طريقة النطق هذه باقية إلى الآن ، وحينما كنت معارا إلى جامعة الملك سعود فرع القصيم ، والقصيم ديار بشر وموطنه أقرأت طلابى شعر بشر وقصائده التى أقوى فيها بالذات ، فلم أكن أتبين حركة الروى أبالضم هو أم بالكسر لأنهم لم يكونوا يضغطون على المقطع الأخير مما ينطقون به ، ومن يشبه أباه فما ظلم على حد قول كعب بن زهير .

---

(١) ص ١٠٦

(٧)

ولم يكن بشر من عبيد الشعر ، ومع ذلك فقد قرنه ابن سلام فى الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية إلى أوس بن حجر والحطيئة وكعب بن زهير وثلاثتهم — كما نعرف — من عبيد الشعر .

وصحيح أن ابن سلام لم يوضح لنا الأساس الذى بنى عليه طبقاته ولكنا نظن أنه لابد من تجانس ما بين أصحاب الطبقة الواحدة ، ونظن أيضا أن كل طبقة من طبقات ابن سلام تمثل مذهبا من مذاهب الشعر أو منهجا من مناهجه كما نبه إلى ذلك شيخنا محمود شاكر فى بابات مقدمته للطبقات[1] ، إذن فما الجامع بين بشر وبين هؤلاء الشعراء .

وهب أوس بن حجر قلقا فى هذه الطبقة — كما أشار ابن سلام[2] — فما الذى يجمع بشرا بكعب والحطيئة ؟

وصحيح أن الحطيئة يتميز فى بناء صورته بالميل إلى اللقطة الخاطفة ، واللمحة المجزئة وهو فى ذلك أشبه ببشر ، ولكن كعب بن زهير لم يكن من هذا القبيل ، وإنما هو ميال إلى استقصاء جوانب الصوره والنمّاء بجزئياتها ، وإن شئت فاقرأ قوله فى وصف الذئب :

وصحراءَ مِذْكارٍ كأن دويَّها	بعيد جَنَان الليل مما يُخَيِّل
حديث أناسىٍّ فلما سمعته	إذا ليس فيه ما أبينُ وأعقل
قطعت يماشيني بها متضائل	من الطِّلس أحيانا يخب ويعسِل
يحب دنوَّ الإنس منه ومابه	إلى أحد يوما من الإنس منزِل
تقرَّب حتى قلت لم يدن هكذا	من الإنس إلا جاهل أو مضلِّل
مدى النَّبل تغشانى إذا مازجرتُه	قُشَعْرِيرةٌ من وجهه وهو مقبل

(١) انظر ص ٦٦ ومابعدها . طبقات فحول الشعراء . السفر الأول

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٩٧

إذا ماعوى مستقبل الريح جاوبت مسامعهُ ، على الزاد معول
كسوبٌ إلى أن شب من كسب واحـد محالفه الإقتـار لا يتمـول
كأن دخان الرِّمث خالط لونه يُغَلُّ به من باطن ويُجلَّل
بصير بأدغال الضراء إذا خدا يعيل ويخفي بالجِهاد ويمثل
تراه سمينا ماشتـا وكأنـه حميَّ إذا ما صاف أو هو أهزل
كأن نَساهُ شرعـة وكأنـه إذا ما تمطى وجهةَ الرِّيح مَحْمَلُ(١)

وإن شئت أيضا فاقرأ قوله فى وصف القطا :

يجتاز فيه القطا الكدرىُّ ضاحيةً حتى يؤوبَ سِمَالاً قد خلت خلفا
يسقين طُلْساً خفيات تراطنها كما تَرَاطَنُ عجمٌ تقرأ الصحفا
جوانح كالأفانى فى أفاحصها ينظرن خلف روايا تستقى نُطفا
حمر حواصلها كالمُغْدِ قد كسيت فوق الحواجب مما سبَّدت شغفا (٢)

وقد عرضنا عليك هاتين الصورتين لتتمثل منهج كعب فى بناء صورته ، كيف يدقق فى الجزئيات ، وكيف يفرع عليها ، وكيف يولد معانيه ، وكيف لا يترك الصورة إلا وقد وصلت إلى تمامها ، واستجمعت كل خطوطها وخيوطها ، وما نظنه فى ذلك من نهج صاحبيه فى شىء إذن ففيم يتفق الشعراء الثلاثة ؟

لعل ما يتفق فيه الشعراء الثلاثة فى نظرنا هو مادة بناء الصورة ، أو قل الطبيعة البدوية فى كل منهم ، وقد سبق أن ألمحنا إلى هذه السمة فى شعر بشر ، أما الحطيئة فإن قراءة سريعة لديوانه تقفك على هذه السمة البدوية الخشنة فى شعره ، فانظر مثلا إلى المعين البدوى الذى يستقى منه مادة صوره فى هجائه للزبرقان :

ما كان ذنب بغيض لا أبا لكم فى بائس جاء يحدُو آخر الناس
لقد مَرَيْتكم لو أن درَّتكم يوما يجئُ بها مسحى وإبْسَاسى
وقد مدحتكم عمدا لأرشدكم كيما يكون لكم مَتحى وإمْراسَى

(١) انظر شرح ديوان كعب بن زهير ط الدار القومية ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م ص ٤٦ .
(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص ٧٦ .

وقد نظرتكم إعشاءَ صادرة للخمس طال بها حوزى وتنْساسى[1]

أرأيت إلى المرى والمسح والإبساس والصادرة للخمس والحوز والتنساس وهى كلها مأخوذة من معاطن الإبل ، هل تظن أن هذه الأبيات ــ لو لم تعرف أنها للحطيئة ــ لغير راع من رعاة الإبل . وأنظر أيضا إلى المادة نفسها يستقى منها صوره فى فخره بقومه ووعيده لبنى سهم :

ولو وجدت سهمٌ على الغىّ ناصرا لقد حلبت فيها نساء وصرّتِ
ولكن سهما أفسدت دار غالب كما أعدت الجربُ الصحاحَ فعرت
وجرثومة لا يبلغ السيل أصلها رسا وسط عبسٍ عزها فاستقرت
وإن المخاض الأدم قد حال دونها متاب من الخرصان لانت وترت[2]

ثم اقرأ أيضا قوله مادحا آل شماس مفضلا لهم على الزبرقان :

فإن تك ذا شاء كثير فإنهم ذوو جامِلٍ لا يهدأ الليل سامره
وإن تك ذا قَرْمٍ أزبّ فإنهم ستلقى لهم قرما هجانا أباعره
لهم سُورة فى المجد لو يرتدى بها براطيل جواب نبت ومناقره
قروا جارك العيمان لما تركته وقلّص عن برد الشراب مشافره
سناما ومحْضاً أنبتا اللحم فاكتست عظام امرىء ما كان يشبع طائره[3]

أرأيت إلى جو البادية التى تنقلك إليه الأبيات الشاء ، الجامل الذى لا يهدأ سامره ، القرم الأزب ، الهجان والأباعر ، الجمل المتقلص المشافر العازف عن الماء ، السنام ، اللبن المحض ، ثم ذلك الذى ينقر الحجر ببراطيله ، ثم تلك الطيور الساغبة .

ثم انظر أيضا إلى صورة هذه المرأة البدوية التى قامت بمسحاتها تصلح النؤى توقعا للمطر :

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٨٣ .
(٢) ديوان الحطيئة ص ٣٤٢ .
(٣) ديوان الحطيئة ص ١٨٤

خلا النؤى بالعلياء منه يعفه البلى إذا لم تأوّنه الجنوب تباكره
رأت رائحا جوناً فقامت غريرة بمسحاتها قبل الظلام تبادره
فما فرغت حتى أتى الماء دونها وسدت نواحيه ورفع دابره[1]

واقرأ له أيضا هذه الصورة التي لا يتقن رسمها إلا إعرابي :

وأنى اهتدت والدوّ بيني وبينها وما كان سارى الدو بالليل يهتدى
تسديتنا من بعدما نام ظالِعُ الكلاب ، وأخبى ناره كل موقد[2]

أرأيت كيف عبر عن الوقت بنوم الكلاب الظالعة ، وانطفاء النيران الموقدة .

وأنت لاتني تقف في شعر الحطيئة على مشاهد من حياة البادية ؛ وعولها ، وطيورها ، وضبابها يستمد منها الشاعر صورته . فالخيل كأنها وعول كهاف أعرضت لوعول في قوله :

وخيل تُعادى بالكماة كأنها وعول كهاف أعرضت لوعول[3]

وعينا ممدوحه كعيني الصقر تهديه إذا حار الناس :

كأن طرف قطاميّ بمقلته إذا حار هداة الناس لم يحر[4]

وأطفاله كفراخ القطا الصغار .

لزغب كأولاد القطا رات خلفها على عاجزات النّهض حمر حواصلُه[5]

ومهجوّاه ضبييان حجليان :

ضبييان حجْليان في آمن الكُدَى إذا ما أحسا حارش الليل ذنّبا[6]

والخيل تخرج من الغبار كما تخرج الذئاب من غدر الأرض :

إذا ثار الغبار خرجن منه كما خرجت من الغُدُرِ السِّراحُ[7]

إذن هي الروح نفسها التي تسرى في شعر بشر ، وهو المعين نفسه الذى يستقى منه صوره .

ونأتى بعد ذلك إلى كعب فإذا هو الآخر بدوى قح يعيش مع الصحراء بحسه ووجدانه ، وتعيش معه الصحراء بكل مشاهدها الصامتة والحية ، بمفاوزها

(١) المرجع نفسه ص ١٨٠
(٢) الديوان نفسه ص ١٤٨
(٣) نفسه ص ٩
(٤) نفسه ص ٧٠
(٥) نفسه ص ٢٣٩ .
(٦) ديوان الحطيئة ص ٣١٣
(٧) نفسه ص ٣٢٤.

ووحوشها ، وحياتها وصلالها ، وتقرأ شعر كعب فتحس أن ما يصفه من أمر الصحراء يكاد يتحرك أمامك ، فتحس الهول والفزع ، وتشعر بالقسوة وخشونة الحياة ، ولا نظن أن شاعرا سوى كعب أفرد للحديث عن الصحراء ما أفرده من قصائد ، ومعظم قصائد ديوانه خالصة لهذا الغرض ، ونحيلك إلى بعض هذه القصائد فى ديوانه ، فاقرأ له إن شئت قصيدته :

أمن أم شداد رسومُ المنازلِ   توهمتُها من بعد سافٍ ونائلِ[1]

وقصيدته :

أمن دمنة الدار أقْوت سنينا   بكيتُ فظَلْتُ كئيبا حزينا[2]

وقصيدته :

ألى ألم بك الخيال يطيف   ومطافه لك ذكرةٌ وشغوفُ[3]

وقصيدته :

أبت ذكرة من حب ليلى تعودنى   عياد أخى الحمى إذا قلت أقصرا[4]

وقصيدته الفذة الرائعة :

إن عرسى قد آذنتنى أخيرا   لم تعرِّجْ ولم تؤامــر أميرا[5]

وقصيدته :

ألما على ربع بذات المزاهر   مقيم كأخلاق العباءة داثرِ[6]

وقصيدته :

نفى شعر الرأس القديم حوالقهُ   ولاح بشيب فى السواد مفارقه[7]

وليس فى كل هذه القصائد سوى الصحراء .

ونظن بعد ذلك أن ابن سلام لم يجاوز الصواب حين وضع هؤلاء الشعراء الثلاثة فى طبقة واحدة ، فقد رأى بحسه الناقد أن ثمة نبعا واحدا يغرف منه ثلاثتهم ، وأنه ثمة طابعا يطبع شعرهم ، وأن الشعراء الثلاثة صدروا عن ورد واحد وإن تباينت بعد ذلك أنماطهم فى البناء والتركيب .

(١) شرح ديوان كعب ص ٨٩
(٢) نفسه ص ٤٢
(٣) نفسه ص ١٢٢ .
(٤) نفسه ص ١٢٢
) نفسه ص ١٥٣
،) نفسه ص ١٨٥
(٧) نفسه ص ١٩٠

الفصل الخامس
ما خرج عن السياق

تبقى — بعد ذلك — فى ديوان بشر أشعار شارده استعصت على السياق ، أو استعصى عليها ، وهذه الأشعار تمثل — فى نظرنا — ثلاثة أنواع نفصل فيما يلى القول فى كل منها :

النوع الأول :

وهو — فيما نعتقد — أشعار صحيحة النسبة لبشر ، ولكنا لم نستطع أن ننظمها فى سلك السياق التاريخى لأنها إما مقدمات قصائد ضاع — فيما نظن — موضوعها فبقيت حائرة محيرة ، وإما أنها تشير إلى حوادث ضيقة محدوده لم نستطع أن نحدد مكانها من حياة بشر ، وإما أنها من القصر والإبهام بما لايمكن القارىء من إدراك خلفيتها ، ونعرض أشعار هذا اللون واحدة واحدة حسب ورودها فى الديوان .

١ — القصيدة :

أمن ليلى وجارتها تروحُ وليس لحاجةٍ منها مُريحُ

وعدتها أربعة وعشرون بيتا ، وهى القصيدة رقم (١١) فى الديوان .

وهى تبدأ بالوقوف على طلل المحبوبة حيث يستغرق الشاعر فى ذكرياته فتفيض دموعه ثم يخرج الشاعر من هذا الموقف بناقته الضامرة المرحة :

ولم أبرح رسومَ الدار حتى أزاحت علَّتِى خَرَجٌ مَرُوحُ

وفى خطوط سريعة — على عادة بشر — نرى من أوصاف الناقة ما يوحى بقوتها وصلابة بنيانها ثم يستطرد بشر فيشبه ناقته بثور وحشى تضيفته فى « سويقة » ليلة باردة عاصفة ممطرة حتى إذا كان الصباح ظهرت كلاب الصياد الغضف ، ويفصل بشر بعض الشىء صورة المعركة التى دارت بين الثور والكلاب إلى أن يخرج الثور منتصرا وتذهب الكلاب بين قتيل ولائذ بالفرار ، ويقف الثور ينفض غمرات المعركة عنه تلوح طرته كسوار من عاج :

وأصبح ينفض الغمراتِ عنه كوقْفِ العاج طُرّتهُ تلوحُ

وتنتهى القصيدة بهذا البيت .

وفى ظننا أن القصيدة بهذا الشكل سقط منها ما يخص الموضوع الرئيسى فيها ، وأن مابقى منها ليس سوى المقدمة .

٢ ـــ الأبيات :

يا فارساً ما فادَ أوّل فارس ثقفاً إذا انفلت العنان من اليد

بجوار من تثقون بعد جُنيْدِبٍ أم من يفى لكم طوال المُسْنَدِ

ومن الحوادث أن آل جنيدب فلّ كفلّ العانة المتطرد

وهى برقم (١٤) فى الديوان .

والأبيات كما ترى لا تشير إلى وقعة محددة ، كما أننا لا نقطع بمعرفة لآل جنيدب هؤلاء ، وإن كنا نرجح أن « جنيدب » هنا تصغير جندب من باب التحقير ، ولعلهم ـــ إن صدق منا الحدس ـــ جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم[1] ، وإذا صح ذلك كان لنا أن نقول إن الأبيات نظمت بعد وقعة النسار ، ولكن الأمر ـــ كما ترى ـــ مجرد ظن .

٣ ـــ المقطوعة :

وجنبتها قُرّانَ إنّ لأهلها على هديًا أو أموت فأقبرا

لعمرك ما يطلبن من أهل نعمة ولكنما يطلبْن قيساً ويشكرا

تراءَوْا لنا بين النخيل بعارض كركن أبانٍ مطلعَ الشمس أخضرا

فصُعنا ولم نجبن ولكن تقاصرت بإخواننا عُند الجدود تقصرا[2]

وهى المقطوعة رقم « ٢٠ » فى الديوان .

وواضح أن الشاعر يقصد « بالهدىّ » ثأرا يطالبه به أهل قران ، ولذلك فهو يجنب مطيته هذا المكان ، ويشير الشاعر بعد ذلك إلى معركة حدثت فى عارض ودارت دائرتها عليه وعلى من معه برغم ما بذلوه من ضروب الشجاعة .

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٢٠٨ .

(٢) اقرأ « عُند الجدود » بضم العين أى الجدود المعاندة .

أما قران وعارض فهما من منازل اليمامة ، ومعروف أن اليمامة كانت موطن قبيلة بكر ومن بطونها قيس ويشكر .

وقد وقعنا في ديوان الأعشى على ما قد يفسر هذه الأبيات ، أو يكشف غموضها بعض الشيء ، إذ يحدثنا عن وقعة دارت بين عصبة من قومه وبين عصبة من الرباب وبنى أسد ، وأن العصبة البكرية عرضت الصلح فلم يقبل منهم ، وذلك فى قوله :

إن الرِّبَابَ وحيًّا من بنى أسد ... منهم بقيِّر ومنهم ساربٌ سلفُ
قد صادفوا عصبةً منا وسيِّدَنا ... كل يؤمل قنْيَاناً ويطَّرِفُ
قلنا: الصِّلاح، فقالوا: لا نصالحكم ... أهل النبُوك وعيْرٍ فوقها الخصف

وقيل فى مناسبة أبيات الأعشى : إن رجالا من بنى بكر قد خرجوا غازين يتزعمهم عبدِ عمرو بن بشر بن مرثد ، فاعترضت طريقهم الرباب وبنو أسد ، فسألهم عبد عمرو أن يدعوه لشأنه ، وأخبرهم أنه لم يقصد لقتالهم فأبوا فقاتلهم ، وكان مع الرباب رجل اسمه يزيد بن القحادية أحد فرسان العرب من تميم وهو الذى يكنيه الأعشى بأبى شريح ، وكان من المحرضين على القتال ، وقتل فى هذا اليوم[1] .

ولعل هذا يتواءم مع قول بشر :

فصعنا ، ولم نجبن ولكن تقاصرت ... بإخواننا عُنـدُ الجدود تقصرا

ويلفتنا فيما ورد من مناسبة أبيات الأعشى ذلك الفارسى التميمى الذى كان فى صفوف الرباب وبنى أسد ، ألعل هذه الوقعة ــ إذن ــ كانت قبل أن يدب الخلاف بين تميم وبين الرباب ثم بنى أسد. وإذا صح ذلك فقد كان الأمر قبل وقعة النسار ، ولكنه أيضا مجرد ظن وعليه فقد فضلنا أن تبقى هذه المقطوعة خارج السياق .

(١) انظر ديوان الأعشى تحقيق د . محمد حسين ص ٣٤٤

٤ ـــ القصيدة :

أمن دمنة عادية لم تأنّسِ بسقط العوى بين الكثيب فعسعس

وهى القصيدة رقم « ٢١ » فى الديوان وعدتها اثنان وعشرون بيتا . ويعترى الشك نسبة هذه القصيدة إلى بشر فقد ذكر أنها من رواية المفضل ، ومع ذلك لم يثبتها فى المفضليات ، وقيل إن بعض الكوفيين ـــ ولعله أبو عمرو الشيبانى ـــ ينسبها إلى بشر .

ولعل مصدر الشك فى هذه القصيدة هو أنها جاءت على وزن وروى قصيدة امرىء القيس :

أماوىّ هل لى عندكم من معرّسِ أم الصرّم تختارين بالوصل نيأس

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل نرى هناك عديدا من أبيات القصيدتين تكاد تتفق فى اللفظ والصورة ، ونعرض هذه الأبيات :

بشـــر :

كأنى وأقتادى على حمْشَةِ الشّوَى بحربةَ أو طاوٍ بعُسْفَان موجِسِ

امرؤ القيس :

كأنى ورحلى فوق أحقبَ قارحٍ بشربة أو طاو بعرنان موجس

بشـــر :

تمكّثَ حينا ثم أنحى ظُلُوفه يثيرُ الترابَ عن مبيتٍ ومكنس

امرؤ القيس :

تعشى قليلا ثم أنحى ظُلُوفه يثيرُ الترابَ عن مبيت ومكنس

بشـــر :

برحٌ كأصداف الصّنّاع قرائن إثارة معطاشٍ الخليقة مخمس

امرؤ القيس :

يهيل ويــذرى تربها ويـثيره إثارة نبّات المواجر [illegible]

بشـــر :

فباكره عند الشروق غدية كلابُ ابن مُرٍّ أو كلاب ابن سنبس

امرؤ القيس :

فصبحه عند الشروق غدية كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس

بشر :

وأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما خرَّق الولدان ثوب المقدس

امرؤ القيس :

البيت نفسه .

وفى رأينا أن هذا التشابه مع كثرته لا يسقط القصيدة من شعر بشر فربما أغار بشر على بعض أبيات امرىء القيس وهذا تصرف كان لا ينكر من الشعراء ، ولا يجد الشاعر المغير غضاضة فيما يفعل . ولو أن القصيدتين تصلحان قصيدة واحدة لحكمنا بالقصيدة كلها لامرىء القيس ، ولظننا أن الأمر خلط من الرواة ، ولكن القصيدتين لا يمكن دمجهما فى واحدة .

أضف إلى ذلك أن ماخلص لبشر من القصيدة يحمل طابعه الذى يقوم على اللقطة الخاطفة ، وإذا كانت قصيدة بشر تربو فى الطول على قصيدة امرىء القيس فما ذلك عن تأن أو استقصاء ، وإنما لأن بشرا ضمن قصيدته من وصف بعض أجزاء ناقته ، والمضى فى معركة الثور والكلاب إلى النهاية وذلك مالم يعبأ به امرؤ القيس .

ولكن التأنى واضح فى أبيات امرىء القيس ، فهو يتأنى مثلا فى وصف حال الثور فى مبيته ، وفى وصف الأرطاة التى لجأ إليها فيشبه الثور بالأسير المكردس ، والأرطاة ببيت المعرس :

فبات على خدٍّ أحمَّ ومنكب وضجعتهُ مثل الأسير المكردس

وبات إلى أرطاة حقف كأنها إذا ألثقتها غبيةٌ بيتُ معرس

ويتأنى مرة ثانية فى وصف الكلاب بينما يمضى بشر مكتفيا بنسبتها إلى أصحابها . يقول امرؤ القيس :

مغرثةً زرقا كأن عيونها من الذَّمْرِ والإيحاء نوار عضرس

وعلى أى فنحن نرى صحة نسبة أبيات بشر . ويبدو لنا — أيضا — أنها مقدمة سقط موضوعها .

٥ — الأبيات :

إنا وباهلةَ بن يَعْصُرَ بيننا داءُ الضرائر ، بِغضَّةٌ وتقافى
من يثقَفُوا منا فليس بمُفْلِتٍ أبدا ، وقتل بنى قُتيبة شافى
بَلّت قتيبةُ فى النَّواء بفارس لا طائش رعش ، ولا وقاف

وهى رقم « ٣٣ » فى الديوان .

والأبيات كما نرى لا تشير إلى أى حادثة سوى هذه العلاقة الغريبة بين قوم بشر وباهله بن يعصر ، ومن ثم استعصت على السياق .

٦ — المقطوعة :

ألا هل أتاها كيف ناوأ قومها بجنب قُلابٍ إذ تدانى القبائل

وهى مقطوعة من خمسة أبيات برقم « ٣٧ » فى الديوان .

والأبيات تشير إلى يوم « قلاب » الذى انتصرت فيه بنو أسد على بنى ضبيعة ولد قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، ويشير بشر فى الأبيات إلى ما فعله قومه ببنى ضبيعة ، وإلى أنهم قتلوا سيدهم :

تولَّوْا عليهم يضربون رءوسهم كما تعضدُ الطلح الوَرِيقَ المعادلُ
قتلنا الذى يسمُو إلى المجد منهم وتأوى إليه فى الشتاءِ الأرامل

ولعله يقصد بهذا السيد بشر بن عمر بن مرثد الضبعى الذى قتله عميله الوالبى ، والمعروف أن بنى والبه هم قوم بشر الأدنون[1] .

والأبيات فضلا عن ذلك تشير إلى مكان اليوم وهو « دمخ » .

فلا قاهم منا بدَمْخ عصابةٌ على المقربات الجرد شيبا [illegible]

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ص ١٩٤

و« دمخ » كما يقول ابن بليهد يقع فى عالية نجد مقاربا لجبل ثهلان[1] إذن فالمعركة كانت على حدود ديار بكر الغربية .

ولعل هذه الأبيات تفسر أبيات بشر الآنفة التى يتحدث فيها عن تجنبه لقران ، وتفسر لنا أيضا سر هذه العداوة التى كانت بين بنى أسد وبين بعض بطون بكر .

ونظن أن يوم « قلاب » كان سابقا للوقعة التى تحدث عنها بشر فى قصيدته الرائية .

إذن فنحن نرجح أن تكون هذه الأبيات سابقة ليوم النسار ، ولكن الأمر لا يعدو الظن ، ولذلك أفردناها عن السياق .

٧ ــ الأبيات :

لقد دافعت علقمة بن عمرو   تجاه الباب مجتمعَ الخصوم
ومسعودا وأرقم لم أضعه   وإذ أرقيهما كرُقى السليم
سأجزيكم بما أبليتمونى   وقد يأتى الثوابُ من الكريم

وهى الأبيات رقم « ٤٤ » فى الديوان .

ولم نستطع أن نتحقق من أى من الأعلام التى ورد ذكرها فى الأبيات ، وعلى هذا تبدو الأبيات لنا غامضة .

٨ ــ المقطوعة :

لم تر عينى، ولم تسمع بمثلهم   حيا كحى لقيناهم ببسيانا

وهى أربعة أبيات برقم « ٤٥ » فى الديوان ، وفى البيت الرابع اختلال فى الشطر الأول إذ ورد :

ماذا تذودون لله أمكم   جمع الحليفيْن فرسانا وركبانا

(١) صحيح الأخبار حـ ٢ ص ٩٦ .

ويبدو أن تحريفا ألم به فسقطت بعض حروفه .

ولا نعرف ـــ بعد ـــ من هؤلاء الحى الذين يتحدث عنهم بشر ، ولا جمع الحليفين الذى يشير إليه .

النوع الثانى :

وأشعار هذا النوع فى ظننا محمولة على بشر ، ونعرضها على ترتيبها الذى وردت به فى الديوان .

١ ـــ المقطوعة :

أجدّ من آل فاطمةَ اجتنابا وأقصر بعدما شابت وشابا

وهى خمسة أبيات برقم « ٦ » فى الديوان .

وهذه الأبيات هى الأبيات رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٠ من بائية معود الحكماء معاوية بن مالك المروية فى المفضليات برقم « ١٠٥ » ، وفى الأصمعيات برقم « ٧٦ » مع خلاف بسيط فى اللفظ فى البيت الأول والبيت الأخير . فالبيت الأول فى قصيدة معود الحكماء .

أجد القلب من سلمى اجتنابا وأقصر بعدما شابت وشابا

بينما الشطر الأول عند بشر « أجد من آل فاطمة اجتنابا » والبيت الأخير فى ديوان بشر .

وناجيةٍ حملتُ على سبيلٍ كأنّ على مَغَابِنِها مَلَابا

بينما هو عند معود الحكماء :

وناجية بعثت على سبيل كأن على مغابنها ملابا

وهو خلاف غيرَ ذى بال .

والأبيات فى قصيدة معود الحكماء تمثل شطرا من المقطع الطللى ثم بيت الخلوص إلى وصف الناقة ، إذن فهى أبيات أساسية لا نستطيع أن ننتزعها من القصيدة بادعاء أنها مدخولة عليها .

ويبدو أن نسبة هذه الأبيات إلى بشر تمت على أساس ما فيها من شكوى الشيب والكبر ، وقد عهدنا ذلك فى مقدمات قصائد بشر وقد مر بنا قوله :

رأتنى كأُفْحُوص القطاةِ ذؤابتى ... وما مسَّها من مُنْعِمٍ يستثيبها

وقوله :

فإن تك قد نأتنى اليوم سلمى ... وصدت بعد إلْفٍ عن مشيبى

فقد ألهو إذا ما شئت يوما ... إلى بيضاء آنسة لعوب

٢ ــ القصيدة :

تناهيتَ عن ذكر الصبابةِ فاحكمِ ... وما طربى ذكرا لرسم بسمسمِ

وهى رقم « ٤٠ » فى الديوان وعدتها ٣٤ بيتا .

وبعض أبيات هذه القصيدة متنازع عليه فى النسبة بين المسيب بن علس والمتلمس ، ويرى محقق الديوان أن القصيدة أصيلة لبشر وإن تداخلت معها أبيات من قصيدة المسيب بن علس .

ألا أنعم صباحا أيها الربع واسلم ... نحييك عن شحْطٍ وإن لم تكلم[1]

ولكنا نرى أن هذه القصيدة برمتها ليست لبشر فالسياق التاريخى والسياق الفنى كلاهما ينكرها ، ونستطيع أن نعرض حجتنا فى نفى هذه القصيدة فى ثلاث نقاط هى :

ا ــ القاموس اللفظى فى هذه القصيدة غريب عن قاموس بشر ، فلم يرد فى شعر بشر ذكر للنعاج ، والخدارى ، والربط ، والرقم ، والتهاويل ، وكناز اللحم ، وخدب الأنياب بمعنى طويلها ، وعنية بمعنى أبوال الإبل المتخذ منها أخلاط تعالج الجرب ، ورعابيل بمعنى مزق وكل هذه من الألفاظ المستخدمة فى القصيدة ، ولعل ذلك فى حد ذاته سبب كاف لإسقاط القصيدة من شعر بشر لأن لكل شاعر كما نعلم ألفاظه التى يدور حولها فى شعره لا يكاد يتجاوزها ، فإذا وجدنا

(١) انظر هامش ص ١٩٢ ديوان بشر .

بعد ذلك ما يخالف هذه الألفاظ كان لنا أن نتوقف ونرهف السمع لتمييز هذه الأصوات الغريبة .

وربما يمت إلى هذه النقطة بسبب مانراه من ذكر لأماكن ترد أسماؤها ولم نسمع بها فى شعر بشر من ذلك « سمسم » ، و« برقة ثمثم » و« جفر يبمبم » و« جنة ملهم » .

ب ـــ النهج الفنى فى القصيدة مخالف تماما لما تعودناه من بشر ، فقد عهدنا من بشر الاعتماد على اللقطة واللمحة ، وعدم استقصاء جوانب الصورة ، وما رأيناه أبدا يقف عند ناقته مصوبا ومصعدا ومتتبعا لأجزاء جسدها ، ولكن انظر ماوصف به شاعر هذه القصيدة ناقته :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم
كميت كناز اللحم أو حميرية ... مواشكة تنفى الحصى بمثلم
كأن على أنسائها عذق خصبة ... تدلى من الكافور غير مكمم
تُطيفُ به طورا وطورا تُلِطُّه ... على فرج محروم الشراب مصرَّم
تَشُبُّ إذا ما أدلج القوم نيرةً ... بأخفافها من كل أمعز مظلم
وتأوى إلى صلب كأن ضلوعه ... قرونُ وعول فى شريعة مأزم
تلاقت على برد الصقيع جباهُها ... بعُوج كامثال العريش المدمم
لها عجز كالباب شد رتاجُه ... ومستتلِع بالكورُ ضخم المكدَّم
وأتلعُ نهاض إذا ما تزيدت ... يُزَاعُ بمجدول من الصِّرف مؤدَم

ونجتزىء بهذا من وصف الناقة ، ونسأل أهذا نهج بشر فى بناء صورته ؟ أهذا نهجه الذى يعتمد على العبارات القصار المتعاقبة أو المتداخله ، لم نر له فيما مر بنا من شعر مثل هذا البناء :

وأتلع نهاض إذا ما تزيدت ... يزاع بمجدول من الصرف مؤدم

إن هذه صنعة شاعر محكك ، وبشر لم يكن من هذا الطراز .

حـ ـــ القصيدة بعد ذلك فى المدح ، وهى فى مدح ابن قران ودلك قول شاعرها :

إلى ربك الخير ابن قران فاعلمى   ثُمامَة مأوى كل مثر ومعدم

ومن ثمامة ابن قران هذا ؟

إنه فى ظننا ابن قران بن نعيم بن قعنب بن مالك بن أعصر الباهلى ابن زينب بنت الحارث بن رياح عقيلة نساء بنى يربوع[1] فما صلة بشر بهذا الباهلى ؟ أليس بين قوم بشر وباهلة داء الضرائر على حد ما مر بنا من قوله :

إنا وباهلة بن يعصر بيننا   داء الضرائر بغضة وتجافى

فهل نعقل ـــ بعد ذلك ـــ أن يمدح بشر ابن قران ؟

لا ريب عندنا أن القصيدة ليست لبشر .

٣ ـــ البيت :

إن العريمة مانع أرماحُنا   ما كان من سحم بها وصفار

وهو البيت المحمول على بشر فى ملحق الديوان برقم « ٢٨ » والبيت للنابغة وصحته :

إن الرميثة مانـع أرماحُنـا   ما كان من سَحَيم بها وصَفَارِ[2]

النوع الثالث :

وهى أشعار نتوقف عندها فلا نثبتها أو ننفيها ، وهى تتمثل فى بعض أبيات الحقت بالديوان منسوبة إلى بشر جمعها المحقق من بعض كتب الأدب واللغة . وهى لا تتجاوز بضعة عشر بيتا معظمها فذ وبعضها تؤام .

على أن هذه الأبيات وإن توقفنا عندها فإن فى النفس منها شيئا لأنها فى

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٥ وكذلك العقد الفريد حـ ٥ ص ٢٤٠ .

(٢) انظر ديوان النابغة ص ٦٠ ط دار المعارف .

معظمها روايات آحاد فمنها مثلا ما انفرد الجاحظ بروايته فى البيان والتبيين ، والحيوان ، والبرصان والعرجان[1] وذلك قول بشر .

لله در بنى الحذّاء من نفر وكل جارٍ على جيرانه كَلِبُ
إذا غَدَوْا وعصى الطلح أرجلُهم كما تُنصَبُ وسط البيعة الصلب

فمن أين وقع للجاحظ هذان البيتان .

ومن هذه الأبيات ما يتمشى مع نسق سياق شعر بشر والحوادث التى وردت فيه كذلك القول :

وأفلت حاجبٌ فوت العوالى على شقاء تلمع فى السراب
ولو أدركن رأس بنى تميم عفرْنَ الوجه منه بالتراب

وهذان البيتان يتفقان مع قول بشر :

وأفلت حاجبٌ تحت العوالى على مثل المولّعة الطلوب

ولكنا نتوقف فى الحاق البيتين ببشر خشية أن يكون ذلك من فعل بنى أسد بعدُ رغبةً فى تكثير شعرهم ومن هذه الأبيات ما تتفق ألفاظه مع قاموس بشر اللفظى ومن ذلك ما نسبه إليه صاحب أساس البلاغة :

وكادت عيابُ الود منا ومنكم وإن قيل أبناء العمومة تصفر

ولبشر بيت قريب من ذلك فى لفظه وهو :

فإذْ صفرت عياب الود منكم ولم يك بيننا فيها ذمام

ولكن ربما يكون هذا التشابه اللفظى هو الذى حمل على نسبة البيت لبشر بينما هو لشاعر آخر .

ومن هذه الأبيات ما نظم على أبحر لم ينظم عليها بشر كذلك القول :

وطائر أشرف ذو خزرة وطائر ليس له وكر

---

(١) البيان حـ ٧٥/٣ الحيوان حـ ص ٣١٦ والبرصان ص ٢٣٩ .

وقد ورد في اللسان وهو من البحر السريع ، وليس لبشر على هذا البحر شيء . ولكن من يدرى !!.

على أى فلم نتبين من هذه الأبيات الملحقة إلا بيت النابغة وقد أوردناه في النوع الثانى ، أما سائر الأبيات فلا نستطيع عنده إلا التوقف .

مختارات من شعر
بشر بن أبى حازم

وقال في وقعةٍ كانت في بَني سَعد بن زيد مَناة، وبني حَنظَلَة(*):

١ - تَعَنّــاكَ نَصْبٌ من أُمَيْمــةَ مُنْصِبُ   كَــذِي الشَّوْق لَمَّا يَسْلُهُ وَسَيَـذْهَبُ

٢ - رَأَى دُرَّةً بَيْضــاءَ يَحْفِـلُ لَــونَهــا   سُخــامٌ كغِـرْبــانِ البَـرِيــرِ مُقَصَّبُ

٣ - ومــا مُغْزِلٌ أَدْمــاءُ أَصبَـحَ خِشْفُهــا   بــأَسْفَــلِ وادٍ سَيـلُهُ مُـتَـصَـوِّبُ

٤ - خَذولٌ مِنَ البِيضِ الخدودِ دَنَا لها   أَراكٌ بِــرَوْضــاتِ الخُــزامَى وحُـلُّبُ

(*) ا ب: زيد بن مناة (غلط) وبنو سعد بن زيد مناة وبنو حنظلة قبيلتان من تميم وكان بين بني أسد قوم بشر وبين بني تميم أيام أشهرها يوم الجفار. وفيه قتلت تميم قتلا شديداً، وأخرجتهم بنو أسد من ديارهم (شرح المفضليات ٣٧٠).

(١) البيت في تفسير الطبري ٢٣/٩٥.
ا ب: الشوق، تفسير الطبري: الشجو.
تعنى: أتعب وأشقى. النَّصْبُ: الداء والبلاء.

(٢) البيت في المقاييس ١/١٨٠، ٢/٨٢، واللسان (غرب، قصب، حفل، سخم).
درة بيضاء: يريد امرأة بيضاء. يحفل لَونها: يجلوه ويزيده بياضاً. السخام من الشعر: الأسود، وهو المراد ها هنا، ويريد به شعرها الأسود. البرير: النضيج من ثمر الأراك، وغراب البرير: عنقوده الأسود، وجمعه غربان. المقصَّب: الشعر الملتوي المجعد، من التقصبة وهي الخصلة من الشعر تلوي لياً حتى تترجل، ولا تضفر ضفراً. يريد أن شعرها الأسود يشبّ بياض لونها فيزيده بياضاً بشدة سواده. وقال البكري ٢/٨٢: «وهذا كأنه جلاها وهو من الكلام الحسن جداً».

(٣) مغزل: أي ظبية مغزل، وهي التي لها غزال، والغزال صغير الظباء. أدماء: بيضاء، والأدمة في الناس السمرة الشديدة، وفي الإبل والظباء البياض. الخِشْف: ولد الظبي أول مشيه. المتصوب: المنحدر، من التصوّب وهو الانحدار.

(٤) الخذول من الظباء: التي تخذل صواحبها وتتخلف عنها وتنفرد مع ولدها. والحلب: نبات ترعاه الظباء.

٥ ـ بأحْسَنَ منها إذ تَراءتْ وذُو الهوى حــزيـنٌ ولكـنّ الخـليطَ تجـنَّبُــوا

٦ ـ نَـزَعْتُ بأسبـاب الأمورِ وقـد بَـدا لِـذِي اللُّبِّ منها أيُّ أمْـرَيْـه أصْـوَبُ

٧ ـ فـأبلِغْ بني سَعْـدٍ ولـن يَتَقبَّـلُوا رســولي ولكـنّ الحــزازةَ تُـنْصِــبُ

٨ ـ حلفتُ بـربِّ الدّامياتِ نُحورُهـا ومـا ضَمَّ أَجْـوازُ الجِـوَاءِ ومِـذْنَبُ

٩ ـ وبـالأدمِ يَنْظُرنَ الجِـلالَ كـأنَّهـا بـأكـوارهــا وسْطَ الأراكَـةِ رَبْـرَبُ

١٠ ـ لَئِنْ شُبَّتِ الحربُ العَوانُ التي أرى وقـد طــالَ إيعــادٌ بهــا وتَــرهُّــبُ

١١ ـ لَتَحْتَمِلنْ مِنْكُمْ بليـلٍ ظعينـةٌ إلى غيـرِ مـوثـوقٍ منَ العـزِّ تَهْـرُبُ

١٢ ـ ستحْـذُرُكـمْ عبسٌ علينا وعـامِـرٌ وَتَــرْفـعُنــا بَـكْــرٌ إليـكمْ وتَـغـلِبُ

---

(٥) الخليط: الصديق المخالط والقوم الذين أمرهم واحد. وقد كثر هذا المعنى في شعر الشعراء لأن العرب كانوا ينتجعون أيام الكلأ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد، فتقع بينهم ألفة. فإذا افترقوا ورجعوا الى أوطانهم ساءهم ذلك.

(٦) نزعت بأسباب الأمور: كففت عن هذه الأمور بعد أن نظرت في أسبابها.

(٧) الحزازة: وجع في القلب من غيظ وعداوة ونحوها. تنصب: تتعب وتشقى.

(٨) البيت مع البيتين ١٠، ١١ في البلدان (أجياد)، والبكري ٥١٤. ا ب: أجواز الجواء ويذنب، ق: أجياد المصلّى ومذهب، البكري أجماد الخوار ومذنب.
الداميات نحورها: يريد الهدي الذي ينحر بمكة. الأجواز: جمع الجوز، وجوز كل شيء وسطه. الجواء ومذنب: موضعان.

(٩) الأدم: جمع الأدماء وهي الناقة البيضاء الجِلال: القوم المقيمون المتجاورون. الربرب: القطيع من بقر الوحش.

(١٠) ق: وقد، ا ب: لقد. ا ب: إيعاد، ق: إبعاد.
الحرب العوان: الشديدة الأكول.

(١١) الظعينة: المرأة في الهودج.

(١٢) البيت مع البيت ٢٢ في الصناعتين ١٥ م منسوبين إلى أوس بن حجر. وهو وحده في الصناعتين ٤١١ منسوباً إلى أوس بن حجر أيضاً.
ا ب: ستحذركم... علينا، الصناعتين: فتحذركم... الينا.

١٣ ـ فَيَلْتَفُّ جِذمانا ولا شيءَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ إلّا الصَّريحُ المهذَّبُ
١٤ ـ وَقَدْ زَارَكُمْ صَلْتٌ مِنَ القوم حاشِدٌ وأنتم لـه بـادِي الظَّعِينةِ مُـذنِبُ
١٥ ـ وينصُرُنا قومٌ غِضابٌ عليكُمُ متَى نَدْعُهُمْ يوماً إلى النّصر يركبُوا
١٦ ـ أشارَ بهمْ لَمْعَ الأصمّ فأقْبَلُوا عرانينَ لا يأتيهِ لِلنّصرِ مُحْلِبُ
١٧ ـ بِكُلِّ فضاءٍ بَيْنَ حَرَّةِ ضارجٍ وَخلٍّ إلى ماءِ القُصَيْبَةِ مَوكبُ
١٨ ـ وَخيلٌ تُنادي من بَعيد وراكبٌ حَثِيثٌ بأسبابِ المنيّة يَضْرِبُ

---

(١٣) البيت في المعاني ٩٣٥، واللآلي ٦٩٨، والتنبيه ٩٦.
اللآلي والتنبيه: فيلتف، المعاني: ويلتف، ا ب: فتلتف. ا ب المعاني التنبيه: جذمانا، اللآلي: جذماها. ا ب: شيء، المعاني: حق، اللآلي والتنبيه: حيّ.
الجذم: الأصل. الصريح المهذب: يريد السيف، والصريح: الخالص من كل شيء. يقول: نلتقي وأنتم فلا يكون بيننا شيء إلا الجلاد بالسيوف.
(١٤) زاركم (استظهار)، ا ب: زادكم.
رجل صلت صلب ماض في الحوائج خفيف اللباس. رجل حاشد: الذي لا يدع عند نفسه شيئاً من الجهد والنصرة والمال إلا حشده استعداداً وتأهباً. ولم يتضح لنا معنى البيت على وجه الضبط.
(١٥) البيت مع الذي بعده في المعاني ٩٣٥ ـ ٩٣٦، واللسان (حلب).
ا ب: وينصرنا، ل: وينصره، المعاني: سينصرهم. ا ب: ندعهم، ل المعاني: تدعهم. ا ب: إلى النصر، ل المعاني: الى الروع.
(١٦) البيت في الحيوان ٤/٤٠٥، والصحاح (حلب)، وشرح المفضليات ٥٧٠.
ب ر ل الحيوان والمعاني والصحاح: أشار بهم، ا: إشارتهم.
لمع الرجل بيده: أشار بها، ولمع الأصم: أي كما تشير للأصم بإصبعك. والضمير في أشار يعود على مقدم الجيش. والعرانين: الرؤساء. والمحلب: المعين من غير قومه. يقول: أشار لهم فأقبلوا إليه مسرعين. ولا يأتيه سوى قومه وبني عمه يكفونه.
(١٧) البيت في البكري ١٠٧٨، والبلدان (حرز ضارج).
وخلّ: اسم موضع، وكذلك القصيبة.
(١٨) البيت في المعاني ٩٣٦ ناقصاً.
الراكب: راكب البعير. يضرب بأسباب المنية: أي يخبر بها مثل قوله دونكم السلاح، اخرجوا إلى عدوكم.

١٩ ـ فلو صادَفوا الرأسَ المُلَفَّفَ حاجباً ... لَلاقَى كما لاقى الحمارُ وجُندُبُ

٢٠ ـ فَمَنْ يَكُ لَمْ يَلْقَ البيانَ فإنّهُ ... سَيأتيهِ بالأنباءِ مَن لا يُكَذِّبُ

٢١ ـ سَلِيبٌ بِهِ وَقْعُ السِّلاحِ وراتِكٌ ... أخو ضَرَّةٍ يعلو المكارهَ مُتْعَبُ

٢٢ ـ إذا ما عُلُوا قالوا: أبُونا وأمُّنا، ... وليسَ لهم عالِينَ أمٌّ ولا أبُ

٢٣ ـ لَهُمْ ظُعُناتٌ يَهتدينَ بِرايةٍ ... كما يَستقِلُّ الطائرُ المتقلِّبُ

٢٤ ـ فوارسُنا بالحِنْوِ ليلةَ نازَلُوا ... كَفى شاهِدوهُمْ لَوْمَ من يَتَغَيَّبُ

٢٥ ـ أباتوا بسَيْحانَ بْنِ أرْطاةَ ليلةً ... شديداً أذاها لَم تكَدْ تَتَجَوَّبُ

٢٦ ـ أراكُمْ أُناساً لا يُلينُ صدورَكُمْ ... لأعدائكُمْ صَوْبُ الغَمام المُجَلِّبُ

---

(١٩) البيت في المعاني ٤٧٦، ٩٣٦.
ا ب المعاني (٤٧٦): صادفوا، المعاني (٩٣٦): صادموا.
الرأس: يريد به الرئيس. الملفف: الذي لفّف به القوم أمرهم وأسندوه إليه وحاجب: هو ابن زرارة التميمي. والحمار وجندب: رجلان كانا مع حاجب ابن زرارة، ويبدو أنهما قتلا في المعركة.

(٢١) ا ب: مثعب.
سليب: أي فرس سليب بمعنى مسلوب. راتك: أي بعير راتك وهو الذي يمشي وكأن برجليه قيداً ويضرب بيديه. وأخو ضرّة: أي فيه أذاة وضرر.

(٢٢) البيت مع البيت ١٢ في الصناعتين ٣١٥ منسوبين إلى أوس بن حجر. وهو وحده في الشعراء ١٠٢ منسوباً إلى أوس أيضاً، وفي المعاني ٩٤٩، وعيون الأخبار ٩٦/٣ منسوباً فيهما إلى بشر، وفي الأمالي ٩٢/١، واللآلي ٢٨٨ غير معزو فيهما.
يقول: إذا ما غُلبوا وعُلوا استنصروا بنا واستنجدونا وذكرونا الآباء والأمهات والأرحام والأواصر. وإذا كانوا هم الغالبين نَسُوا تلك الأواصر، وتركوا الصلة، وقطعوا تلك الأرحام. فصاروا كمن لا يجمعنا بهم أم ولا أب.

(٢٣) البيت في اللسان (ظعن).
ل: يهتدين، ا ب: تهتدين (غلط).
والظعنات: جمع الجمع من الظعينة وهي المرأة في الهودج.

(٢٤) شاهدوهم: أي الذين شهدوا منهم القتال.

(٢٥) ب: تتجوب، ا: يتجوب (غلط).
تتجوب: تنكشف وتنجلي.

(٢٦) الصوب: المطر. والمجلّب: المصوّت، من الجلبة وهي الأصوات.

٢٧ ـ غَضِبْتُمْ علينا أنْ تُقَتَّلَ عامرٌ وفي الحقّ إذ قالَ المُعاتِبُ مَغْضَبُ

٢٨ ـ وحالَفْتُمْ قوماً هَراقُوا دماءَكُمْ لَوَشْكَانَ هذا والدِّماءُ تَصَبَّبُ

---

(٢٧) يشير بشر في هذا البيت إلى يوم النسار. وخبره أن بين ضبة كانت حالفت بني أسد على بني تميم وكانت ضبة أصابت من بني تميم نفراً، فهربت إلى بني أسد فحالفوهم. فلما بلغ بني تميم حلف ضبة بعثت إلى بني عامر بالنسار فحالفوهم وقالت بنو أسد لضبة: بادروا الى عامر بالنسار قبل أن تصير إليهم بنو تميم. ففعلوا وغزوا جميعاً بني عامر. فقتلوهم قتلاً شديداً. فغضبت بنو تميم لقتل بني عامر، فتجمعوا حتى لحقوا بهم. فصبحهم الأحلاف بالجفار فقتلت تميم أشد مما قتلت عامر يوم النسار. (العقد ٢٤٨/٥، شرح المفضليات ٣٦٩ ـ ٣٧٠).

(٢٨) البيت في اللسان (سرع).

ا ب: وحالفتم قوماً هراقوا دماءكم لو شكان. . .، ل: أتخطب فيهم بعد قتل رجالهم لسرعان. .

(٣)

وقال أيضاً(*):

١ ـ عَفَتْ من سُلَيْمى رامَـةٌ فكَثيبُهـا وشَـطَّتْ بها عنـكَ النَّوَى وشُعُـوبُهـا

٢ ـ وغيَّـرهـا مـا غيَّـر النـاسَ قبْلَهَـا فبـانتْ وحاجـاتُ النفوسِ تُصِيبُها

٣ ـ أَلَمْ يَـأْتِهـا أنَّ الـدُّمـوعَ نِـطَافـةٌ لِعَيْنٍ يُـوافِي في المنـامِ حبيبُـهـا

٤ ـ تَحَـدَّرَ مـاءِ البِئْـرِ عَنْ جُـرَشِيَّـةٍ على جِرْبَةٍ تعْلُو الـدِّبـارَ غُـرُوبُها

(*) القصيدة في المفضليات ٢/١٣٠ ـ ١٣٣، وشرح المفضليات ٦٤٠ ـ ٦٤٨، ومنتهى الطلب [٧٧ ب ـ ٧٨ ا].

(١) البيت والذي بعده مع البيت ٦ في البلدان (حرة ليلى). وهو مع الذي بعده في البلدان (رامة).
ا ب مف ر ق: وشعوبها، م: وغروبها.
شطت. بعدت. والنوى: الوجه الذي يريده الإنسان في الرحلة. والشعوب: جمع شعب بفتح الشين وهو المكان الذي شعب إليه أي ذهب.

(٢) ا ب مف ر م ق (رامة): فبانت، ق (حرة ليلى): فباتت. ا ب م ق: النفوس، مف ر: الفؤاد. ا ب مف ر م: تصيبها، ق: نصيبها، رواية في ر عن الطوسي: تنوبها.
بانت: ذهبت وبعدت. تصيبها: تريدها وتقصدها، وقال الأصمعي: يقال أصاب فلان الصواب فأخطأ الجواب، معناه أنه قصد قصد الصواب وأراده.

(٣) نِطافة، بالكسر: سائلة، من نطف الشيء إذا سال، ونطافة، بفتح النون: مفسدة وأذى لكثرة دموعها.

(٤) البيت في اللسان (جرب، دبر، جرش) والبلدان (جرش). وعجزه في المقاييس ١/٤٥٠، ٢/٣٢٦.
ا ب ر ل ق: ماء البئر، مف: ماء الغرب، م: ماء العين. ا ب مف ر ل ق والمقاييس جربة، م: خربة (تصحيف) ا ب مف ر ل (جرب، جرش) ق والمقاييس: تعلو، م ل (دبر): يعلو. ا ب مف ر ل ق والمقاييس: الدبار، م: الديار (تصحيف).

٥ - بغَرْبٍ ومَرْبُوعٍ وعَوْدٍ تُقِيمُهُ مَحَالةُ خُطَّافٍ تَصِرُّ ثُقُوبُها

٦ - مُعَالِيةٌ لاهَمَّ إلاّ مُحَجَّرٌ وحَرَّةُ ليلَى : السَّهْلُ مِنْها وَلُوبُها

٧ - رأتني كأفْحُوصِ القَطاةِ ذُؤَابَتِي وما مَسَّها من مُنْعِمٍ يَسْتَثِيبُها

٨ - أَجَبْنا بني سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ إذ دَعَوْا ولِلهِ مَولَى دَعْوةٍ لا يُجِيبُها!

الجرشية: ناقة منسوبة إلى جرش، وهي أرض من مخاليف اليمن من جهة مكة، تنسب الإيها النوق فيقال: ناقة جرشية، وأهل جرش يستقون الماء على الإبل. والجربة: المزرعة. والدبار: جمع دبرة وهي المشارة من المزرعة، أو الساقية بين المزارع. غروبها: يريد مياهها. يقول: دموعي تحدّر كتحدر ماء البئر عن دلو تستقي بها ناقة جرشية.

(٥) الغرب: الدلو العظيمة. المربوع: الحبل المفتول على أربع قوى. العود: البعير المسن. والمحالة: البكرة. والخطاف: الحديد الذي في جانبي البكرة.

(٦) البيت مع البيتين ١، ٢ في البلدان: (حرة ليلى). وهو وحده في البلدان (حرة سليم، العالية)، واللسان (علا).

ا ب مف ر م ق (العالية): ولوبها، ق (حرة سليم، حرة ليلى) ل ورواية في ر: فلو بها.

معالية: رجع إلى ذكر المرأة، أي فبانت معالية، أي مرتفعة تقصد أرض العالية. والعالية: اسم لكل ما كان من جهة نجد، من قراها وعمائرها إلى تهامة. وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السافلة. ويقال: عالى الرجل وأعلى إذا أتى عالية نجد، ورجلٌ مُعالٍ أيضاً. ومحجر وحرة ليلى: موضعان. واللوب: جمع لوبة وهي الحرة. يقول بانت تقصد العالية وليس لها هم إلا أن تأتي محجراً وحرة ليلى.

(٧) أفحوص القطاة: مكان بيضها، تجيء القطاة إلى موضع ليّن من الأرض فتفحصه وتملسّه ثم تدير حوله تراباً فتبيض على غير عش. يريد أنه صلع حتى صار رأسه كأفحوص القطاة. وكان العرب إذا أسر أحدهم رجلاً شريفاً جز رأسه أو فارساً جز ناصيته وأخذ من كنانته سهماً ليفخر بذلك. فيقول الشاعر: لم يكن ذهاب شعري لأني أسرت فجزت ناصيتي على طلب الثواب والجزاء.

(٨) الأبيات ٨ - ١٤ في النقائض ٢٤٣ - ٢٤٤ أوردها في خبر يوم النسار، وفي شرح المفضليات ٣٦٧ - ٣٦٨ في خبر يوم النسار. والبيتان ٨، ٩ في شرح المفضليات ٣٧٠ في خبر يوم النسار أيضاً.

ا ب مف ر ن: ولله، م: فلله.

مولى دعوة: أي صاحب دعوة. ولله مولى دعوة لا يجيبها: عبارة ذم، كأنه قال قبح الله من يدعى ولا يجيب.

٩ - وكنــا إذا قُلْنــا هَــوازِنُ أقبِـلي　　إلى الرشدِ لم يـأتِ السَّدادَ خطيبُها

١٠ - عَطَفْنا لَهُمْ عَطْفَ الضَّروس من المَلا　　بشَهبـاء لايَمشــي الضَّــرَاءَ رَقِيبُهــا

١١ - فلمّـا رَأَوْنـا بـالنِّسارِ كـأنّنـا　　نَشَاصُ الثريّـا هَيَّجَتْهـا جَنـوبُها

١٢ - فَكانُوا كذاتِ القِدْرِلم تَـدْرِإذْغَلَتْ　　أتُنْــزِلُهــا مَــذْمُــومــةً أَم تُــذِيبُهــا

---

(٩) اب مف ر ن: وكنا... خطيبها، -م.

(١٠) البيت في الأصلاح ٤٠٨، والمعاني ٨٩٣، والمقصور ١١٥، واللسان (ضرس، ضرا).

المراجع كلها: عطف الضروس، رواية في ن: عطف الثَّنِيِّ.

الضروس: الناقة الحديثة النتاج، وإنما سميت ضروساً لأنه يعتريها عضاض عند نتاجها حذاراً على ولدها، ثم يذهب عنها؛ والضروس ها هنا الحرب الشديدة تمثيلاً بالناقة الضروس. والملا: المتسع من الأرض، وربما كان اسم موضع بعينه (انظر البكري والبلدان). والشهباء: الكتيبة البيضاء من كثرة الحديد. ورقيب القوم: حارسهم، وهو الذي يشرف على مرقبة ليحرسهم. والضراء: ما وارى الأنسان من شجر وغيره عمن يكيده ويختله. وقوله: لا يمشي الضراء رقيبها أي هذه الكتيبة عزيزة لا تحتاج أن تختل بالاختفاء. وانظر القصيدة (١ : ٢١).

(١١) البيت في اللسان (نسر، نشص).

المراجع كلها: هيجتها، ل (نشص): هيجته.

يوم النسار: هو لأسد وحلفائها طيء وغطفان وضبّة على بني عامر. وخبره بتفصيل في النقائض ٢٣٨ - ٢٤٥، وشرح المفضليات ٣٦٣ - ٣٧١، والكامل لابن الأثير ١/٢٥٨ - ٢٦٠، والعقد ٥/٢٤٨، والميداني ١/٢٦٠. نشاص الثريا: ما ارتفع من السحاب بنوئها، شبه الكتيبة في كثرتها بهذا السحاب. هيجتها جنوبها: الهاء في جنوبها ترجع على الثريا، والجنوب: ريح الجنوب.

(١٢) البيت في المعاني ٣٧٣، ٩٣٠، والمقاييس ٢/٣٦٤، والميداني ٢/٢٨١، واللسان (ذوب، رجن).

ا ب مف ر ن م والمعاني: فكانوا، المعاني ٩٣٠: وكانوا، ل (ذوب) والمقاييس: وكنتم، ل (رجن): فكنتم، رواية في ر عن الطوسي: كأنوا، الميداني: وكنت. ا ب مف ن ر ل والمعاني والميداني: أم تذيبها، م والمقاييس: أو تذيبها.

فكانوا: الفاء زائدة كما تزاد الواو أحياناً، قال أبو عبيدة: يقولون والسلام عليكم، يريدون السلام عليكم (شرح المفضليات ٦٤٤). والبيت مثل في اختلاط الأمر على القوم. والأصل فيه أن المرأة تسلأ السمن فيختلط خاثره برقيقه فلا يصفو، فتبرم بأمرها فلا تدري أتنزل القدر غير صافية أم تتركها حتى تصفو. يقول: لما رأونا تحيروا

١٣ ـ جَعَلْنَ قُشَيْراً غايةً يُهْتَدَى بها كما مَدَّ أشطانَ الدِّلاءِ قَلِيبُها

١٤ ـ لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى أتى اللَّيْلُ دونَهم وأدرَكَ جَرْيَ المُبْقِياتِ لُغُوبُها

١٥ ـ إذا ما لَحِقْنا مِنْهُمُ بِكَتِيبَةٍ تُذُكِّرَ مِنْها ذَحْلُها وذُنُوبُها

١٦ ـ نقلناهُمُ نَقْلَ الكلابِ جِراءَها على كلِّ مَعْلُوبٍ يثورُ عَكُوبُها

١٧ ـ لَحوْناهُمُ لَحْوَ العِصِيِّ فأصبَحوا على آلةٍ يشكو الهوانَ حَرِيبُها

فلم يدروا ما يصنعون أيرجعون فنتبعهم ونقتلهم، أم يتقدمون فنستأصلهم.

(١٣) البيت في المعاني ٩٣١.

ا ب مف ر (٦٤٦) م والمعاني: جعلن، ر (٣٦٨) ن: جعلنا. ا ب مف ر ن م: يهتدى بها، رواية في ر عن أحمد بن عبيد تهتدي بها، المعاني: تقتدي بها.

الأشطان: جمع شطن وهو الحبل. والقليب: البئر. يقول: جعلت خيلنا قشيراً غاية لها دون غيرها، فهي تمد إليها السير كما تمد أنت الدلو لتخرجها. وإنما كانت الدلو تمد في البئر كأنها تمد الدلو. وإنما خصّ قشيراً لأن منازلهم في أقصى بني عامر، ولأن الحرب كانت من أجلهم. يقول: خيلنا تطؤهم حتى تنتهي إلى آخرهم كما أن الدلاء منتهاها قعر القليب.

(١٤) ا ب مف ر: المبقيات، ن م ورواية في ر: المنقيات.

لدن غدوة: أي قتلناهم من الغدوة الى الليل. والمبقيات من الخيل: التي يبقى جريها بعد انقطاع جري الخيل. واللغوب: الإعياء.

(١٥) ا ب مف ر: ذحلها، م: ذخلها (تصحيف).

الذحل: الثأر. يقول: إذا لحقنا منهم بكتيبة ذكرنا مالنا عندهم من ثأر، وما أتوا إلينا من ذنب، فنبالغ في العقوبة ويكون قتالنا لهم أشد.

(١٦) البيت في المقاييس ١٠٤/٤، ١٢١، واللسان (عكب، علب).

ا ب مف ر ل والمقاييس: معلوب، م: مغلوب. ا ب مف ر ل م والمقاييس: يثور، رواية في ر عن الطوسي: يثوب.

معلوب: أي طريق معلوب، وهو اللاحب المعبد من وطء الناس. والعكوب: الغبار الذي تثيره الخيل. وأنث الضمير في «عكوبها» لتأنيث الطريق وترك لفظ معلوب. يقول: خافوا حربنا فتركوا بلدهم أذلاء بهذه المنزلة.

(١٧) البيت في النقائض ٢٤٠، ٢٤٥، وشرح المفضليات ٣٦٥، ٣٦٨.

ا ب مف ر (٦٤٥) م: لحوناهم لحو العصي، ن ر (٣٦٥، ٣٦٨): أضر بهم بدر بن حصن. ا ب مف ر (٦٤٥) م ن (٢٤٥): على آلة، ر (٣٦٨): على حالة، ن (٢٤٠) ر (٣٦٥): بمنزلة.

١٨ ـ قطعناهُمُ، فباليمامة قِطْعَةٌ   وأُخرى بأوطاسٍ تَهِرُّ كَلِيبُها

١٩ ـ تَبيتُ النّساءُ المرضعاتُ برَهْوَةٍ   تَفَرَّأُ من هَوْلِ الجَنَانِ قلوبُها

٢٠ ـ بني عامرٍ إنّا تركنا نساءَكم   من الشَّلِّ والإيجاف تَدْمَى عُجُوبُها

٢١ ـ عَضاريطُنا مُسْتَحْقِبُو البِيضِ كالدُّمَى   مُضَرَّجَةً بالزعفران جُيوبُها

اللحو: قشر العود. والآلة الحالة والحريب: الذي سلب ماله. يقول: أخذنا جميع أموالهم وأذللناهم.

(١٨) البيت في النقائض ٢٤٤، شرح المفضليات ٣٦٨.
ا ب م ورواية في ر عن الطوسي: قطعة، ن مف ر: فرقة. ا ب مف ر ن: تهر، م: يهر.
أوطاس: موضع. كليب: جمع كلب، وتهرّ كليبها: أي هم ينحارسون من الخوف والفزع.

(١٩) البيت في الأضداد ١٢٨، واللسان (رهو).
ا ب مف ر م: تبيت، ل: تظل. ا ب: تفرأ، مف ر م الأضداد: تفزع، ل: تزعزع. ا ب الأضداد: من هول الجنان، مف ر: من روع الجنان، م: من خوف الجبان، ل: من روع الجبان.
الرهوة: المكان المرتفع والمنخفض أيضاً، من الأضداد. يريد: نساؤهم فررنَ فاسترنْ في منخفض من الأرض، أو من أفلت من نسائهم علا شرفاً من الأرض لينظر من شدة الحذر. والجنان: شدة ظلمة الليل.

(٢٠) البيت في النقائض ٢٤٥، وشرح المفضليات ٣٦٨.
الشل: السّوق والطرد. والإيجاف: السير الشديد على الخيل والإبل جميعاً. والعجوب: يريد بها الأعجاز. يقول: إنا حملنا نساءكم على أقتاب غليظة وأسرعنا بهن في السير فدميت أعجازهن.

(٢١) البيت في النقائض ٢٤٥، وشرح المفضليات ٣٦٨.
ا ب: مستحقبو، مف ر (٦٤٧) م ورواية في ن: مستبطنو. ر (٣٦٨) ورواية في ر (٦٤٧) عن الطوسي: عضاريطنا البيض الكواعب، ن: عضاريطها البيض الكواكب.
العضاريط: جمع عضروط وهو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه. مستحقبو البيض: أي هم يحملون النساء البيض الأسيرات خلفهم على حقائب أرحلهم. والجيوب: جمع الجيب وهو جيب القميص أي فتحته.

٢٢ ـ دَعُـوا مَنْبِتَ السِّيفَيْن إنهمـا لنـا إذا مُضَـرُ الحمـراءِ شُبَّتْ حُـروبُهـا

(٢٢) البيت في البكري ٨١٩، والبلدان (الشيفان، الشيقان).
ا ب مف ر م: السيفين، ق (الشيفان): الشيفين، ق (الشيقان) والبكري ورواية في ر عن الطوسي: الشيقين.
السّيفين: يريد سِيفي البحر، وسِيف البحر، بكسر السين، ساحله. وسميت مضر بالحمراء لقبةمن أدم وهبها نزار لابنه مضر؛ وقيل: لما اقتسم مضر وربيعة الميراث أعطي مضر الذهب، وهو يؤنث، وأعطي ربيعة الخيل.

وقال أيضاً(*):

١ - ألا بَـانَ آلـخَـلِيطُ وَلَـمْ يُـزارُوا وَقَلْبُـكَ فِي آلـظعـائِنِ مُسْتَعـارُ

٢ - أُسـائِلُ صَـاحِبِي وَلَقَـدْ أَرانِي بَصِيراً بِـالـظُّعـائِنِ حَيْثُ صَـارُوا

٣ - تَؤُمُّ بِهـا آلحُـدَاةُ مِيَـاهَ نَخْـلٍ وَفِـيـهـا عَـنْ أَبـانَـيْـنِ آزْوِرارُ

(*) القصيدة في المفضليات ١٣٨/٢ - ١٥٤، وشرح المفضليات ٦٦٠ - ٦٦٧، ومنتهى الطلب [٧٦ ب - ٧٧ ب]. وذكر العلامة اليمني في كلامة على ديوان حميد بن ثور الهلالي ص ٣ (دار الكتب المصرية ١٩٥١) كتاباً اسمه (منتخبات من كتاب المنتخب في محاسن أشعار العرب) فيه عشر قصائد. وذكر في الحاشية أن القصيدة السابعة فيه هي قصيدة بشر هذه.

(١) البيت مع البيتين ٢، ٣ في البلدان (أبانان).
ا ب مف ر ق: وقلبك، م: فقلبك.
الخليط: الصديق المخالط والقوم الذين أمرهم واحد، وبينهم ألفة. وقد كثر ذكره في شعر العرب، وإنما كثر ذلك في أشعارهم لأنهم كانوا ينتجعون في أيام الكلأ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد، فتقع بينهم ألفة، فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك. والظعائن: جمع الظعينة وهي المرأة في هودجها.

(٢) ا ب مف ر ق: أسائل صاحبي ولقد، م: قفا يا صاحبيَّ وقد. ا ب ق: صاروا، مف ر م: ساروا.
أسائل صاحبي: أي أعمي عليه بالسؤال لئلا يفطن بنظري ويعلم موجدتي بهم.

(٣) البيت في اللسان (أبن). وعجزه في البكري ٩٦.
ا ب مف ر م: تؤم، ل: يؤم.
تؤمُّ: تقصد. والحداة: جمع الحادي وهو الذي يحدو بالإبل. ونخل: اسم موضع. أبانان: جبلان، وهما: أبان وسلمى، فغلبوا أباناً في التثنية، كما قالوا العمرين يعنون: أبا بكر وعمر، والقمرين يريدون: الشمس والقمر. وفي أبانين اختلاف وكلام كثير انظره في البلدان (أبان، أبانان) ازورار: انحراف وعدول عنه.

٤ ـ أُحاذِرُ أَنْ تَبِينَ بَنُو عُقَيْلٍ بِجارَتِنا، فَقَدْ حُقَّ ٱلحِذارُ

٥ ـ فَلأْياً ما قَصَرْتُ ٱلطَّرْفَ عَنْهُمْ بِقانِيَةٍ، وَقَدْ تَلَعَ ٱلنَّهارُ

٦ ـ بِلَيْلٍ مَا أَتَيْنَ على أَرُومٍ وَشابَةَ عَنْ شمائِلِها تِعارُ

٧ ـ أَراهُمْ كُلما بانوا تَوَلَّوْا بِرَهْنٍ مِنْكَ لَيْسَ لَهُ جِوارُ

٨ ـ كَأَنَّ ظِباءَ أَسْنُمَةٍ عَلَيْها كَوانِسَ قالِصاً عَنْها ٱلْمَغارُ

٩ ـ يُفَلِّجْنَ ٱلشِّفاهَ عَنْ أَقْحُوانٍ جَلاهُ غِبُّ سارِيَةٍ قِطارُ

---

(٤) ا ب مف رم: حُقَّ الحذار، رواية في ر عن الطوسي: حَقَّ الحذار، بفتح الحاء من حقّ. تبين: ترحل وتبعد.

(٥) البيت والذي يليه في البكري ٣١٣. البكري: بغانية. وهو وحده في اللسان(قنا). مف رل: بقانية، اب: بعاقبة، م: فلأيا: أي بعد تردد وإبطاء. وقانية: اسم ماء لبني سليم، وربما كان يريد بنفس قانية من الحياء، من قولهم: اقن حياءك أي ألزمه. وتلع النهار ارتفع وانبسط.

(٦) البيت مع البيت ٨ في اللسان(عير). وعجزه في الصحاح(عير). اب مف رم: بليل، ل: وليل
أروم وشابة: موضعان. وتعار: اسم جبل في بلاد قيس.

(٧) ا ب: أراهم... حوار، ـ مف ر م.
برهن منك: يريد قلبه كأنه رهنة عندهم. وليس له جوار: ليس له ردّ، أي لا يردّونه.

(٨) البيت مع الأبيات ٩ ـ ١١ في البلدان (الأوار). وهو مع البيتين ١، ٩ في اللسان (سنم). وهو وحده في اللسان (غور) أيضاً.
أسنمة بفتح الهمزة وضم النون: أكمة معروفة بقرب طخفة. عليها: أي على الركائب. كوانس: أي الظباء دخلن الكناس، وهو موضع بين الشجر تستتر فيه الظباء من الحرّ. وقالصاً: أي قلصت عنها أغصان الشجر التي كنست تحتها. والمغار: مكانس الظباء التي تأوي إليها. وصف الظعائن وشبه النساء اللواتي قد صغرت عنهن بالظباء التي صغرت عنها مكانسها، فبعض أجسادها خارج منها.

(٩) البيت في ديوان المعاني ٢٣٨/١، والمرتضى ٥١١/١.
ا ب مف ر م ل ديوان المعاني والمرتضى: الشفاة عن اقحوان، ق الشّفا عنْ أقحوان وفي ر: «رواه الطوسي بضم نون عن وكسرها». ا ب مف ر م ق ديوان المعاني والمرتضى: جلاه، ل: حلاه.
يفلجن: يفتحن. غبُّ سارية: أي بعد سارية، والسارية: السحابة التي تأتي ليلاً. =

١٠ - وَفِي ٱلْأَظْعَانِ آنِسَةٌ لَعُوبٌ تَيَمَّمَ أَهْلُهَا بَلَداً فَسَارُوا

١١ - مِنَ ٱللَّاتِي غُذِينَ بِغَيْرِ بُؤْسٍ مَنَازِلُهَا ٱلْقُصَيْبَةُ فَٱلْأَوَارُ

١٢ - غَذَاهَا قَارِصٌ يَجْرِي عَلَيْهَا وَمَحْضٌ حِينَ تَنْبَعِثُ ٱلْعِشَارُ

١٣ - نَبِيلَةُ مَوْضِعِ الحِجْلَيْنِ خَوْدٌ وَفِي ٱلْكَشْحَيْنِ وَٱلْبَطْنِ اضْطِمَارُ

= والقطار: جمع قطر، يريد قطر المطر. يقول: يفتحن أفواههن عن ثغر كالأقحوان، ووصف الأقحوان بأنه أصابه مطر، فهو أندى وأرقّ له.
وقد أورد أبو هلال العسكري هذا البيت في ديوان المعاني بين الأبيات التي أتى بها أمثلة على أجود ما قيل في الثغر من شعر المتقدمين. وقال المرتضى بصدده: «... قال الأصمعي: ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر بن أبي خازم: يفلجن الشفاه... البيت».

(١٠) البيت مع الذي يليه في البلدان (القصيمة).
ا ب مف ر ق: أهلها، م: أصلها (تصحيف).
الأظعان: النساء في هوادجن على مراكبهن، واحدها الظعينة. تيمم أهلها: أي قصدوا واتجهوا.

(١١) البيت في البكري ١٠٨٧.
ا ب م وورواية عن الطوسي في ر: اللاتي، مف ر ق والبكري: اللائي. ا ب م: القصيبة، مف ر ق والبكري: القصيمة. ا ب مف ر ق والبكري: فالأوار، م: فالغمار.

(١٢) ا ب م وورواية عن الطوسي في ر: تنبعث، مف ر: تُبْتَعث.
القارص: اللبن الذي أخذ فيه الطعم. يجري عليها، قال ابن الأعرابي: هو دائم لها في كل يوم، وقال أحمد بن عبيد: لا ينقطع عنها كما يجري الرزق، وقال أبو عبيدة: يجري عليها: يتبين في وجهها، وفي حسن حالها حسنُ غذائها. والمحض: اللبن الذي يحلبُ وتذهب رغوته. والعشار من الإبل: التي تمَّ لها عشرة أشهر من حملها إلى أن تنتج وبعدما تنتج بشهرين، الواحدة: عُشَراء. وانبعاثها: ثورها إذا أرادوا احتلابها، أو حين تنبعث العشار لاجتلاب الميرة في المحل فلا يصاب اللبن.

(١٣) البيت في اللسان (نبل).
ا ب مف ر ل: اضطمار، م: اضمرار.
نبيلة: أي عظيمة موضع الحجلين، أراد أنها ممتلئة الساقين. والحجل: الخلخال. والخود: المرأة الشابة الحسنة. والكشحان: الخاصرتان. واضطمار: ضمور.

١٤ ـ ثَقَالٌ كُلَّما رامَتْ قِياماً ... وَفِيها حِينَ تَنْبَعِثُ ٱنْبِهارُ

١٥ ـ فَبِتُّ مُسَهَّداً أَرِقاً كَأَنِّي ... تَمَشَّتْ فِي مَفاصِلِيَ العُقارُ

١٦ ـ أُراقِبُ فِي ٱلسَّماءِ بَناتِ نَعْشٍ ... وَقَدْ دارَتْ كَما عَطَفَ ٱلصِّوارُ

١٧ ـ وَعانَدَتِ ٱلثُّرَيّا بَعْدَ هَدْءٍ ... مُعانَدَةً لَها ٱلعَيُّوقُ جارُ

١٨ ـ فَإِنْ تَكُنِ ٱلعُقَيْلِيّاتُ شَطَّتْ ... بِهِنَّ وَبِالرَّهِينَاتِ ٱلدِّيارُ

١٩ ـ فَقَدْ كانَتْ لَنا وَلَهُنَّ حَتّى ... زَوَتْنا ٱلحَرْبُ أَيّامٌ قِصارُ

٢٠ ـ لَيالِيَ لا أُطاوِعُ مَنْ نَهانِي ... وَيَضْفُو تَحْتَ كَعْبَيَّ ٱلإِزارُ

---

(١٤) ا ب: تنبعث، مف ر م: تندفع.

الثقال: العظيمة العجيزة، اللفاء الفخذين، الممكورة الساقين، ولا تكون ثقالاً حتى توصف بهذا كله. تنبعث: أي تسير. والأنبهار: انقطاع النفس.

(١٥) العُقار: الخمر.

(١٦) البيت في الأنواء ١٤٧، والأزمنة: ٢/٣٧٢.

ا ب مف ر م: الصوار، الأنواء والأزمنة: الظؤار.

بنات نعش: سبعة نجوم متقاربة تدور حول القطب الشمالي. يريد أنه سهر ليلته كلها إلى أن دارت بنات نعش، وهي تنقلب في آخر الليل. وخصّ بنات نعش لأنها لا تغيب مع النجوم، تدور وتنعطف في جانب السماء حتى يبهرها الصبح أي يذهب بضوئها فلا ترى. والصوار: جماعة بقر الوحش. وعطفه يعني أنه رأى شيئاً ففزع منه فراغ عنه. وخصّ بقر الوحش لبياضها كبياض النجوم.

(١٧) البيت في اللسان (عوق).

مف ر م ل: لها، ا ب: له. ا ب مف ر م: جار، ل: جارا (غلط).

عاندت الثريا: سقطت للمغيب. بعد هدء: أي بعد ذهاب صدر من الليل. والعيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها.

(١٨) شطت الديار: بعدت. والرهينات: القلوب، أي شططن وقلوبنا معهن رهائن.

(١٩) البيت في اللسان (زوى).

ا ب مف ر م: زوتنا، ل: زوتها.

زوتنا الحرب: صرفتنا وأبعدت بعضنا عن بعض. أيان قصار: قصرت الأيام لما هم فيه من القرب والمواصلة، فطيب تلك الأيام قصّرها وإن كانت طويلة.

(٢٠) البيت في اللسان والتاج (ضفا).

ا ب م ل والتاج: تحت، مف ر: فوق.

يضفو: من الضفو وهو الطول والسعة والسبوغ.

٢١ ـ فَأَعْصِي عـاذِلِي وَأُصِيبُ لَهْواً وَأُوذِي فـي آلـزِّيـارةِ مَنْ يَـغـارُ

٢٢ ـ فَيـا لِلنَّاسِ لِلرَّجُـلِ آلمُعَنَّى طَـوَالَ آلـدَّهْـرِ إِذْ طالَ آلحِصـارُ

٢٣ ـ وَلَمّـا أَنْ رَأَيْتُ آلنّـاسَ صـارُوا أَعـادِيَ لَيْسَ بَيْنَـهُـمُ آئْتِـمـارُ

٢٤ ـ مَضَى سُـلَّافُنـا حَتى حَلَلْنـا بِـأَرْضٍ قَـدْ تَـحـامَتْهـا نِـزارُ

٢٥ ـ وَشَبَّتْ طَيِّءُ آلجَبَلَيْنِ حَـرْبـاً تَهِـرُّ لِشَـجْـوِهـا مِنْهـا صُحـارُ

٢٦ ـ يَسُـدُّونَ آلشِّعَـابَ إِذا رَأَوْنـا وَلَـيْسَ يُعِيـذُهُمْ مِنّـا انْجِحـارُ

٢٧ ـ وَصَـوَّبَ قَوْمَـهُ عَمْرُو بْنُ عَمْرٍو كَـهـادِمِ عِـزِّه، وَبِـهِ آنْتِـصـارُ

---

(٢١) ا ب، مف، ر: في الزيارة، م: بالزبارة.

(٢٢) ا ب: طوال الدهر، مف ر: بطول الدهر، م: لطول الدهر، رواية عن أبي جعفر والطوسي في ر: وطول الحبس. ا مف ر م: إذ، ب: إذا (غلط).

(٢٣) ا ب م: رأيت، مف ر: رأينا.

ليس بينهم ائتمار: أي ليس بينهم مؤامرة ولا مشاورة في الصلح، يعني جلّ الأمر عن السفراء والمراسلة.

(٢٤) ا ب م ورواية عن الطوسي في ر: حللنا، مف ر: نزلنا.

سلافنا: أوائلنا المتقدمون. تحامتها: لم تجترىء عليها، فاجترأنا نحن ونزلناها.

(٢٥) البيت مع الأبيات ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٨ في المعاني ٩٣٣ ـ ٩٣٥. والبيت وحده في البكري ٣١.

ا ب مف ر م: وشبت طيء الجبلين حرباً، المعاني والبكري ورواية عن أحمد ابن عبيد في ر: وشبّ لطيء الجبلين حرب. ا ب مف ر المعاني والبكري: تهر، م: يهز (تصحيف).

الجبلان: هما جبلا طيء وهما سلمى وأجأ. تهر: تكره. وصحار: مدينة كبيرة في عمان، وهي منزل الأمراء فيها. يقول: إن هذه البلدة البعيدة تفزع من هذه الحرب. إنما أراد التهويل بشدة هذه الحرب.

(٢٦) ا ب مف ر م: وليس يعيذهم، رواية عن الضبي في ر: وليس معيذهم. ر م: منا، ا ب مف: منها.

الشعاب: جمع شعب، وهو الشق في الجبل، والانجحار: الدخول في الجحر. يقول يسدون الثنايا والطرق لئلا نصل إليهم وليس ذلك بنافعهم.

(٢٧) ا ب والمعاني: صوّب، مف ر م: اجدّل. ا ب: كهادم عزه، مف ر م والمعاني: كجادع أنفه.

٢٨ ـ وَأَصْعَدَتِ ٱلرِّبابُ فَلَيْسَ مِنْها ... بِصاراتٍ وَلا بِالحُبْسِ نارُ

٢٩ ـ فَحاطُونا ٱلقَصا، وَلَقَدْ رَأَوْنا ... قَرِيباً حَيْثُ يُسْتَمَعُ ٱلسِّرارُ

٣٠ ـ يَسُومُونَ ٱلصِّلاحَ بِذاتِ كَهْفٍ ... وَما فِيها لَهُمْ سَلَعٌ وَقارُ

٣١ ـ وَأَنْزَلَ خَوْفُنا سَعْداً بِأَرْضٍ ... هُنالِكَ إِذْ تُجِيرُ وَلا تُجارُ

صوب قومه: أي انحدر بهم. يريد عمرو بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبدالله بن دارم من بني تميم. يقول: كان عمرو كالذي يهدم عزه بيده وبه قوة وانتصار

(٢٨) أصعدت الرباب: أي ارتفعوا هاربين إلى نجد. والرباب قبائل، عمومة تميم، وهم ضبة بن أد وبنو أخيه عبد مناة وهم ثور وعكل وعدي وتيم. صارات والحبس: موضعان. يقول: هربت الرباب فليس منها نار توقد بهذين الموضعين.

(٢٩) البيت في الأشتقاق ١٩، والممدود ٩٩، واللسان (قصا).
ا مف ر ل والممدود: القصا ولقد، الاشتقاق والمعاني ورواية في ر ل الممدود: القصاء وقد، م ب: الغضا ولقد.
حاطونا: أي أحاطو بنا. والقصا: البعد، يمدُّ ويقصر. ومعنى «حاطونا القصا» في البيت: هربوا منا وتباعدوا عنا، وهم حولنا، وما كنا بالبعد منهم لو أرادوا أن يدنوا منا. وحاطهم القصا: أي حاطهم من بعيد وهو يتبصرهم ويتحرز منهم.

(٣٠) البيت في الإصلاح ٤٤، والبلدان (الكهف)، واللسان (صلح، قير، سلع).
ا ب مف ر ل ق والإصلاح: يسومون، م: يسيمون. ا ب مف ر ق ل (صلح، قير) والإصلاح: الصلاح، ل (سلع): العلاج (تصحيف)؟، م ورواية عن الأصمعي في ر: الوسيق.
يسومون: يعرضون. والصِّلاح بالكسر: الصلح، مصدر صالح. ذات كهف: موضع. والسلع والقار: شجران مران. وما موصولة بمعنى الذي يقول: والذي لهم في ذات كهف شر وبلاء، أي أنهم تركوا موضع الكلأ من أجلنا وخوفنا، وتنحَّوا عنا إلى أرض سوء مرتعها السلع والقار.

(٣١) البيت والذي يليه في البلدان (المرانة)، وهما في أبيات آخر في المعاني ٩٣٣ ـ ٩٣٥ كما أشرنا سابقاً. وهذان البيتان ـ حسبما يقول ليال ناشر شرح المفضليات في شرح المرزوقي على المفضليات، وفي نسخة المفضليات في نسخة المفضليات (فينا)، وهما كذلك في نسخة المفضليات (المتحف البريطاني) مع علامة «خ» أي نسخة. وتضيف نسخة المتحف البريطاني بعدهما الأبيات ٢٩، ٤٠، ٤١؛ على حين ترد الأبيات الثلاثة في شرح المرزوقي وفي نسخة فينا بالترتيب الذي وردت فيه في مخطوطتي ديوان بشر (انظر شرح المفضليات ٦٧٠ في الحاشية). وقد أورد ناشر المفضليات هذه الأبيات الخمسة نقلاً عن حاشية ليال.

٣٢ ـ وَأَدْنَى عامِرٍ حَيّاً إلَيْنا عُقَيْلٌ بِالمَرَانَةِ فالوِبارُ

٣٣ ـ وَبُدِّلَتِ الأَباطِحُ مِنْ قُشَيْرٍ سَنابِكَ يُسْتَثارُ بِها الغُبارُ

٣٤ ـ وَقَدْ ضَمَزَتْ بِجِرَّتِها سُلَيْمٌ مَخافَتَنا كَما ضَمَزَ الحِمارُ

٣٥ ـ وَلَيْسَ الحَيُّ حَيُّ بَني كِلابٍ بِمُنْجِيهِمْ، وَلَوْ هَرَبُوا، الفِرارُ

ا ب مف المعاني: إذ تجير، ق: إذ نجير، م: لا تجير. ا ب مف م المعاني: تجار، ق: نجار.

سعد: هم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم. يقول: أنزلهم خوفنا بأرض لا يخرجون منها، وقد كانت تجير ولا تجار، فصارت إلى هذه الحال.

(٣٢) البيت في البلدان (الوبار)، والتاج (وبر).

ا ب مف: وأدنى... فالوبار، ـ رم. ا ب: فالوبار، مف ق: والوبار، التاج: أو بار.

عقيل: من أحياء بني عامر. المرانة: اسم موضع. والوبار: اسم قبيلة، وهم ولد وَبَر بن كلاب (انظر شرح المفضليات ٦٧٠ في الحاشية نقلاً عن كتاب الأختيارين).

(٣٣) ا ب: قشير، مف وم: نمير.

الأباطح: جمع أبطح وهو بطن الوادي يكون فيه الحصى الصغار. وقشير: حي من بني عامر، وهو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. والسنابك: جمع سنبك وهو مقدَّم طرف الحافر. يعني أنهم أجلوهم عن أرضهم فصار بالأباطح بعد نمير خيل تثير الغبار بسنابكها.

(٣٤) البيت في المقاييس ٣٧٢/٣، والصحاح واللسان (ضمز). وقد نسبه في اللسان إلى ابن مقبل، وهذا غلط.

ا ب مف ر م ل والمقاييس والمعاني: وقد، الصحاح: لقد. ا ب مف ر م ل والمقاييس والصحاح: بجرتها، المعاني: بحرتها.

ضمز: ضمز البعير إذا أمسك جرَّته في فيه ولم يجترَّ من الفزع أو سرعة السير، ومعنى ضمزت ها هنا خضعت وذلت، وإنما قال ضمزت بجرتها على جهة المثل والتشبيه، أي سكتوا فما يتحركون ولا ينطقون من الفزع. وإنما خصَّ الحمار لأنه لا يجترّ فهو ضامز أبداً.

(٣٥) ا ب مف ر: بني كلاب، رواية عن الطوسي في ر: بني بغيض، م: بنو بغيض (غلط)، رواية أخرى في ر: بني سبيع. ا ب م: ولو، مف ر: وإن.

بنو كلاب: حي من أحياء بني عامر.

٣٦ - وَأَمَّا أَشْجَعُ ٱلْخُنْثَى فَوَلَّوْا ... تُيُوساً بِالشَّظِيِّ لَهُمْ يُعَارُ

٣٧ - وَحَلَّ ٱلْحَيُّ حَيُّ بَنِي سُبَيْعٍ ... قُرَاضِبَةً، وَنَحْنُ لَهُمْ إِطَارُ

٣٨ - وَلَمْ نَهْلِكْ لِمُرَّةَ إِذْ تَوَلَّوْا ... فَسَارُوا سَيْرَ هَارِبَةٍ، فَغَارُوا

٣٩ - أَبَى لِبَنِي خُزَيْمَةَ أَنَّ فِيهِمْ ... قَدِيمَ ٱلْمَجْدِ، وَالْحَسَبُ النُّضَارُ

---

(٣٦) البيت في اللسان (يعر).

ا ب م ل: فولوا، مف ر: فولت. ا ب مف ر م: لهم، ل: لها. ا ب مف ر ل: يعار، م: يَعار.

أشجع: حي من غطفان، وهم أشجع بن ريث بن غطفان. والشظيّ: بلد. واليعار: أصوات المعز. وصف أشجع وهو قبيلة بالخنثى وهو مفرد لأن أشجع في لفظ واحد.

يقول: هم لا رجال ولا نساء هربوا كالتيوس يتصايحون.

(٣٧) البيت في المقاييس ١١٣/١، والبكري ١٠٥٧، والبلدان (قراضبة)، واللسان (قرضب، أطر).

ا ب مف ر ل البكري: قراضبة، ق: قراضية، م: قراظبة، رواية عن الطوسي في ر: قواصية. ا ب مف ر م ل والبكري: لهم، ق: له.

بنو سبيع: حي من ذبيان. وقراضبة: يُروى بفَتح القاف وضمِّها. والقَراضبة، بفتح القاف: المحتاجون، الواحد قُرْضوب وقِرْضاب، وهو في محل حال، فيريد: أنا محدقون بهم نصدّ عنهم من يخافونه. وقُراضبة، بضم القاف: بلد، أي حلّوا قراضبة ونحن محيطون بهم.

(٣٨)البيت في المقاييس ٢٨٢/١، والبلدان(هاربة)، والتاج٥١٤/١.

اب مف روالمقاييس والمعاني والتاج: نهلك، م: يهلك، ق: تهلك. اب مف ر م ق والمقاييس والمعاني: فساروا، التاج: وساروا. اب مف رق والمقاييس والمعاني والتاج هاربة، م: هادية.

لم نهلك: أي لم نستوحش ولم نبال بهم إذ فارقونا. ومرّة: بطن من ذبيان، وهم مرة بن سعد بن ذبيان. وهاربة: حي أيضاً، وهم هاربة بن ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان، وأمهم البقعاء بنت سلامان بن ذبيان (المقاييس ٢٨٢/٢)، وهم هاربة البقعاء إخوة سعد وفزارة. وقوله: «فساروا سير هاربة» ذلك أنه كانت حرب بين هاربة وبين قومهم غطفان، فتحولت هاربة عن قومهم غطفان إلى الشام، ونزلوا في بني ثعلبة بن سعد. وقد بادت هاربة إلا بقية يسيرة في بني سعد. فغاروا: أي أتوا الغَوْر. شبه هرب مرة بتحول هاربة عن قومهم.

(٣٩) ا ب مف: أبي... النضار، ـ ر م.

خزيمة: هو أبو أسد قوم بشر، وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار والنضار: الخالص.

٤٠ ـ هُمُ فَضَلُوا بِخَلَّاتٍ كِرامٍ مَعَدّاً حَيْثُما حَلُّوا وَسَارُوا

٤١ ـ فَمِنْهُنَّ ٱلْوَفاءُ إذا عَقَدْنا، وأَيْسَارٌ إذا حُبَّ ٱلْقُتَارُ

٤٢ ـ فَأَبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ بِهِمْ رَسُولاً كِنانَةَ قَوْمَنا فِي حَيْثُ صارُوا

٤٣ ـ كَفَيْنا مَنْ تَغَيَّبَ، وٱسْتَبَحْنا سَنامَ ٱلأَرْضِ إذْ قَحِطَ ٱلْقِطارُ

٤٤ ـ بِكُلِّ قِيَادِ مُسْنِفَةٍ عَنُودٍ أَضَرَّ بِها المَسَالِحُ وَٱلغِوَارُ

---

(٤٠) ا ب مف: هم فضلوا... وساروا، ـ رم.
بخلات: أي بخصال، واحدتها الخَلَّة.

(٤١) ا ب مف: فمنهن... القتار، ـ ر م. ا مف: فمنهن، ب:... نهن (خرم).
أيسار: جمع اليَسَر، بفتحتين، وهم المجتمعون على الميسر. والقتار: رائحة الشواء. يقول: إننا نذبح الجزر في الميسر عند قلة الغذاء واشتهاء اللحم في جدب الشتاء.

(٤٢) ا ب ورواية عن الطوسي في ر: بهم، مفث ر م: بنا.
الرسول: بمعنى الرسالة ها هنا، كما جاء في القرآن: «إنا رسول رب العالمين أي رسالة رب العالمين.

(٤٣) البيت في شرح أدب الكاتب للجواليقي ٢٥٦. سنام الأرض: أرفع بلاد نجد. والقطار: جمع قطرة، يُريدُ المطر، وقحطُ القطار: أي قلّ المطر وأجدب الناس. يقول نزلنا أرض نجد وغلبنا عليه أهله حين عمَّ الناس الجدب.

(٤٤) البيت مع البيت ٤٦ بعده في الحيوان ٥/٥٥٩. والبيت وحده في المعاني ٩٧، واللسان (سلح).
المسنفة: بكسر النون، الفرس المتقدمة، وبفتح النون التي شُدَّ عليها السِّناف وهو لبب يشدّ من وراءِ السرج إلى صدر الفرس لئلا يضطرب السرج ويتأخر. والعنود: الفرس التي لا تستقيم على حالة ولكنها تعارض في الطريق لمرحها. والمسالح: موضع القتال حيث يستعمل السلاح، الواحد مسلحة، أو هي بمعنى الثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدوّ لئلا يطرقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له. والغوار: الغارة، مصدر غاور.

(٤٤) البيت في المعاني ١٥٨، والممدود ٤٠، واللسان (نسف). وعجزه في اللسان (خوى).
ا مف ر م ل والمعاني والممدود: يسد خواء طبيبها، رواية الضبي في ر: إذا ما سد طبيبها، ب: يسد حواء طبيبها (تصحيف).
نسوف للحزام: أي أنها إذا استفرغت جرياً مدّت يديها مداً شديداً، فمرفقاها ينسفان حزامها أي يدفعانه ويؤخرانه. والخواء: الفرجة والهواء بين الشيئين والطي لكل ذات

٤٥ ـ نَسُوفٍ لِلحِزَامِ بِمِرْفَقَيْهَا يَسُدُّ خَوَاءَ طُبْيَيْهَا ٱلغُبَارُ

٤٦ ـ مُهَارِشَةِ ٱلعِنَانِ كَأَنَّ فِيهِ جَرَادَةَ هَبْوَةٍ فِيهَا ٱصْفِرَارُ

٤٧ ـ كَأَنِّي بَيْنَ خَافِيَتَيْ عُقَابٍ تُكَفِّئُنِي إذا ٱبْتَلَّ ٱلعِذَارُ

٤٨ ـ تَرَاهَا مِنْ يَبِيسِ ٱلمَاءِ شُهْباً مُخَالِطَ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ

حافر كالضرع لكل ذات ظلف. يقول: من سرعة جري هذه الفرس وشدة وقع حوافرها، يرتفع الغبار حتى يسدَّ الفجوة التي بين طبييها.

(٤٦) البيت في المعاني ٤٥، ٦١٤، والمخصص ١١٥/١٦، واللسان (هرش)، وعجزه في الحيوان ١٧٤/٤ . اب م رواية عن الطوسي في ر والمعاني والمخصص: كأن فيه، مف ر ل والحيوان: كأن فيها. التهارش: تقاتل الكلاب وتواثبها، ومهارشة العنان: أي تجاذبه وتعضه لمرحها، يريد أنها فرس مرحة نشيطة. والهبوة: الغبار. وخصَّ جرادة الهبوة، لأن الهبوة لا تكون إلا مع ريح، وذلك أشدّ لطيران الجَرادة. ووصفَ الجرادة بالصفرة لأن الذكور فيها صفر، وهي أخف أبداناً، وتكون لخفة الأبدان أشدَّ طيراناً. والجرادة إنما تصفر حين تتم وينبت جناحاها وتبلغ مداها. يقول: إن عدْوَ هذه الفرس كطيران جرادة ذكر تامَّة في يوم ريح وغبار.

(٤٧) ا ب مف م: كأني... العذار، ـ ر. ا ب: تكفئني، مف: تقليني، م: يكفكني. الخافية: واحدة الخوافي، وهي الريش الصغار في جناح الطائر. تكفئني: تقلبني. والعذار من اللجام: ما وقع على خدي الفرس منه. وفي حاشية شرح المفضليات ٦٧٣ نقلاً عن كتاب الاختيارين: «شبه فرسه بعد كلالها وابتلال عذارها بالعرق بعقاب انقضَّ على صيد».

(٤٨) البيت في المعاني ١٠، واللسان (يبس).
ا ب مف ر م ل والمعاني: مخالط، رواية عن الطوسي في ر: مخالف. ا ب مف ر ل والمعاني: منها غرار، م: فيها غزار.
يبس الماء: يعني العرق إذا جفَّ. وقوله: «تراها... شهباً» ذهب إلى الخيل وشهباً: جمع أشهب وشهباء بمعنى الأبيض، وأصل الشهبة البياض، لم تدخل عليه ألوان. يريد: يجف العرق عليها فتبيضّ، وعرق الخيل إذا يبس أبيضّ، وعرق الإبل إذا يبس أصفرّ. والدِرَّة: درة العرق، وهو انفتاق الفرس به. والغرار: انقطاع الدرة وقلّتها. وإنما أراد أنها تعدو فتلزم الطرقة الأولى من العدو، ثم يحملها النشاط والمرح فتترك ذلك وتنفتر في الجري من عزة نفسها، فيحملها عرقها على أن ترجع إلى الذي كانت عليه من العدو في سيرتها الأولى.

٤٩ - بِكُـلِّ قَـرارةٍ مِنْ حَيْثُ جـالَتْ رَكِيَّـةُ سُنْبُـكٍ فِيهـا ٱنْـهِيَـارُ

٥٠ - وخِنْـذِيـذٍ تَـرَى ٱلغُـرْمـولَ مِنْـهُ كَـطَيِّ ٱلـزِّقِّ عَـلَّقَـهُ ٱلتِّـجـارُ

٥١ - يُضَمَّـرُ بِالأَصـائِـلِ، فهْـوَ نَهْـدٌ أَقَـبُّ مُـقَـلَّصٌ، فِـيـهِ ٱقْـوِرَارُ

٥٢ - كَـأَنَّ سَـرَاتَـهُ، وَٱلخَيْـلُ شُعْـثٌ غَـداةَ وجِيفِـهـا، مَسَـدٌ مُـغَـارُ

---

(٤٩) البيت في اللسان (هور). وفي شرح المفضليات ٦٧٤، ٦٧٥ أن أبا عبيدة كان يرى أن هذا البيت والذي قبله لرجل من بني تميم. وسيأتي البيت في قصيدة اخرى ميمية لبشر مع كلمة «انثلام» بدل «انهيار» في القافية، (انظر ٤٣ : ٣٦).

ا ب مف ر م: جالت. ، ل: حارت.

والقرارة: الموضع الطيب الطين من الأرض. جالت: أي دارت. والركية: الحفيرة، وهو موضع وقع الحافر ها هنا. والسنبك: مقدم طرف الحافر. وانهيار: أي موضع لين ينهار. يقول: حافر هذه الفرس مقعر طويل فإذا وقع على الأرض ودخل فيها فارتفع ما حول الحافر انثلمت الحفرة وانهار ترابها.

(٥٠) البيت في النقائض ٩١٧، والبيان ١١/٢، والحيوان ١٣٣/١، وأدب الكاتب ٢٢٥، والأضداد ٤٩، واللسان (غرمل). وصدره في اللسان (خنذ).

ا ب مف ر م ل والنقائض والبيان والأضداد: كطي الزق علقه، الحيوان: كطي البرد يطويه.

الغرمول: وعاء الذكر. والخنذيذ: الفحل، أو الفرس الكريم. والتِّجار: جمع تاجر، والعرب تسمي بائع الخمر تاجراً، فغلب هذا الأسم على الخمّار. شبه غرمول الفرس بزق خلا ممافيه فعلقه صاحبه.

(٥١) البيت في اللسان (قرر، قلص).

يضمر: التضمير عندهم أن يعلف الفرس الحشيش اليابس، على قول الأصمعي، وهو التعريق وحسن الصنعة، على قول ابن الأعرابي. والأصائل: العشايا، واحدها الأصيل. والنهد: الضخم. والأقب: الضامر البطن. والفرس المقلص: الطويل القوائم المنضم البطن والأقورار: الضمور.

(٥٢) ا ب مف ر: وجيفها، م ورواية عن ابن الأعرابي في ر: وجيفهم.

سراته: أعلاه. شعث: جمع أشعث، وهي المغبرة المتفرقة شعور النواصي والأعراف، وجعل الخيل شعثاً من التعب وطول السفر والوجيف: المر السريع. والمسد : الحبل. والمغار: الشديد الفتل. والمعنى: كأنه سراته في استوائه وامّلاسه وشدته حبل مفتول فتلاً شديداً.

٥٣ ـ يَظَلُّ يُعارِضُ ٱلرُّكْبانَ يَهْفُو   كَأَنَّ بَياضَ غُرَّتِهِ خِمارُ

٥٤ ـ كَأَنَّ حَفيفَ مِنْخَرِهِ إذا ما   كَتَمْنَ ٱلرَّبْوَ كِيرٌ مُسْتَعارُ

٥٥ ـ [وَجَدْنا في كِتابِ بَني تَميمٍ:   أَحَقُّ ٱلخَيْلِ بِالرَّكْضِ ٱلمُعارُ]

---

(٥٣) البيت في السدود ١٠٤، ورواية الصدر فيه:

على قَرْماءَ عاليةً شَواهُ

والبيت على هذه الرواية مع آخر قبله في البلدان (قرماء) منسوبين إلى السليك ابن السلكة، وهو وحده في البكري ٤٩١ منسوباً إلى تأبط شراً وفي اللسان (قرم) غير منسوب.

يعارض الركبان: يسير بإزائهم يباريهم. يهفو: يسرع.

(٥٤) البيت والذي بعده في الميداني ٢٠٣/١. والبيت وحده في الإصلاح ٣٣، والمعاني ١٢٢، والمقاييس ١٤٩/٥، واللسان (عور، كتم، ربا).

حفيف منخره: أي صوت نَفَسه من منخره. كتمن الربو: أي الخيل، ويقال للفرس إذا ضاق منخره عن نَفَسه: قد كتم الربو. يقول: منخر هذا الفرس واسع لا يكتم الربو إذا كتم غيره من الدواب نَفَسه من ضيق مخرجه. وإنما وصفه بسعة المنخر لأن ذلك يستحب من الفرس لإخراج نفسه، وربما ضاق فيشق حينئذ. والكير: الزق الذي ينفخ فيه الحداد النار. وجعله مستعاراً لأنه إذا كان كذلك كان العمل به أحث وأعجل؛ لأنهم يريدون رده إلى صاحبه.

(٥٥) البيت في الصحاح واللسان والقاموس والتاج (عير).

مف و: وجدنا... المعار. ـ ا ب م. مف ز والميداني والصحاح واللسان والقاموس والتاج: المعار، رواية عن أبي سعيد الضرير في الميداني: المغار.

وقد وجد هذا البيت في شعر بشر وفي شعر الطرماح، ولذلك اختلفوا في قائله منذ القديم. وفي شرح المفضليات ٦٧٦ وفي المراجع المذكورة بسط لهذا الخلاف. وقوله: «أحق الخيل بالركض المعار» مثل من أمثال العرب (انظر الميداني ٢٠٣/١). ويبدو أن هذا المثل هو الذي وجده بشر في كتاب تميم. وهناك بيت آخر ضمنه قائله هذا المثل وهو قوله:

اعيروا خيلكم ثم اركضوها   أحق الخيل بالركض المعار

انظر الميداني ٢٠٣/١، واللسان: عير).

وفي معنى قوله «المعار» خلاف. فقالوا: المعار من العارية والمعنى: لا شفقة لك على العارية، لأنها ليست لك، واحتجوا بالبيت الذي قبله. وقال من رد على هذا القول المعار المسمّن، يقال: أعرت الفرس إعارة إذا سمنته. والمعار: المضمّر المقدّح. والمعار أيضاً: من عار الفرس يعير إذا انفلت وذهب على وجهه ها هنا وها هنا، وأعاره صاحبه إذا حمله على ذلك.

٥٦ ـ وَما يُدْرِيكَ ما فقْرِي إلَيْهِ　إذا ما ٱلقَوْمُ كَرُّوا أوْ أغارُوا

٥٧ ـ [أرَى أمْراً لَهُ ذَنَبٌ طَوِيلٌ　عَلى مَقْرَاهُ كِفْلٌ أوْ حِصارُ]

٥٨ ـ وَلاَ يُنْجِي مِنَ ٱلغَمَراتِ إلاّ　بُرَاكَاءُ ٱلقِتالِ أوِ ٱلفِرارُ

---

(٥٦) البيت في اللسان (ركب) منسوباً إلى السليك بن السلكة.
ا ب مف: وما يدريك.. أغاروا، ـ ر م. ا ب مف: القوم كروا أو، ل: الركب في نهب.
ما فقري اليه: أي حاجتي إليه يريد: أنا أحتاج إليه كثيراً.

(٥٧) هذا البيت زيادة من كتاب الاختيارين نقلاً عن حاشية في شرح المفضليات ٦٧٧.
المقرى: نرى أنه بمعنى الظهر. والكفل: الكساء يلف على السنام ويركب. والحصار: هو المِحْضَرَةَ وهي قتب صغيرة يحصر به البعير ويلقى عليه أداة الراكب. شبه الأمر الذي أشار إليه ببعير عليه أداته فهو على أهبة لأن يرحل عليه. وكأني به يشير الى الحرب.

(٥٨) البيت في النقائض ٤٢٣، والممدود ٢١، والأغاني ١٤٣/١٣، والصناعتين ٤٤٤، واللسان (برك)، والخزانة ٣٥٩/٣.
ا ب مف ر م ل والنقائض والممدود والأغاني والصناعتين: براكاء، رواية في الممدود: بُروكاء.
الغمرات: الشدائد، واحدها الغمرة مثل غمرة الموت وغمرة الهم. والبراكاء: بفتح الباء وضمها، أن يبرك الرجل في القتال ويثبت ولا يبرح. وقد أورد أبو هلال العسكري هذا البيت في الصناعتين، في فصل المقاطع، بين الأبيات التي أوردها أمثلة على المقطع الحسن في الشعر، وقال: «وقال بشر بن أبي خازم في آخر قصيدته: ولا ينجي... البيت. ثم قال: فقطعها على مثل سائر. والأمثال أحب إلى النفوس لحاجتها إليها عند المحاضرة والمجالسة».

خاتمة

حرى بنا وقد وصلنا إلى نهاية المطاف في شعر بشر أن نقف وقفة مسترجعة لنسجل أبرز ما توصلنا إليه من نتائج .

وقد رأى القارىء أننا فى الفصلين الأول والثانى من هذه الدراسة حاولنا أن نتمثل موقع بنى أسد قوم بشر من الأحداث الدائرة فى عصره ، وأن نستكشف علاقتهم بالقوى المؤثرة المحركة ، ولعل أبرز مالفتنا إليه هو ذلك التكتل الحيرى الذى كان محوره قبيلتى أسد وذبيان .

وفى ضوء ذلك رحنا نستوضح حقيقة معركتى النسار والجفار اللتين ظل بشر يلهج بهما فى شعره ، وقد وضح لنا بمقابلة شعر بشر بأقوال الإخباريين والرواة أن أمر هاتين المعركتين لم يكن من الضآلة بالقدر الذى تناقلته الأخبار والروايات وإنما كانت المعركتان أضخم من ذلك بكثير فهما كما اتضح لنا انتصار حاسم للنفوذ الحيرى فى منطقة نجد ، ولعل أهم ما اتضح لنا أيضا أن تميما لم تكن هى الداعية إلى معركة النسار وإنما هم بنو عامر وهوازن ، أما تميم فوقفت موقف المترقب المساوم وغالت فى مساومتها حتى استيأس منها الأحاليف فداهموها فى الجفار التى قصد بها أن تكون ضربة تأديبية محدودة . وقد برز لنا من خلال ذلك موقف بشر وموقعه من قومه وشعوره القبلى الدافق على نحو جعلنا نتشكك أيضا فيما رواه الإخباريون عن هجائه لأوس بن حارثة الطائى ، وما قالوه عن دوافع هذا الهجاء المادية فرحنا مرة ثانية نقابل الأخبار بشعر بشر فإذا الأمر على خلاف ماذكروا وإذا الدافع إلى هذا الهجاء قبلى لا مادى ، وإذا الحقيقة أن طيئا خذلت الأحاليف أو تخاذلت عنهم فى الجفار .

وعلى أساس من هذا التصور بدأنا فى بناء السياق التاريخى لشعر بشر ، وحاولنا أن نرتبه ترتيبا زمنيا وقد استغرق ذلك الفصل الثالث من هذه الدراسة .

ولم يكن السياق التاريخى مجرد سرد زمنى فحسب ، وإنما كان — كما رأى القارىء — وقفات تحليلية متأنية عند كل قصيدة وكل مقطوعه ، ومن خلال هذه الوقفات تعرفنا على أبعاد أخر جديدة لمعركتى النسار والجفار ، كما تعرفنا على خفايا كانت محتجبة فى علاقة بشر بأوس بن حارثة .

ثم إن هذا السياق جعلنا نرقب الأحداث عن كثب ، ونشهد نموها وتطورها .

ومن ناحية أخرى فقد قدم هذا السياق قراءة جديدة لعديد من قصائد بشر ، وفهما صحيحا لكثير مما غمض على الشراح والمفسرين فضلا عما أوقفنا عليه من الأسرار الفنية لهذه القصائد . وكان طبيعيا — بعد ذلك — أن نضع شعر بشر فى سياقه الفنى وقد عقدنا لذلك الفصل الرابع من هذه الدراسة ، ولعل أبرز ما انتهينا إليه فى هذا الفصل هو العلاقة بين مقدمة القصيدة وموضوعها ، ثم هذه المادة البرية التى استقى منها بشر صوره ، ثم هذا النهج التصويرى الذى يقوم على اللقطة الخاطفة ، وحاولنا بعد ذلك أن نتلمس أسرار العبارة الشعرية عند بشر فوقفنا على ما يرجع منها إلى اللفظة والبناء ، وما يرجع إلى إيثار أنماط معينة من البيان .

وعقدنا فى هذا الفصل أيضا مقارنة بين بشر وبين شعراء طبقته الذين قرنهم به ابن سلام ، وقد اتضح لنا أن الجامع بينهم هو تلك المادة البرية التى استمدوا منها صورهم . وقد قدمنا فى هذا الفصل اجتهادا خاصا فى موسيقى الشعر عند بشر ، وأرجعنا إيثاره لبعض البحور الشعرية إلى ذوق بيئته ، كما حاولنا تفسير ما عرف به بشر من إقواء فأرجعناه إلى طريقة النطق بعد أن تبين لنا أن الإقواء كان سمة تكاد تكون عامة بين شعراء نجد .

وفى الفصل الخامس والأخير من هذه الدراسة تناولنا ما خرج عن السياق ، وقسمنا ما ورد فيه من شعر إلى ثلاثة أنواع ، نوع استعصى على السياق مع صحة نسبته لما يتناوله من حوادث ضيقة محدودة ، أو لما يتميز به من قصر وإبهام ،

ونوع ينفيه السياق سواء التاريخى أو الفنى ونوع ثالث توقفنا عنده وإن كنا نتشكك فى نسبته ، لأنه أبيات مفردة ، وروايات آحاد .

هذا — ربما — أهم ما حققته هذه الدراسة من نتائج والله نسأل أن يكون عملنا خالصا لوجهه .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

١ ـــ ابن الأبرص ، عبيد

ديوان عبيد بن الأبرص ، بتحقيق حسين نصار ط البابى ١٩٥٧ .

٢ ـــ ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد

الكامل فى التاريخ ط دار صادر بيروت .

٣ ـــ الأصفهانى ، الحسن بن عبد الله

بلاد العرب ، بتحقيق حمد الجاسر وصالح العلى ط دار اليمامة ، الرياض .

٤ ـــ الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين

الأغانى ط بيروت .

٥ ـــ الأصمعى ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب

الأصمعيات ، بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف .

٦ ـــ الأعشى ، أبو بصير ميمون بن قيس

ديوان الأعشى الكبير ، بتحقيق د . محمد محمد حسين .

٧ ـــ البغدادى ، عبد القادر بن عمر

خزانة الأدب ط بولاق ١٢٩٩ .

٨ ـــ البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، بتحقيق مصطفى السقا نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٩ ـــ ابن بليهد ، محمد بن عبد الله

صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار ، ط السنة المحمدية ١٩٥١ .

١٠ــ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
ــ البرصان والعرجان ، بتحقيق محمد مرسى لخولى ، ط دار الاعتصام ١٩٧٢
ــ البيان والتبيين ، ط القاهرة ١٩٤٨ ــ ١٩٥٠
ــ الحيوان ، ط القاهرة ١٩٣٨ ــ ١٩٤٨
١١ــ الجمحى ، محمد بن سلام
طبقات فحول الشعراء ، بتحقيق محمود شاكر ، ط المدنى القاهرة .
١٢ــ ابن حبيب ، أبو جعفر محمد
أسماء المغتالين ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط القاهرة ١٩٥٤ .
١٣ــ ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد
جمهرة أنساب العرب بتحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف .
١٤ــ الحطيئة ، أبو مليكة جرول بن أوس .
ديوان الحطيئة ، بتحقيق نعمان أمين طه .
١٥ــ حمد الجاسر
ــ المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعوديه (شرق المملكة) ط دار اليمامة ، الرياض .
ــ المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية (شمال المملكة) ط دار اليمامة ، الرياض .
١٦ــ الحموى ، أبو عبد الله ياقوت
معجم الأدباء « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ط القاهرة بعناية د . أحمد رفاعى .
١٧ــ ابن أبى خازم ، بشر
ديوان بشر بن أبى خازم ، بتحقيق د . عزة حسن ، ط دمشق ١٩٦٠ .
١٨ــ ابن رشيق ، أبو الحسن على
العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ١٩٠٧

١٩ـــ ابن زهير ، كعب
ديوان كعب بن زهير ، ط الدار القومية .
٢٠ـــ الضبى ، المفضل بين محمد بن يعلى
المفضليات ، بتحقيق شاكر وهارون ، ط د ر معارف
٢١ـــ ابن طباطبا ، أبو الحسن محمد بن أحمد
عيار الشعر ، بتحقيق د . محمد زغلول سلام ، ط الاسكندرية ونسخة أخرى ، بتحقيق د . عبد العزيز المانع ط ١٩٨٥ ، الرياض .
٢٢ـــ ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد
العقد الفريد ، شرح أحمد أمين والزين والإبيارى ، ط القاهرة .
٢٣ـــ عبد المحسن الحسينى
تقويم العرب فى الجاهلية ، ط جامعة الإسكندرية
٢٤ـــ العبسى ، عنترة بن شداد
ديوان عنترة بن شداد ، بتحقيق محمد سعيد مولوى ، نشر المكتب الاسلامى ١٩٧٠
٢٥ـــ العسكرى ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل
ديوان المعانى ، ط القاهرة ١٣٥٢
٢٦ـــ العبودى ، محمد بن ناصر
المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية (بلاد القصيم) ط ، دار اليمامة ، الرياض .
٢٧ـــ أبو عبيده ، معمر بن المثنى
النقائض « نقائض جرير والفرزدق » ط ليدن ١٩٠٥
٢٨ـــ ابن قتيبة ، أبو محمد بن عبد الله بن مسلم
الشعر والشعراء ، ط ليدن ١٩٠٢
٢٩ـــ المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد
الكامل ، ط الحلبى . القاهرة
٣٠ـــ المرزبانى ، أبو عبد الله محمد بن عمران

الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، ط المطبعة السلفية ١٣٨٥
٣١ـــ المرزوق ، أبو على أحمد بن محمد بن الحسين
الأزمنة والأمكنة ، ط حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢
٣٢ـــ المعينى ، عبد الحميد محمود
شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى ، ط القصيم ١٩٨٢
٣٣ـــ النابغة ، زياد بن عمرو
ديوان النابغة ، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط دار المعارف
٣٤ـــ الهمدانى ، الحسن بن أحمد بن يعقوب
صفة جزيرة العرب ، بتحقيق محمد بن الأكوع ، ط دار اليمامة ، الرياض .
٣٥ـــ وفاء السنديونى
شعر طيىء وأخبارها فى الجاهلية والإسلام . ط دار العلوم ، الرياض .
٣٦ـــ ياقوت ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله
معجم البلدان ، ط وستنفلد ١٨٦٦

ثانيا المراجع :

٣٧ـــ ابراهيم عبد الرحمن
الشعر الجاهلى ، قضاياه الفنية والموضوعية ، ط ١٩٨٠
٣٨ـــ بلا شير
تاريخ الأدب العربى ، تعريب ابراهيم الكيلانى ، ط دار الفكر بيروت .
٣٩ـــ جاد المولى
أيام العرب فى الجاهلية
بالاشتراك مع البجاوى ومحمد أبى الفضل ابراهيم ، ط دار الفكر
٤٠ـــ جواد على
المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط بغداد ١٩٧٨

٤١ـ شكرى عياد
موسيقى الشعر العربى « مشروع دراسة علمية » ط جامعة القاهرة ١٩٦٨
٤٢ـ شوقى ضيف
العصر الجاهلى ، ط دار المعارف
٤٣ـ عبد القادر الرباعى
الصورة الفنية فى النقد الشعرى « دراسة فى النظرية والتطبيق » ط دار العلوم ، الرياض ١٩٨٤
٤٤ـ عبد اللطيف المجذوب
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط القاهرة ١٩٥٥
٤٥ـ على البطل
الصورة الفنية فى الشعر العربى ، ط دار الأندلس .
٤٦ـ كارل بروكلمان
تاريخ الأدب العربى ، ط دار المعارف ١٩٧٤
٤٧ـ كارل نالينو
تاريخ الأدب العربى ، ط دار المعارف
٤٨ـ محمد مصطفى هدارة
الشعر العربى فى العصر الجاهلى ، الاسكندرية ١٩٨٧
٤٩ـ ناصر الدين الأسد
مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، ط دار المعارف ١٩٦٦
٥٠ـ يحيى الجبورى
قصائد جاهلية نادرة ، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٢.

المحتويات

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

رقم الايداع ١٩١٤ /١٩٨٨

٩٧٧ – ١٠٣ – ٩٣: – x


دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع
٣٦ شارع سوتير - الأزاريطة - الاسكندرية ت: ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ شارع قنال السويس - الشاطبى - الاسكندرية ت: ٥٩٢٣١٤٦
Bibliotheca Alexandrina
1019235